الجامعة الأمريكية المفتوحة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

المدخل إلى
التفسير الموضوعي

أ.د. عبد الستار فتح الله سعيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

بجامعتى الأزهر وأم القرى

حقوق الطبع محفوظة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

طبعة خاصة بالجامعة الأمريكية المفتوحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبنوره تشرق الظلمات، والصلاة والسلام على رسوله ورحمته للعالمين، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

فقد أنزل الله تعالى القرآن هدى ونوراً للناس، جمع لهم فيه أصول الدين، ومعالم الشريعة، وكرائم الأخلاق والأحكام، وحقائق البعث والجزاء، ودلائل الحق والصدق، وأسرار الحياة والكون، وسنن الاجتماع والاقتصاد، وأخبار الأمم والدول.

وبالجملة:

فقد جعله الله تعالى – مع وجازة اللفظ والحجم – دستوراً جامعاً، ومرجعاً شاملاً، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل: ٨٩].

ولذلك جاء نمطاً فريداً لا مثيل له، وتحدى الله تعالى الإنس والجن أن يأتوا ﴿بِمثل هذا الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٨٨]، أو ﴿بِسورة من مثله﴾ [البقرة: ٢٣]. فعجزوا، فكان العجز أبلغ دلائل الإعجاز، وكان الإعجاز أبلغ دليل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في أنه يتلقاه من مولاه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

وبهذا الإعجاز والامتياز تفرد القرآن في مبناه ومعناه جميعاً:

فكان معجزة النبي صلى الله عليه وسلم ودليله.

وكان أيضاً هداه وسبيله.

فصار بذلك معجزة خالدة دائمة.

لأنه دليل الرسالة الخاتمة.

وصوت النبوة الممدودة بعد: ﴿خاتم النبيين﴾ [الأحزاب: ٤٠].[1]

وكلمة الله الباقية المحفوظة.

وشرعته ومنهاجه للناس أجمعين إلى يوم الدين.

وإلى هذا المعنى يشير قوله عليه السلام:

"من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يُوحى إليه".[2]

ومن هنا كانت هذه المعجزة متجددة العطاء، وتتبدى بحجة الله البالغة في كل زمان، وتظهر جلائل حكمتها في كل مقام، فيرى الناس منها أتم ما يناسب أحوالهم في كل عصر، وكأن الوحي لا يزال يتنزل بها غضاً طرياً، أو لكأنها "الكلمة الطيبة" التي عناها القرآن:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ • تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

ولقد أنزل الله هذه المعجزة الإلهية لتخاطب الإنسان من جميع أقطاره، ولتحرك منه العقل والقلب، والحس والفطرة، حتى يتعامل معها على أساس من الفقه

(١) ونلاحظ هنا إضافة "خاتم" إلى الذوات: (لفظ النبيين)، وليس إلى المعاني: (النبوات)، إيذاناً ببقاء النبوة بعد انقطاع الأنبياء، لأن الله ضمن حفظها بحفظ القرآن، فلا حاجة إلى نبي جديد لوقوع الختم، ولا حاجة إلى نبوة جديدة لبقاء النبوة ممدودة موصونة على عكس دعاوى الفرق الكافرة المرتدة كالبهائية، والقديانية.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك من حديث عبد الله بن عمرو.

البصير، والتدبر الواعي، قال تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ولذلك أعجزت فصحاء العرب بغاية البلاغة والبيان.

وأعجزت علماء الأمم – ولا تزال– بنهاية الإحكام والإتقان.

وما من منصف يتدبر القرآن العظيم إلا أيقن بإعجازه المبين في كل جوانبه، وتطابقه مع حقائق العلم، وسنن الاجتماع والكون، وأسرار الحياة والنفس، ولذلك يشهد له كل ذي رأي رشيد، ويؤمن به كل موفق سعيد.(١)

إن كل كتاب، وكل مذهب في الأرض لا بد أن تبلى مع الأيام جدّته، وتتجاوزه الوقائع والتجارب، إلا القرآن العظيم، فإنه يتجدد كلما جدّ في حياة الناس جديد، وآية ذلك أن هذا العصر الذي تسوده الدعوة إلى "التخصص العلمي الدقيق"، ويغلب عليه الاتجاه إلى الفحص في شعب العلوم وفروعها قد وجد في القرآن الكريم ما يلبي هذه الحاجة – بل يربو عليها – بأبواب من العلم، وفنون من الحكمة، كانت كامنة في تضاعيف آياته البينات، وسوره المباركات.

ومن هذا الباب ذلك اللون الجديد من تفسير القرآن الكريم موضوعياً، والذي ينتقل الآن في مدارج التكوين والاستحكام، ليأخذ طوراً جديداً في وجهته، وطريقة عرضه وبحثه، وفي نوعية الموضوعات التي يثيرها ويستخرجها من القرآن الكريم، وفي

---

(١) أقرب مثال لذلك هو الكتاب الذي ألفه الطبيب الفرنسي: "موريس بوكاي" وترجم باسم: "القرآن والتوراة والإنجيل والعلم" دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، وانتهى فيه علمياً إلى الثقة التامة بالنص القرآني وحده.. الخ.

وانظر كتاب: "لماذا أسلمنا"؟ وكتاب "رجال ونساء أسلموا" ففيهما شهادات عباقرة الأمم للقرآن، وفضله عليهم حين قادهم إلى الإيمان.

الغاية التي يستهدفها، وفي النتائج والآثار التي يتوخاها، حتى يصبح فنا من فنون التفسير القرآني قائماً برأسه، ومتميزاً بحدوده ومعالمه، ليجلى عظمة القرآن في هذا الزمان، وليبرز لوناً جديداً من وجوه إعجازه، متمثلاً في موضوعاته المتكاثرة، وقضاياه التامة المتكاملة، وحقائقه المترابطة، رغم ما بين أجزائها من فواصل الزمان في نجوم القرآن.

ولعل هذا هو ما قرره الحديث النبوي في وصف القرآن :

" ... وهو الصراط المسْتَقِيمُ، هُوَ الّذي لاَ تَزِيغُ به الأَهْوَاءُ، وَلاَ تَلْتَبِسُ به الأَلْسِنَةُ، وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلاَ يَخْلُقُ عَلى كَثْرَةِ الرَّدّ، وَلاَ تَنْقَضي عَجَائِبُهُ".[١]

هذا وإن لي مع "التفسير الموضوعي" قصة قديمة:

فقد كنت في مطلع الشباب أعمل في إحدى حواضر صعيد مصر،[٢] ووفقني الله تعالى إلى كتابة عدة محاضرات بعنوان: "مع القرآن العظيم"، تحدثت فيها عن أغراض القرآن المكي في العقائد: (الإلهيات - النبوات - السمعيات)، وعن أغراض القرآن المدني في التشريع التفصيلي، ولقد تركت هذه الدراسة في نفسي مشغلة عظيمة، جعلت تستحثني لأكتب كتاباً عن "الأهداف الأساسية للقرآن في مراحل النزول" وقد شرعت في أوائله، ثم حالت بيني وبينه أحداث جسام جعلته أملاً لا عملاً، حتى ضاعت هذه الدراسات جملة، فيما ضاع من مستور ومنشور، حين وقعت محنة الإسلام الكبرى، منذ عشرين سنة تقريباً.

ثم شاء الله تعالى أن تتجدد قصتي مع التفسير الموضوعي مرة أخرى، حين

(١) رواه الترمذي والدارمي وغيرهما من حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً، وهو حديث حسن في أصح الأقوال. ويخلق - بضم اللام - بمعنى يبلى، أي أن القرآن لا يصيبه البلى والتمزق من كثرة التكرار والبحث فيه، بل يزداد قوة وتماسكاً.

(٢) مدينة سوهاج عام: (١٣٧٩، ١٣٨٠هـ)، وكنت مدرساً بالمعهد الديني الأزهري.

أسند إليَّ تدريس عدة موضوعات منه،[1] فطفقت أبحث عن كتاب يكون كالمقدمة أو المدخل هذا اللون من التفسير، لأجعله تأسيساً أو تمهيداً بين يدي دراسة الموضوعات، فلم أظفر يومئذ بشيء، وسألت الأستاذ الذي كان يدرس المادة قبلي، ففاجأني بأنه يدرس الموضوعات بلا مقدمات، وعجبت من هذا المسلك، إذ كيف يُفهم العلم على هذا النمط، بلا حدود ولا معالم؟ وهل خلت المكتبة الإسلامية الزاخرة من هذه الدراسة الضرورية؟ وبدا لي وجاهة ما كنت أتعجب منه قديماً من كلام العلماء، حين قسموا العلوم العربية والدينية إلى ثلاثة أقسام:

الأول: قسم نضج واحترق، وهو النحو والأصول.

الثاني: قسم نضج و لم يحترق، وهو الفقه والحديث.

الثالث: قسم لم ينضج و لم يحترق، وهو التفسير والبلاغة.

واستعنت الله تعالى فكتبت يومئذ مقدمة يسيرة في بيان هذا اللون من التفسير، أمليتها على الطلاب، ثم استفدت فوائد جمة - كنت أقيدها في أوراق متناثرة - حين زاولت تدريس الموضوعات، وحين اشتغلت بكتابة ما يقارب ستين حلقة في برنامج لإذاعة القرآن الكريم أسميته: "مواقف قرانية".[2]

ثم مضت السنون بشواغلها وأثقالها، ولا تزال نفسي معلقة بدراسة هذا اللون من تفسير القرآن الكريم ، وبضرورة كتابة مقدمة علمية له، تضبط قواعده، وتحدد معالمه، وتميز طرقه وأهدافه، وتدل على مصادره ومراجعه.

وقد أذن الله تعالى بذلك حين أسند إليَّ تدريس هذه المادة في كلية أصول الدين بالقاهرة، فرجعت إلى أوراقي المتناثرة، تحثني رغبتي القديمة، وشرعت في

(١) لقسم الدراسات العليا، بجامعة الإمام في مدينة الرياض عام ١٤٠٠هـ تقريباً.

(٢) بمدينة الرياض في عام ١٤٠٢هـ تقريباً.

البحث والتنقيب، وتطلبت ما يكون قد جَدَّ من كتب في هذا الشأن، وقد تفضل أستاذنا وشيخنا العلامة الدكتور/ أحمد الكومي فأهداني بحثاً له بعنوان: "التفسير الموضوعي في القرآن الكريم" صدّره بمقدمة أفاد فيها وأجاد، وحدد بها المعالم الأولى لهذا الفن، وأبرز طريقته، وهو بحث لم يسبق إليه - فيما أعلم - بل أظنه الخطوة العلمية الأولى في هذا الباب.

ثم أهداني الصديق الدكتور عبد الحيّ الفرماوي كتابه "البداية في التفسير الموضوعي" الذي تابع فيه طريقة شيخنا "الكومي" وأضاف به العديد من الحقائق العلمية، ونبه إلى كثير من المراجع المفيدة.

ولقد نظرت في هذين الكتابين، واستفدت منهما فوائد جمة - جزى الله صاحبيهما خيراً - ثم أطلت التأمل في أطراف الموضوع، ورجعت إلى كثير من المراجع والكتب التي أُشير إليها في مواضعها إن شاء الله تعالى، وبدا لي أن هذا العلم لا يزال محتاجاً إلى مزيد من الجهد، والضبط، والتحرير، ورحم الله الإمام السيوطي حيث يقول: ".. فإن العلوم وإن كثر عددها، وانتشر في الخافقين مددها، فغايتها بحر قعره لا يُدْرَك، ونهايتها طود شامخ لا يستطاع إلى ذروته أن يُسْلَك، ولهذا يُفتح لعالم بعد آخر من الأبواب، ما لم يتطرق إليه من المتقدمين الأسباب..."[1].

لذلك سألت الله تعالى عوناً وتوفيقاً، لأتابع جهود من سبقني، ولأمهد في طريق هذا العلم ما قدر لي، فكانت هذه الدراسة، التي أسميتها:

"المدخل إلى التفسير الموضوعي"

رجاء أن تكون مدخل صدق إلى رحابه، وأن أوفق فيه إلى ما حاولته من إبراز معالم هذا الفن الجديد، وضبط خطوطه الجامعة، ورد الفصول فيه إلى أصولها،

(١) انظر مقدمة كتاب: "الإتقان في علوم القرآن"، ص٣.

والفروع إلى قواعدها، والمتفرقات إلى جوامعها، وتمييز الأشباه والنظائر، وتصحيح بعض الأخطاء التي وقع فيها بعض الكاتبين سواء بالزيادة أو النقصان، أو بالخلط بين المسائل والأحوال، والله تعالى يعلم أن لا حاجة ولا رغبة لي في النقد، أو تتبع الأخطاء، وإنما القصد خدمة القرآن المجيد، وتحديد ملامح هذا العلم النافع، إيماناً بأهميته البالغة، وضرورة أن تكون له أسس ومعايير يرجع إليها من يزاوله، ليحدد به اتجاهه في الطريق الصحيح، وليزن عمله العلمي بميزان دقيق، ولذلك نرجو أن يدلنا مشايخنا وإخواننا إلى ما في دراستي هذه من أخطاء وعيوب، حتى تقوم لنا جميعاً "طريقة علمية مُحْكَمة" ينضبط بها التأليف في هذا العلم الناشئ، فلا يظل - كما هو الآن - مرسلاً متناثراً، يأخذ لون كل كاتب، وشاكلة كل باحث.

ولقد رجعت إلى كثير من الكتب التي تدرج الآن تحت عنوان: "التفسير الموضوعي" فوجدت بعضها لا يمت إليه إلا بنسب عليل، أو سبب ضئيل، وبعضها تلوح له الفكرة، ثم تفلت عند التطبيق، وربما كان العذر عند الجميع هو افتقاد المنهج والمعيار، وهذا شأن كل فن في بدايته، حتى تستحكم - تباعاً - طريقته، وتتأصل - بعد الجهد - قواعده، فيصبح طريقاً واضح المعالم، يؤمه السالكون على بينة، ويتناوله الكاتبون على بصيرة.

ولست أدعي أنني قلت هنا الكلمة الفاصلة، أو خطوت الخطوة الخاتمة، فلولا عون الله تعالى ما خططت حرفاً، ثم الشواغل لا تدع لنا فراغاً ولا وقتاً، ولذلك جئنا ببضاعة مزجاة، ولكنها جهد المقل، وصدقة الفقير، فعسى ربنا أن يبلّغها الأضعاف المضاعفة بفضله العظيم، وأن يبْلُغ بها ما يحب ويرضى من خدمة كتابه الكريم.

وإني لأدعو مشائخي وإخواني إلى متابعة الجهود في هذا الباب، حتى يبلغ الكتاب أجله، ويستوي الزرع على سوقه، فيصل هذا العلم إلى منتهاه بإذن الله تعالى، على يد من يشاء من عباده العلماء، ونرى "التفسير الموضوعي الجامع" الذي يشمل موضوعات القرآن الكريم، ويكون موحد الأسلوب والمعالجة، على أساس من

طريقة علمية جامعة، ليقوم مقام هذه الكتابات المتناثرة، التي لا تجمعها رابطة واحدة، ولا خطة مقاربة، بل تختلف فيها المناهج والنماذج، وتتعدد المذاهب والمشارب.

وهذا "التفسير الموضوعي" الجامع هو -الآن- من أعظم وأجل ما تحتاجه المكتبة الدينية، وتتطلبه مصلحة الدعوة الإسلامية، من الناحيتين: العلمية والعملية.

وفي تقديري أن هذا التفسير سيكون جواب القرآن على تساؤلات الإنسان وحيرته في كل مكان، بل سيكون زاداً للدعاة العاملين أنفسهم، حين يريدون إقامة أمتهم على منهاج القرآن، وشريعة الله رب العالمين، ويكون نوراً بأيمانهم وهم يدعون الأمم الحائرة، ويردون الشبهات الجائرة، ويقيمون دليل الإعجاز المتجدد، على صحة النبوة الخاتمة، وضرورتها الدائمة للبشرية العانية.

والله تعالى هو المسئول والمأمول أن يوفق علماء الإسلام إلى تقريب هذا الأمل، وتحقيق هذا العمل، وأن يتجاوز عن تقصيرنا، ويجعل عملنا كله خالصاً لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القاهرة في: غرة ربيع الأول ١٤٠٦هـ — كتبه الفقير إلى عفو الله

١٤/١١/١٩٨٥م. — **عبد الستار فتح الله سعيد**

الهدف العام

المدخل إلى التفسير الموضوعي

* تتركز الأهداف العامة من دراسة الكتاب في الأهداف الآتية:

- معرفة الأسس والمعايير التي يرجع إليها في التفسير القرآني.
- معرفة الطرق العلمية لضبط التفسير القرآني.
- إبراز إجابات القرآن على تساؤلات الإنسان.
- تحصيل الزاد الذي يحتاجه الدعاة العاملين للإسلام.
- رد الشبهات الجائرة وإقامة الدليل على إعجاز القرآن المتجدد.

وهذه الأهداف العامة يحققها الدارس بفهم الموضوعات الآتية:

(١) حقائق التفسير الموضوعي وأصوله:

أ- التفسير بمعناه العام.

ب- حقائق التفسير الموضوعي وأصوله.

(٢) نماذج من التفسير الموضوعي

أ- الوحدانية والتوحيد.

ب- المعية في ضوء القرآن.

ج- التبعية في ضوء القرآن.

د - العلم والعلماء.

هـ- الآخرة ومشاهدها.

رسم توضيحي لمحتويات الكتاب

الوحدة الأولى

حقائق التفسير الموضوعي وأصوله

الوحدة الثانية

نماذج من التفسير الموضوعي

الوحدة الأولى

حقائق التفسير الموضوعي وأصوله

الأهداف الخاصة

يتعين عليك عزيزي الدارس أن تقف بعد دراسة هذه الوحدة على الآتي:

أولاً: تعريف التفسير ونشأته وأنواعه وتدوينه.

ثانياً: معنى التفسير الموضوعي.

ثالثاً: أنواع التفسير الموضوعي ومناهجه.

رابعاً: نشأة التفسير الموضوعي وتطوره.

خامساً: أسباب بروز التفسير الموضوعي.

سادساً: أهمية وضرورة التفسير الموضوعي وفوائده.

سابعاً: منهج البحث في التفسير الموضوعي.

ثامناً: قواعد ضرورية للتفسير الموضوعي.

تاسعاً: تتمات ورد الشبهات.

الوحدة الأولى

التفسير بمعناه العام:

- تعريف التفسير
- نشأته
- تدوين التفسير
- أنواع التفسير

حقائق التفسير الموضوعي وأصوله

- معنى التفسير الموضوعي
- أنواع التفسير الموضوعي
- نشأة التفسير الموضوعي وتطوره
- أسباب بروز التفسير الموضوعي
- أهمية التفسير الموضوعي وضرورته وفوائده
- منهج البحث في التفسير الموضوعي
- قواعد وتنبيهات ضرورية
- تتمات ورد الشبهات

التعريف بالمصطلحات:

التفسير لغة: بمعنى البيان والكشف.

التفسير اصطلاحاً: علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة نزوله، وسنده، وأدائه، وألفاظه ومعانيه المتعلقة بالألفاظ، والمتعلقة بالأحكام.

التفسير بالمأثور: هو ما يكون مصدر التفسير فيه النقل والرواية الصحيحة كتفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة الصحيحة أو بما روى عن الصحابة.

التفسير بالرأي: وهو الاجتهاد العلمي الصحيح المستمد من اللغة والنظر في النصوص والأدلة الشرعية على ما قرره العلماء.

التفسير التحليلي: وهو الذي يتبع فيه المفسر ترتيب المصحف.

التفسير الإجمالي: وهو الذي يبين فيه المفسر خلاصة معنى الآية أو الآيات التي يفسرها ويبرز مقاصدها ويشرح الدقيق من ألفاظها وسبب نزولها حتى يتقرر المعنى العام.

التفسير الموضوعي: هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة معنىً أو غاية عن طريق جمع آياتها المتفرقة والنظر فيها على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة لبيان معناها واستخراج عناصرها وربطها برباط جامع.

التفسير المقارن: وهو الذي يتتبع فيه المفسر آية من القرآن أو جملة من الآيات ليستطلع آراء المفسرين فيها حين يذكر أقوالهم متتابعة ثم يستخلص نتائج المقارنة والموازنة بين الآراء.

التفسير الموضعي: وهو الذي يرجع فيه المفسر إلى موضع واحد من القرآن الكريم متتبعاً ترتيب الآيات في سورها.

الوَحْدة لغة: هي الشيء الذي لا جزء له ألبتة.

التوحيد شرعاً : الإيمان الجازم بتفرد الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، ونفي الشركاء عنه سبحانه اعتقادا وعملاً، على الوجه الذي جاء به الوحي الإلهي على ألسنة الرسل عليهم السلام.

الوحدانية : هي صفة لله تعالى وهي حقيقة قائمة بذاته جل شأنه سواء اعترف الناس بذلك أم لم يعترفوا.

الدهريون . هم الذين ينسبون الأفعال إلى الدهر وطبائع الأشياء.

الرب : هو المربي الذي تعهد خلقه بالتنشئة والتربية وقضاء الحاجات أو هو السيد المطاع النافذ الحكم.

الإله : هو المعبود الذي يستحق وحده أقصى غايات التذلل والخضوع من صلاة وذكر، أو هو المستعلي على عباده الخليق بالطاعة فيما أمر ونهى.

المعية لغة : هي الاجتماع والصحبة.

التبعية لغة : اقتفاء الأثر.

العلم لغة : الفهم والمعرفة أو هو إدراك الشيء بحقيقته.

الفقه : هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم.

المعرفة : إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره وهي أخص من العلم.

العقل : هو القوة المتهيئة لقبول العلم.

الفكر : هو القوة المؤدية إلى العلم.

الجهل : وهو خلو النفس من العلم.

السفه : خفة في البدن أو العقل.

الفصل الأول

التفسير بمعناه العام

تحدث العلماء في إسهاب عن التفسير والمفسرين، ووضعوا الضوابط والتعريفات، وأحكموا شروط المفسر وآدابه، والقواعد التي ينبغي اتباعها، وبينوا طبقات المفسرين، وأقسام التفسير، وتاريخه.. وغير ذلك كثير.

وستحدث في هذا الفصل التمهيدي عن بعض المعاني بإيجاز إن شاء الله تعالى، ثم نخلص إلى مقصدنا الأصلي من هذه الدراسة وهو: "التفسير الموضوعي" الذي يحتاج إلى مزيد من البحث والدرس، لأنه فن جديد في طور التأسيس والتكوين، ولذلك ستتوسع في دراسته إن شاء الله من جانبيه: المنهجي المتعلق بالحقائق والأصول، والموضوعي المتعلق بنماذجه التطبيقية من موضوعات القرآن الكريم ، فنقول وبالله التوفيق:

أولاً: تعريف التفسير:

التفسير لغة: مأخوذ من الفَسْر بمعنى البيان والكشف، ومنه قوله تعالى: ﴿ولاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان: ٣٣] ولم يرد هذا اللفظ في القرآن الكريم إلا في هذه الآية فقط.

واصطلاحاً: "علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز، من جهة نزوله، وسنده، وأدائه، وألفاظه، ومعانيه المتعلقة بالألفاظ، والمتعلقة بالأحكام".[1]

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (١/ ٤٧١) المبحث الثاني عشر.

ثانياً: نشأة التفسير:

نزل القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين، والعرب يومئذ في أزهى عصور البلاغة والبيان، فكانوا يفهمونه ويعقلونه، ويفسر لهم النبي صلى الله عليه وسلم ما جدّ عليهم من مدلولاته ومصطلحاته، خاصة في شرائعه وأحكامه، ثم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التبس عليهم شيء من حقائقه، فيفصل لهم المجمل، ويبين لهم ما خفي عليهم. فاجتمع لأصحابه صلى الله عليه وسلم في تفسير القرآن العلم الغزير:

من التفسير النبوي المعصوم بداية أو جواباً لسؤال.

ومن أصالتهم في اللغة العربية التي نزل بها القرآن .

مع جودة أفهامهم، وحِرْصهم على العلم والعمل، ومعاصرتهم للوحي والتنزيل، ومشاهدتهم قرائن الأحوال، وملابسات الوقائع.

وقد تداولو' هذا العلم الغزير وتناقلوه، وعلّموه وبلّغوه لغيرهم، عن طريق المشافهة والرواية في مساجدهم، ومجالسهم، وخطبهم، وأجوبتهم للسائلين، وإرشادهم للجاهلين، وتصحيحهم للمخطئين.

وربما تناقلوا شيئاً منه عن طريق الكتابة في صحف متناثرة، أو رسائل متباعدة، كالتي كان يكتبها الخلفاء الراشدون لعمالهم في الأمصار، أو المُفْتُون لسائليهم في سائر ديار الإسلام ، لكن عمدتهم الأساسية كان التلقين والرواية، ومن أشهر مفسري الصحابة رضى الله عنهم: علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس.

ثالثاً: تدوين التفسير:

من المعلوم أن العرب كانوا أمة أمية ليس لديها علوم مدونة، ولا كتب مؤلفة، ولا معارف منظمة.

لذلك كان القرآن أول كتاب لديهم، وكانت كتابته أول تدريب لهم على تدوين العلوم، وحول هذا القرآن ولخدمته نشأت لديهم المعارف والفنون، في اللغة والدين، وجمع الله تعالى — حولهم - بالإسلام عباقرة الأمم، فتعاونوا على إقامة صروح باذخة للعلم لم يشهدها تاريخ الأرض.

وقد دون التفسير مع ما دون من علوم الإسلام ، ومرّ تدوينه بالمراحل التالية:

(١) مرحلة تدوين الآثار المسندة:

وفي هذه المرحلة جمعت الآثار المسندة (المرفوعة وما دونها)، ودونت آثار التفسير باعتبارها جزءاً من الحديث النبوي، ومن آثار الصحابة والتابعين، ولذلك لم يلتزموا فيها الترتيب، ولا التماثل، وإنما جمعت الروايات حسبما تيسر لصاحب التصنيف، ومن هذا النوع:

مسند شعبة بن الحجاج (المتوفى سنة ١٦٠هـ).

مسند وكيع بن الجراح (المتوفى سنة ١٩٧هـ).

مسند سفيان بن عيينة (المتوفى سنة ١٩٨هـ).

(٢) مرحلة استقلال آثار التفسير بالتدوين:

وهذه المرحلة بداية تدوين التفسير باعتباره علماً مستقلاً، له روايات خاصة به، مجموعة ومتجاورة على ترتيب المصحف، ومسندة مرفوعة للنبي صلى الله عليه

وسلم أو موقوفة على أصحابه، أو مقطوعة عند التابعين، ولا يشترط فيها الصحة، ومن هذا النوع: تفسير ابن جريج (المتوفى سنة ١٥٠هـ).

(٣) مرحلة الآثار المسندة المستقلة الممزوجة بغيرها:

وذلك مثل ذكر الإعراب، وتوجيه الأقوال، والترجيح بعد الآثار، وأشهر تفسير في هذا هو تفسير الإمام الطبري (المتوفى سنة ٣١٠هـ).

(٤) مرحلة الروايات المحذوفة الأسانيد:

وهي المرحلة التي تساهل فيها المفسرون فحذفوا أسانيد الروايات، ونسبوا الأقوال إلى السابقين مباشرة، فاختلط الصحيح بالفاسد، وتعذر التمييز بين الأقوال، وتسرب إلى التفسير الدخيل، والموضوع المكذوب، وأباطيل بني إسرائيل، والآراء الشاذة المنكرة.

(٥) مرحلة التفسير بالرأي:

وهذه المرحلة لم يلتفت فيها إلى الرواية جملة، لا مسندة ولا مجردة، وإنما صار المفسر يعتمد على النظر صحيحاً كان أو باطلاً، ويلون التفسير بلون تخصصه العلمي.

فاللغوي يحول التفسير إلى ميدان لغة وإعراب، ونحو وصرف، كتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (المتوفى سنة ٧٤٥هـ).

والفقيه يستطرد إلى مسائل الفروع، ومذاهب العلماء فيها، وأدلتها، وما يراه من ترجيح فيها، فيغلب هذا الاستطراد الفقهي على التفسير، ومثال هذا أحكام القرآن للجصاص (المتوفى سنة ٣٧٠هـ).

وأرباب الفلسفة والكلام يغرقون التفسير بمذاهبهم وآرائهم، حتى تضيع معالم التفسير من كثرة التقريرات الفلسفية، والاستدلالات العقلية، كتفسير الفخر الرازي (المتوفى سنة ٦٠٦هـ).

وفي هذه المرحلة أُلّفت تفاسير الطوائف والفرق: كالشيعة، والمعتزلة، والصوفية، والباطنية، ولا تزال هذا المرحلة ممتدة إلى يومنا هذا، مع تلونها بألوان العصور، والبيئات، والأشخاص، والأحوال.

رابعاً: أنواع التفسير:

(أ) من حيث مصدره:

مما سبق يتضح أن التفسير – من حيث مصدره – نوعان:

الأول: التفسير بالمأثور: وهو ما يكون مصدر التفسير فيه النقل والرواية الصحيحة، كتفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة الصحيحة، أو بما روي عن الصحابة رضوان الله عليهم بطريق صحيح.

الثاني: التفسير بالرأي: وهو الاجتهاد العلمي الصحيح المستمد من اللغة، والنظر في النصوص والأدلة الشرعية، على ما قرره العلماء.

أما ماعدا ذلك من روايات غير صحيحة، أو رأي مذموم مستمد من الهوى فليس من مصادر التفسير، وإنما هي أباطيل تُرَدُّ على أصحابها.

(ب) من حيث مناهج المفسرين:

ويتنوع التفسير باعتبار طرائق المفسرين إلى أربعة أنواع

الأول: التفسير التحليلي: وهو الذي يتبع فيه المفسر ترتيب المصحف، فيشرح جملة من الآيات، أو سورة، أو القرآن كله على هذا النمط الموضعي، ويبين ما يتعلق بكل آية من مناسبتها، وسبب نزولها، ومفرداتها، ونحو ذلك مما يتقرر به معناها.

الثاني: التفسير الإجمالي: هو الذي يبين فيه المفسر خلاصة معنى الآية أو الآيات التي يفسرها، ويبرز مقاصدها، ويشرح الدقيق من ألفاظها، وسبب نزولها

حتى يتقرر المعنى العام بلا دخول في تفاصيل كثيرة.

"وهذا النوع قد سلكه المحدثون في تقدمة التلاوة بالإذاعة والمقصود منه: إعطاء فكرة إجمالية عما يتلوه القارئ من القرآن الكريم، حتى يكون السامع كاشفاً لمرامي ما يتلى عليه، واعياً لمقاصده، ملماً بأطرافه...".[1]

الثالث: التفسير الموضوعي: وهو الذي يجمع فيه المفسر الآيات الكريمة المتعلقة بموضوع واحد، على مستوى القرآن كله، أو بمجموعة من سوره (كالحواميم مثلاً) ويؤلف منها موضوعاً واحداً، مترابط العناصر على ما نبينه تفصيلاً إن شاء الله تعالى.

الرابع: التفسير المقارن: وهو الذي يتتبع فيه المفسر آية من القرآن، أو جملة من الآيات، ليستطلع آراء المفسرين فيها، حين يذكر أقوالهم متتابعة، ثم يستخلص نتائج المقارنة سواء من معاني الآيات الكريمة، أو من كلام المفسرين. وذلك كآيات الحج في سورته، أو آية الصيام في سورة البقرة، إذا عرضت على أقوال المفسرين سلفاً وخلفاً، في كتب التفسير بالمأثور، أو الرأي المحمود.

(ج) من حيث الضابط الجامع:

يمكننا أن نرد هذه الفروع كلها إلى ضابط جامع للأنواع يرجع به التفسير إلى نوعين:

الأول: التفسير الموضعي: وهو الذي يرجع فيه المفسر إلى موضع واحد من القرآن الكريم، متبعاً ترتيب الآيات في سورها، وهذا اللون قد يكون بالمأثور، أو بالرأي المحمود، وقد يكون تحليلياً عند التفصيل، أو إجمالياً عند الاختصار، وقد يكون مقارناً إذا اتبع المفسر منهج الجمع والموازنة.

---

(١) التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ص١٣ بتصرف يسير، وانظر فيه بياناً أوفى لهذه الأقسام جميعاً.

الثاني: التفسير الموضوعي: وهو الذي يلتزم فيه المفسر "موضوعاً" لا موضعاً بعينه، فيجمع الآيات الكريمة من مواضعها، ويقيم منها بناء متكاملاً يقرر موقف القرآن من قضية ما. وقد تدخل ألوان التفسير السابقة لخدمة هذا "الموضوع" فتأتي تبعاً للقصد الأول.

فإذا احتاج "الموضوع" إلى شرح مفردات وتراكيب بعض الآيات دخل التفسير "التحليلي".

وإن احتاج إلى تقرير المعنى العام لبعض الآيات دخل التفسير "الإجمالي".

وإن جاء برواية صحيحة دخل التفسير بالمأثور، وإن نظر المفسر في الموضوع، وتدبر جوانبه، واستنبط منه استنباطاً علمياً بشروطه المقررة دخل التفسير "بالرأي المحمود".

وبذلك تجتمع ألوان التفاسير جميعاً، وتتعاون ولا تتعارض، وتأتلف لخدمة القرآن العظيم ولا تختلف.

أسئلة التقويم الذاتي

س١: أجب عن الأسئلة الآتية:

(١) عرف التفسير لغة واصطلاحاً؟

(٢) تكلم عن مراحل التفسير؟

س٢: ضع علامة (✓) أو علامة (×).

(   ) كانت نشأة التفسير في عصر النبي صلى الله عليه وسلم.

(   ) ينقسم التفسير من حيث مصدره إلى تفسير بالمأثور وتفسير بالرأي.

(   ) التفسير التحليلي أحد أقسام التفسير من حيث مناهج المفسرين.

(   ) مصطلح التفسير الموضعي مرادف للتفسير الموضوعي.

س٣: اختر الإجابة أو الإجابات الصحيحة:

(١) مر تدوين التفسير بمراحل خمسة تبدأ بمرحلة:

أ - مرحلة التفسير بالرأي.

ب- مرحلة الروايات المحذوفة الأسانيد.

ج- مرحلة تدوين الآثار المسندة.

(٢) ينقسم التفسير من حيث مناهج المفسرين إلى عدد من الأقسام منها:

أ- التفسير التحليلي.
ب- التفسير المقارن.

ج- التفسير الاجمالي.
د- التفسير بالرأي.

هـ- التفسير الموضوعي.

الفصل الثاني

حقائق التفسير الموضوعي وأصوله

* يتضمن الفصل الثاني الموضوعات الآتية:

أولاً : معنى التفسير الموضوعي.

ثانياً: أنواع التفسير الموضوعي ومنهاجه.

ثالثاً: نشأة التفسير الموضوعي وتطوره.

رابعاً: أسباب بروز وتطور هذا التفسير الجديد

خامساً: أهمية التفسير الموضوعي وضرورته وفوائده.

المبحث الأول

معنى التفسير الموضوعي

التفسير الموضوعي اصطلاح مستحدث شاع على ألسنة العلماء والدارسين، وصار عنواناً للون جديد من ألوان التفسير، وهو "مركب وصفي" يحتاج لبيان جزأيه قبل تعريفه:

أولا: تعريف الجزأين:

وهو مكون من كلمتين:

الكلمة الأولى: "التفسير":

وقد سبق تعريفه، وهو يستعمل هنا بمعنى أخص من معناه في التفسير العام، وأوضح ما يعرف به هو أنه :

"علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم، من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية".(١)

فلا يشمل التعريف علم القراءات، ولا علم الرسم القرآني، وكلاهما لا يتوقف عليه التفسير الموضوعي .

الكلمة الثانية: "الموضوعي":

والموضوع في اللغة: مأخوذ من الوضع، وهي مادة تدل على مطلق جعل الشيء في مكان، سواء كان ذلك بمعنى الحط والخفض، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان.

(١) انظر "منهج الفرقان في علوم القرآن"، ص٦، للشيخ محمد علي سلامة.

واصطلاحاً: يطلق على معان شتى:

١- فهو في اصطلاح المحدثين: "الكلام المختلق المصنوع، والمكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمداً أو سهواً، وهو باطل لا أصل له".[1]

٢- وهو عند المناطقة: "ما وضع ليحكم عليه بشيء" فالمبتدأ "موضوع" ليحكم عليه بالخبر، والخبر محمول لأنه حمل على شيء هو المبتدأ، وهكذا الفاعل "موضوع"، والفعل محمول...[2]

٣- وعند علماء التفسير : "القضية التي تعددت أساليبها وأماكنها في القرآن الكريم، ولها جهة واحدة تجمعها، عن طريق المعنى الواحد، أو الغاية الواحدة".

والمصطلحان الأول والثاني بعيدان تماماً عن المعنى الذي استخرجته من كلام علماء التفسير، وهو المراد هنا.

ثانياً: تعريف التفسير الموضوعي (المركب الوصفي):

بعد أن عرفنا جزأي التفسير الموضوعي يمكننا أن نضع له - باعتباره مركباً وصفياً- التعريف التالي:

"هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحدة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها، على هيئة مخصوصة، بشرط مخصوصة، لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع".

فقولنا: "علم" جنس في التعريف.

وقولنا: "يبحث في قضايا القرآن الكريم" قيد لإخراج التفسير الذي يبحث في

(١) انظر كتاب الوضع في الحديث (١/ ١٠٧)، وانظر أيضاً قواعد في علوم الحديث للتهانوي ص٤٢ تعليق أبي غدة.

(٢) انظر كتاب تحرير القواعد المنطقية لقطب الدين الرازي في شرح الرسالة الشمسية للقزويني ص٩٦.

الألفاظ والتراكيب ونحوهما.

وقولنا: "المتحدة" يخرج القضايا التي ليس بينها وحدة في المعنى أو في الغاية فالبحث فيها لا يكون من التفسير الموضوعي.

وقولنا: "عن طريق جمع آياتها المتفرقة" لإخراج بحث القضية في موضعها من السورة من خلال الآية التي يتناولها المفسر على ترتيب المصحف الشريف.

وبقية القيود هي لبيان صفة التفسير الموضوعي وخصائصه.

ثالثا : التفسير الموضوعي (بمعنى الفن المدون):

وهو الذي تجمع فيه قضايا القرآن الكريم وتفسر تفسيراً علمياً على أساس الموضوع، وتدون في بحث مفرد، أو كتاب جامع على نمط مبسوطات التفسير التحليلي، بحيث يرجع الباحث إلى الموضوع الذي يريده، ويعلم موقف القرآن منه في يسر وسهولة.

وهذا النوع من التفسير الموضوعي لا وجود له في المكتبة الإسلامية إلى الآن، رغم أهميته البالغة، وسنرى بعد قليل أن الله تعالى قد هيأ الأسباب لميلاد هذا التفسير العظيم عن قريب بإذنه وفضله.

وقد بينا في هذه الدراسة أن الموجود الآن إنما هو موضوعات متفرقة، وأبحاث متناثرة، معظمها لا يقوم على ضوابط علمية محددة.

رابعا : تحقيق علمي حول لفظ (الموضوعي):

هذا ولم أجد أحداً تناول هذا اللفظ بالتحقيق والبيان، مع أنه أساس هذا الفن العلمي المستحدث، ولقد كنت أجد في نفسي حرجاً بالغاً من استعمال هذا اللفظ وصفاً للتفسير ، لأسباب منها:

أ- لم أجد أحداً يستعمله لغة أو اصطلاحاً بمعنى: القضية الواحدة، أو المسائل

المشتركة في معنى واحد.

ب- أن مادة "الوضع" لغة يغلب استعمالها في معنى الذم، فيقال: رجل وضيع بمعنى دنيء، ووُضِع في تجارته أي خسر، والتواضع أصله التذلل، حتى إن المحدثين لم يجدوا وصفاً للروايات المكذوبة أبلغ من لفظ: "الموضوع" فكيف نصف به التفسير الذي هو بيان لأشرف الكلام؟

ولكني من جانب آخر كنت أرى الكلمة قد ذاعت وشاعت على ألسنة العلماء من غير نكير، ولعل لهم وجهاً علمياً تطمئن إليه النفس، فجعلت ألتمسه حتى هديت - بفضل الله - إلى بعض أسراره، ومن ذلك:

أولاً: رجعت إلى استعمالات الكلمة في القرآن الكريم، فوجدتها قد وردت أربعاً وعشرين مرة، في معان متعددة، منها في المدح قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]. ﴿والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]. ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ • وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣، ١٤].

فوصف الكعبة، والميزان، وأكواب الجنة بأنها موضوعة ينفي الحرج من استعمال الكلمة، ويخرجها من غلبة الذم عليها، إلى غلبة الخير عليها، بل والمدح لها، وبها.(١)

ثانياً: بقي وجه تصحيح استعمالها في القضية الواحدة:

وقد رجعت إلى القرآن الكريم فوجدت من معانيها: إيجاب الشيء وإثباته في المكان، مثل: ﴿ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فيكون وصف التفسير "بالموضوعي" ملحوظاً فيه هذا المعنى، لأن المفسر يثبت كل آية في موضعها من المعنى الكلي للقضية التي يبحثها.

(١) راجع معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ومفردات الراغب، والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، "مادة وضع في جميعها".

وبالتدقيق في كتب اللغة وجدت إشارة إلى تصحيح إطلاق "الموضوع" على القضية الواحدة.

يقول الجوهري رحمه الله:

"...والضعة شجر من الحَمْض... يقال ناقة واضعة للتي ترعاها، قال أبو زيد: إن رعت الحمض حول الماء ولم تبرح قيل: وضعت تضع وضيعة فهي واضعة، قال: وكذلك وضعتها أنا، وهي موضوعة، يتعدى ولا يتعدى.[1]

وقال الفيروزبادي رحمه الله :

"والإبل وضيعة رعت الإبل حول الماء ولم تبرح، ووضعتها: ألزمتها المرعى فهي موضوعة".[2]

فعلى هذا: يكون "الموضوع" هنا بمعنى الشيء الذي له صفة معينة، وألزم مكاناً معيناً، لا يبرحه إلى غيره.

وهذا المعنى ملحوظ تماماً في تقييد التفسير "بالموضوعي" لأنه يلزم المفسر الارتباط بمعنى معين، وصفة معينة، لا يتعداهما إلى غيرهما حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي التزم به.

وهذا بخلاف "التفسير التحليلي" المعروف، والذي يرتبط بترتيب المصحف في تفسير الآيات، مع تعدد المعاني والأغراض فيها حسبما اقتضته حكمة الله تعالى في ترتيب كتابه الجليل.

(١) الصحاح "تاج اللغة وصحاح العربية" (٣/ ١٣٠٠) "باب العين، فصل الواو".

(٢) القاموس المحيط (٣/ ٩٤) باب العين، فصل الواو.

أسئلة التقويم الذاتي

أجب عن الأسئلة الآتية:

(١) عرف التفسير الموصوعي باعتباره مركبا وصفيا؟

(٢) اذكر قرينة من القرآن يمكن الاستناد عليها في إطلاق لفظ "الموضوعي" على هذا اللون من التفسير؟

(٣) ما مفهوم التفسير الموضوعي بمعنى الفن المدون، وضح ذلك بإيجاز؟

المبحث الثاني

أنواع التفسير الموضوعي ومناهجه

أولا: أنواع التفسير الموضوعي:

التفسير الموضوعي - باعتباره الرابطة - نوعان:

النوع الأول: التفسير الموضوعي العام:

وهو الذي بين أطراف موضوعه وحدة في الغاية فقط، وليس في أصل المعنى.

وهذا النوع لا بد أن يكون لموضوعه أصل في القرآن الكريم لا خلاف فيه، ولكن تحته قضايا كثيرة متعددة، لا يربط بينها إلا وحدة الغاية، وهي وحدة محققة، وإن كانت عامة بعيدة. مثال ذلك تفاسير آيات الأحكام جميعاً:

فموضوعها وهو (الأحكام القرآنية) موجود في القرآن بيقين، لكن تحته قضايا متعددة: كالصلاة، والحدود، والربا، والعدة، والجهاد.

وهذا النوع هو ما كان سائداً في مؤلفات العلماء قديماً مثل:

- أحكام القرآن، للجصاص (المتوفى: ٣٧٠هـ).

التبيان في أقسام القرآن. لابن القيم (المتوفى: ٧٥١هـ).

وألف فيه كثير من العلماء حديثاً مثل:

- نيل المرام من تفسير آيات الأحكام. لمحمد صديق خان (المتوفى: ١٣٠٧هـ).

- الدستور القرآني في شئون الحياة. لمحمد عزة دروزة. (ولد عام ١٣٠٥هـ).

وقد عد بعض العلماء في هذا النوع ما يسمى "بالوحدة الموضوعية".[1] في القرآن كله، أو سورة منه. بأن يجعل المفسر للسورة الكريمة هدفاً ينتزعه من ملاحظة معانيها، ثم يترل الآيات المتعددة في السورة لتحقيق هذا الهدف.

وأرى - والله أعلم - أن هذا الضرب من الدراسات لا يدخل في التفسير الموضوعي، لأن موضوعه وهو "هدف السورة" المتعددة الآيات، أمر التماسيّ، اجتهادي، تختلف فيه الأنظار، خاصة في السبع الطوال، وما يليها من المئين والمثاني، فكيف تصنف الآيات في السورة على هدف مختلف على تحديده؟ وكيف يقوم التفسير على الاحتمال؟ مع أن الأصل في التفسير الموضوعي أن يقوم على أساس النصوص ذاتها، أو معانيها المتحققة.

وإلى أن تقوم لهذا الضرب خطة علمية محكمة القواعد، واضحة المعالم فإننا نعده في باب الدراسات القرآنية العامة، وليس في التفسير الموضوعي.[2]

---

(١) التفسير الموضوعي للشيخ الكومي ص٢٢، والبداية في التفسير الموضوعي للشيخ الفرماوي ص٥١.

(٢) اتفق العلماء جميعاً على وجود (موضوعات في القرآن) يمكن فرزها، ودراستها بأعيانها كالصلاة، والقسم، والجهاد ونحو ذلك، وكل له آيات تتعلق به مباشرة، واتفق جمهورهم على وجود مناسبة بين الآيات، وعلى هدف للسورة، لكن تحديد ذلك بعينه لا يزال صعب المنال، لذلك يكثر فيه خلاف العلماء، بل بعضهم يقصر ذلك على الآيات المتقاربة المعنى، وينكر ما عداها (كالعز بن عبد السلام، والشوكاني) وقد حاول كثير من العلماء وضع قواعد تضبط هذا المعنى، ولا يزال ذلك بعيداً لم يتقرر في خطوط محددة، وكان من أبرز من حاول ذلك حديثاً الشيخ عبد الحميد الفراهي بالهند، والشيخ محمد عبد الله دراز في مصر (ت: ١٣٧٩هـ) في كتاب: النبأ العظيم، وكتابه مدخل إلى القرآن الكريم.

ولبيان مدى الصعوبة في هذا تجد الدكتور محمد القاسم في كتابه "الإعجاز البياني": يذكر طريقة الشيخ البقاعي في تقرير (وحدة سورة البقرة) ص١٢٨.

ثم يذكر طريقة الشيخ دراز في هذا، وهي مخالفة لطريقة البقاعي ص٢١٣.

ثم ينتقد طريقة الشيخ دراز (ص٢٣٠) مع أنها أصح وأوثق من طريقة البقاعي.

النوع الثاني: التفسير الموضوعي الخاص:

وهو الذي يقوم على وحدة المعنى والغاية بين أطرافه وأفراده، فتكون الرابطة بينهما خاصة وقريبة.

مثال ذلك: (اليهود في ضوء القرآن)

فهذا موضوع محدد، يدخل تحته آيات كثيرة كلها في ذات الموضوع. ويجوز أن يقيد الموضوع بقيد ما فيزداد تخصيصاً مثل: (عقيدة اليهود الضالة في ضوء القرآن) وكلما زادت القيود قَلّت الأفراد، وازداد التخصص في اطراد عكسي، وهذا النوع هو أحدث الأنواع جميعاً، وهو الاصطلاح العلمي الجديد، وهو أولى النوعين باسم "التفسير الموضوعي" عند الإطلاق، وهو الذي نكتب هذه الدراسة لتقريره وتحديده، لعظيم فائدته في عصرنا هذا.

ومن الكتب المعاصرة في هذا النوع:

- الصبر في القرآن. للدكتور يوسف القرضاوي.
- اليهود في القرآن الكريم . لمحمد عزة دروزة.

ثانيا : مناهج التفسير الموضوعي:

لم يتكلم العلماء عن مناهج المفسرين في التفسير الموضوعي بذاته، لأنه لا يزال في طور التطور والاكتمال، وما نقوله هنا بعضه مستنبط من النظر فيما تم منه، وبعضه اقتراح واجتهاد لضبط هذه المناهج، وينقسم التفسير الموضوعي من هذا الجانب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: التفسير الموضوعي الوجيز:

وهو الذي يختار فيه المفسر عدة آيات لتفسر موضوعياً في مقالة، أو محاضرة، أو خطبة، أو حديث إذاعي ونحو ذلك.

وينبغي الاجتهاد في اختيار الآيات الجامعة، وضبط عناصر الموضوع، حتى يأتي ممثلاً لموقف القرآن الكريم ما أمكن ذلك.

القسم الثاني: التفسير الموضوعي الوسيط:

وهو الذي يختار فيه المفسر موضوعاً يعرضه من خلال سورة واحدة، (مثل: العقيدة في سورة الشورى)، أو من خلال مجموعة سور: (كالحواميم السبعة)، أو من خلال القرآن الكريم كله، وحينئذ يلزم المفسر اختيار جوامع الآيات الكريمة، التي تمثل أطراف الموضوع وعناصره، ثم يعرضها عرضاً وسطاً، بعد النظر والموازنة.

ومن أمثلة هذا النوع الموضوعات الملحقة بهذه الدراسة: "الوحدانية والتوحيد- المعية - التبعية - العلم في القرآن الكريم...".

وهذا النمط هو الذي نرشحه لكتابة: "التفسير الموضوعي الجامع" والذي نرجو أن يضم تفسيراً لموضوعات القرآن الكريم، مجموعة ومرتبة على نظام موضوعي علمي، يرجع إليها العلماء والباحثون، على نمط مبسوطات التفسير التحليلي الجامعة.

القسم الثالث: التفسير الموضوعي البسيط:

وهو الذي يقوم على الاستقراء والاستيعاب والإحصاء الشامل لموضوع قرآني ما، فيجمع المفسر آياته كلها على الوجه التفصيلي، الذي سنذكره إن شاء الله في "طريقة التفسير الموضوعي".

وهذا النوع لا يتحقق عملياً إلا في حالين:

(أ) إذا كان الموضوع في القرآن محدوداً في آيات معدودة، يسهل على المفسر جمعها، واستخراج عناصرها بلا حاجة إلى اختصار، ولا اختيار، ولاموازنة، وذلك كموضوع: الجن في القرآن، أو قصة إسماعيل عليه السلام، أو الصوم في القرآن، ونحو ذلك كثير.

(ب) إذا كان الموضوع سيفرد في كتاب مستقل في التفسير، خاصة الرسائل العلمية، والتي من شأنها أن تقوم على الحصر والاستقصاء، والتي يتفرغ لها دارسها، ويتابعه مشرفه، ويلاحقه مناقشوه، فهذا أولى الأشياء بهذا القسم من التفسير الموضوعي.

ومن موضوعات القرآن المفردة ما يحتاج بيانه إلى رسائل ضخمة، مثل الإيمان في ضوء القرآن، والجهاد وعبر المعارك.

وفي تقديري أن أصعب الأقسام هو القسم (الثاني)، لأنه وسط بين طرفين، فيحتاج المفسر أن يوازن بينهما، ثم هو يحتاج إلى أناة وطول نظر في الآيات الكريمة ليختار أجمعها، وحتى لا يترك عنصراً من الموضوع.

أما النوع الثالث فصعوبته تتمثل في طول الموضوع أحياناً، لكنه لا يحتاج إلى الموازنة والاختيار، لأنه أصلاً يقوم على الإحصاء والاستقصاء.

وسيأتي بإذن الله في المبحث السادس تفصيل طريقة البحث في التفسير الموضوعي.

أسئلة التقويم الذاتي

س: أجب عما يلي:

١- ما معنى التفسير الموضوعي العام؟

٢- ما معنى التفسير الموضوعي الخاص؟

٣- ما معنى التفسير الموضوعي الوجيز؟

٤- ما معنى التفسير الموضوعي الوسيط؟

٥- ما معنى التفسير الموضوعي البسيط؟

٦- ما هي أنواع التفسير الموضوعي باعتبار الرابطة؟

٧- ما هي مناهج التفسير الموضوعي اذكرها فقط؟

المبحث الثالث

نشأة التفسير الموضوعي وتطوره

التفسير الموضوعي قديم النشأة ، وقد بدأ يسيرا ، ثم نما وتطور على مر العصور، مثل غيره من العلوم والفنون، حتى انتهى إلى اصطلاح محدد الأوصاف والمعالم ، ويمكننا إجمال ذلك في المراحل التالية :

أولاً: في العهد النبوي:

وهو عهد البداية للتفسير العام، والموضوعي على السواء، وكان ذلك عن طريق القرآن نفسه، أو السنة النبوية:

(أ) أما القرآن الكريم فإننا نجد فيه آيات تحيل إلى آيات أخرى في موضوعها، ولا تفهم إحداها إلا بالأخرى، وهذه دلالات وإشارات مبكرة، تقرر أهمية النظر الموضوعي في الآيات الكريمة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل: ١١٨].

فهذه الآية الكريمة أحالت إلى ما نزل قبلها، ولا بد من الرجوع إليه لنفهم من المحال عليه تفصيل هذا الإجمال، وهو قوله تعالى:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى خطاباً للمسلمين في أول سورة المائدة: ﴿أُحِلَّتْ

لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١].[1]

فقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ يعني من المحرمات، وهذا لا يفهم تفصيلاً إلا بالرجوع إلى ما نزل قبل هذه الآية.

﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

أو ما نزل بعد هذه الآية في المائدة نفسها:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ [المائدة: ٣].

وهناك أمثلة أخرى كثيرة في القرآن الكريم مثل:

﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٦٤].

والآية الكريمة مدنية، وهي تشير إلى ما سبق في العهد المكي من ذكر كثير من الرسل بأسمائهم، وقصصهم مع أممهم.

(ب) أما السنة النبوية فنجد فيها أمثلة كثيرة لهذا الاتجاه، ومن ذلك: ما رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله عنه، قال: "لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على الناس. فقالوا يا رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. إنما هو الشرك".

فهذه إشارة نبوية واضحة بأن اللفظ الواحد قد يكون له معان متعددة في

(١) الفعل المضارع هنا إما بمعنى الماضي، أي "إلا ما تلى عليكم" قبل ذلك. أو بمعنى الحال أو الاستقبال أي إلا ما سيتلى عليكم الآن من المحرمات عليكم. والله أعلم.

القرآن الكريم، وأن جمع الآيات يفيدنا في تحديد المعنى المراد في كل مقام كما أفادنا في أن معنى: "الظلم" هنا هو: "الشرك".

ومن أمثلة السنة أيضاً القواعد التفسيرية التي وردت في السنة مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "ويل: واد في جهنم..".[١]

وقوله: "كل حرف يذكر من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة".[٢]

فهذا إشارة إلى اتحاد معنى اللفظ في مواضعه من القرآن الكريم، تارة أخرى.

ثانيا: في عصر الصحابة والتابعين:

فقد اتسعت حياة المسلمين، وجدّت عليهم مسائل وقضايا كثيرة واحتاج الناس إلى معرفة الفقه والأحكام الشرعية، فأخذ العلماء يؤصلون المسائل، ويحققون الشرائع والأحكام، وذلك عن طريق جمع الأيات المتماثلة، ومقارنتها لاستخراج الأحكام الشرعية منها، كآيات الخمر، والربا، والعدة، ونحوها.

ومن ذلك أنه أشكل على بعض الأئمة شرط: "إن ارتبتم" في قوله تعالى:

﴿وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ﴾

[الطلاق: ٤]

حتى رجع إلى آيات العدة في سورة البقرة (٢٢٨-٢٣٤)، فعلم من تفسيرها أن بعض الأنصار قالوا: بقيت عدد لم تذكر وهي عدد الصغار والكبار فنزلت.[٣]

(١) رواه الترمذي بسند حسن من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث أبي سعيد أيضاً، وانظر هذه الأحاديث وغيرها في خاتمة الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٩١) وما بعدها.

(٣) انظر تفسير ابن كثير في سورة الطلاق.

ثالثاً: بداية التدوين وتطوره:

لذلك بدأ بعض العلماء في جمع الآيات القرآنية ذات الوجهة الواحدة، وإفراد تآليف خاصة بها، خدمة للأحكام الشرعية، وللمعاني القرآنية.

- فألف قتادة بن دعامة السدوسي (المتوفى ١١٨هـ) كتاباً في الناسخ والمنسوخ، وهذا ضرب من التفسير الموضوعي بمعناه العام.
- وألف معمر بن المثنى (المتوفى٢٠٩هـ) كتابه: "مجاز القرآن"، تحدث فيه عن الآيات التي بينها رابطة عامة، وهي "المجاز" بمعناه الواسع في اصطلاح القدماء.
- وألف أبو محمد ابن قتيبة (المتوفى٢٧٦هـ) كتابه: "تأويل مشكل القرآن" تحدث فيه عن كثير من الآيات، لا يربطها إلا أنها كما قال: "زعم الملحدون أن فيها تناقضاً، واختلافاً، ولحناً أو فساد نظم".(١)

وقد ألحق بكتابه باباً في: "الألفاظ القرآنية الواحدة التي تأتي على معان متعددة"(٢)، ويورد معها الآيات الكريمة مثل لفظ: (القضاء - الهدى - الأمة).

وهذا ضرب من التفسير الموضوعي في مراحله الأولى، وربما كان النواة التي بنى عليها بعض العلماء بعده مثل:

- أبي بكر السجستاني (المتوفى٣٣٠هـ) الذي ألف كتاب "نزهة القلوب في غريب القرآن".
- والراغب الأصفهاني (المتوفى٥٠٢هـ) هو الذي ألف كتابه العظيم "مفردات القرآن"(٣) جمع فيه المفردات على حروف الهجاء، وبين معناها في اللغة وفي

(١) مقدمة الكتاب المطبوع ص٢٧ وما بعدها.

(٢) انظر ص٤٣٩- ٥١٥ من الكتاب.

(٣) يطلق بعض العلماء على كتاب الراغب اسم: غريب القرآن، وهذا غريب منهم، لأن الكتاب في بيان المفردات مطلقاً وتحديد الفروق بين استعمالاتها، والراغب نفسه يقول في مقدمته، "وقد استخرت الله تعالى في إملاء كتاب مستوفى فيه مفردات ألفاظ القرآن على حروف التهجي".

استعمال القرآن. وهو من أعظم الكتب نفعاً، وأسبقها في تأسيس هذه الطريقة الفذة لخدمة معاني القرآن الكريم.

ثم ألف ابن القيم (المتوفى: ٧٥١هـ) كتابه الشهير: "التبيان في أقسام القرآن"، وقد جمع فيه الآيات التي أقسم الله تعالى فيها بذاته، أو بصفاته، أو بخلق من خلقه، وقد استطرد فيه استطرادات علمية نافعة، لكنها طغت على الجانب الموضوعي فيه أحياناً.

وقد ألف معاصره ابن كثير (المتوفى:٧٧٤هـ) تفسيره المشهور، وهو تفسير يسير على الترتيب المصحفي، لكنه يذكر عند تفسير الآية بعض ما يماثلها من سور أخرى، وهذا ضرب من التفسير الموضوعي الموجز، مبثوث في تضاعيف تفسيره الكبير.

ومن هذا النوع الموضوعي العام الكتب الكثيرة التي ألفت في تفسير آيات الأحكام في مختلف العصور مثل:

- أحكام القرآن للجصاص (المتوفى: ٣٧٠هـ).
- أحكام القرآن، لابن العربي (المتوفى: ٥٤٣هـ).
- نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، لمحمد صديق خان (المتوفى: ١٣٠٧هـ).
- وفي عصرنا هذا ألفت كتب كثيرة في التفسير الموضوعي بمعناه العام مثل:
- "سيرة الرسول، صور مقتبسة من القرآن الكريم" لمحمد عزة دروزة (ولد ١٣٠٥هـ).
- "التفسير البياني للقرآن الكريم"[1] للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ). (المتوفاة١٤١٩هـ).
- "تفسير الآيات الكونية" للدكتور عبد الله شحاتة.

وغير ذلك كثير يفوق الحصر، إلا أن هنا "تنبيهات مهمة":

(١) هو لون من التفسير الموضوعي في جانبه الأدبي البياني "انظر ص١٠ من مقدمة الكاتبة لكتابها وهو يدور حول سبع سور من "جزء عم" فقط".

(أ) هذه الكتب المذكورة جميعها هي من باب: "التفسير الموضوعي" بمعناه العام الذي يقوم على الرابطة البعيدة، بين قضاياه المتعددة، كتفسير آيات الأحكام، فالرابطة بينها كون كل منها حكماً شرعياً، وليس بينها وحدة موضوعية في المعنى، لأن منها آيات في الصلاة، وأخرى في الربا، وثالثة في الخمر وهكذا.

وهذا غير التفسير الموضوعي بمعناه الخاص كما بينا.

(ب) ليس من التفسير الموضوعي بنوعيه (العام أو الخاص) الكتب التي تتناول أبحاثا تتعلق بالقرآن في خصائصه، أو صفاته، ونحوهما من الأمور التي لم ترد لها آيات في القرآن الكريم، والتي يتناولها الباحث لا على نمط التفسير ، وإنما على طريقة البحث المطلق، أو المقارنة العلمية والاستنباط، مما يندرج تحت فنون أخرى غير التفسير الموضوعي مثل: "علوم القرآن" أو "دراسات قرآنية"، ونحو ذلك، ومن هذه الكتب "إعجاز القرآن"[(١)] للباقلاني، و"إعجاز القرآن" للرافعي، "وترجمة القرآن وأحكامها" للشيخ محمد مصطفى المراغي، وكتاب: "الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية" لمحمد فريد وجدي... الخ.

(جـ) ليس من التفسير الموضوعي الكتب التي عنيت ببيان المناسبات بين الآيات والسور، لأن هذه المناسبات هي أمور التماسية اجتهادية، فهي - إن صحت - صفة للنصوص ، وليست نصوصاً، ولذلك لا يصح إدراجها في كتب التفسير الموضوعي بنوعيه، ومنها كتاب: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" لبرهان الدين بقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، وهو كتاب به كثير من الاعتساف والتكلف، ويكثر من نقل النصوص الباطلة عن أهل الكتاب بلا بيان لزيفها، مع اجتهاد البقاعي رحمه الله في تقرير أصل القضية، وتوفيقه في القليل منها.

(١) فإن المؤلف يقارن أسلوب القرآن، وتراكيبه، وجمله بأمثالها من الكلام العربي ولا يفسر نصاً بعينه، فإذا جمع الباحث آيات التحدي تحت عنوان الإعجاز كان ذلك تفسيراً موضوعياً والفرق: أن الأول هو صفات النص وخصائصه، والثاني هو ذات النصوص التي هي مجال التفسير الموضوعي.

رابعاً: الاختصاص محور التفسير الموضوعي الجديد:

وفي نهاية المطاف، يتجه التفسير الموضوعي نحو الاكتمال، حيث اتجه التأليف فيه وجهة جديدة، تقوم على تحديد الموضوع، وتناوله من جانبه الخاص، وربط عناصره ومسائله برباطها الأقرب، ليتم التمايز بين الموضوعات القرآنية المتكاثرة، وليعلم ما في كل منها من وجوه الإحكام والكمال، وما فيها مجتمعة من وجوه الترابط والتمام.

وعلى هذا: يتحدد مصطلح "التفسير الموضوعي" الآن في هذا النوع الخاص، الذي يتخلص في:

جمع الآيات الكريمة ذات المعنى الواحد، والتي تندرج تحت عنوان واحد له رابطة قريبة، والنظر فيها بما يؤلف منها موضوعاً واحداً، مستخرجاً من الآيات الكريمة عل هيئة مخصوصة.

وهذا منهج جديد على الدراسات التفسيرية والقرآنية، وقد دعت إليه حاجة المجتمع، وظروف العصر، وهيأ الله تعالى الأسباب لإبرازه واتجاهه نحو الاكتمال، على أيدي المسلمين وغيرهم مصداقاً لوعده الوثيق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

أسئلة التقويم الذاتي

س١: تكلم عن نشأة التفسير الموضوعي في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم مع ضرب أمثلة على ذلك؟

س٢: الاختصاص محور التفسير الموضوعي الجديد. اشرح ذلك بإيجاز؟

س٣: ضع علامة (✓) أو علامة (×) أمام العبارات الآتية.

(   ) الكتب التي تتناول أبحاثاً تتعلق بالقرآن في خصائصه أو صفاته ليست من قبيل التفسير الموضوعي .

(   ) الكتب التي عنيت ببيان المناسبات بين الآيات والسور ليست من التفسير الموضوعي .

(   ) الكتب التي عنيت بدراسة الآيات الكونية في القرآن ليست من قبيل التفسير الموضوعي العام.

المبحث الرابع

أسباب بروز وتطور هذا الفن التفسيري الجديد

أولا: أسباب بروز التفسير الموضوعي:

كان لبروز هذا اللون الموضوعي أسباب كثيرة، هيأها الله تعالى له، وعملت على إظهاره وانتشاره، وتدرجه في أطواره العلمية نحو التأصيل والاكتمال، ومن هذه الأسباب:

(١) اتجاه البحث العلمي في هذا العصر نحو مزيد من التخصص الدقيق، والعكوف على دراسة الشعب والفروع، على وجه الاستقراء والاستيعاب، والتوسع في متابعة أجزاء القضايا وتفاريقها.. لذلك اتجهت الدراسات القرآنية هذه الوجهة حتى تخاطب عصرها بطريقته.

ومن أجلّ الكتب التي لها اتصال بالتفسير الموضوعي كتاب: "دراسات لأسلوب القرآن الكريم" للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة (المتوفى:١٤٠٥هـ) رحمه الله ، وهو مبسوطة علمية لم يسبق إليها، وتقع في أحد عشر مجلداً كبيراً، وتقوم على أساس الاستقراء التام لأساليب القرآن الكريم، وسننبه على شيء من ذلك في المباحث التالية إن شاء الله تعالى.

(٢) دخول عناصر جديدة إلى ميدان الدراسات الإسلامية والقرآنية من غير المسلمين، وعلى رأسهم طوائف المبشرين والمستشرقين، الذين اتجهوا للتوسع في الدراسات الإسلامية لخدمة أهداف كنائسهم، أو دولهم التي أغارت على العالم الإسلامي.

وقد أقام هؤلاء مراكز علمية، تنفق عليها الأموال الطائلة من الكنائس،

والدول، والجمعيات،[1] لدراسة الإسلام والمسلمين حتى يكيدوا لهم على بصر ومعرفة.

ولذلك اتجه المستشرقون وأضرابهم إلى نشر ودراسة الكتب الإسلامية، ووضع المعاجم، والفهارس التي تعينهم على هذه الدراسة، حتى يصلوا إلى أهدافهم التي رموا إليها ابتداء، من الطعن في الإسلام، والقرآن ، والسنة النبوية... الخ.

وقد نتج من ذلك أمران متناقضان:

الأول: ظهور أساليب جديدة نافعة في فهرسة العلوم الإسلامية ، وتبويبها، وضبط أطرافها تسهيلاً للرجوع إليها.[2]

ومن ذلك كتاب: "نجوم الفرقان في أطراف القرآن" الذي ألفه المستشرق الألماني: "فلوجل" ونشر لأول مرة سنة ١٨٤٢م وكتاب: "تفصيل موضوعات القرآن" للفرنسي "جول لابوم"، وهما فهرسة للألفاظ، والموضوعات القرآنية، ومع صحة أصل الفكرة التي قام عليها الكتابان، فقد اشتملا على أخطاء جمة، شأن أعمال المستشرقين غالباً.

الثاني: ظهور شبه ومطاعن شديدة في القرآن، وسائر جوانب وعلوم الإسلام، وكان ذلك يقع نتيجة الأخطاء العلمية في فهم المستشرقين للإسلام فهماً صحيحاً، أو نتيجة حقد، ودس، وكيد للإسلام تحت ستار الدراسات العلمية، والمنهجية، وهذا هو الغالب.

---

(١) أقامت الدول التي احتلت العالم الإسلامي والتي تطمع في أسلابه مراكز علمية في ديارها مثل: هولندا، انجلترا، فرنسا، ألمانيا، روسيا، أمريكا. وقامت هذه المراكز بأخطر الأدوار في غزو المسلمين فكريا، وتربية أجيال منهم على الولاء للكفار عن طريق الثقافة والعلوم.

(٢) كان علماء الإسلام أول من ابتكر هذه الطريقة العلمية، ومنها "مفردات الراغب" في التفسير، و"ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الحديث" في السنة النبوية" وغيرهما كثير جداً، ولم يصل هذا الجانب إلى غايته عند القدماء لكثرة حفظهم، واستيعابهم للمتون والفنون المختلفة.

(٣) جهود علماء المسلمين ، فقد هال أهل الغَيْرة من علماء الإسلام ما تحويه كتب ودراسات هؤلاء، من أخطاء وخطايا، ونقد لكل مقدس موثق من عقائد المسلمين ودينهم، فهبوا لمجابهة الغارة الكافرة، وتمثل ذلك في اتجاهات شتى:

(أ) ترجمة أعمال المستشرقين النافعة، وضبطها، وتنقيتها مما شابها من أخطاء العلم، وأحقاد القوم، وكان من ذلك ما نقله الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله إلى العربية من كتابي: "فلوجل"، و"جول لابوم"، تحت اسم:

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

- تفصيل آيات القرآن الكريم. ثم ألحق به كتاب "المستدرك" لإدوار مونتيه.

(ب) الرد العلمي على شبهات المبشرين، ومطاعن المستشرقين وبيان عظمة القرآن، وارتقائه فوق كل الشكوك والأوهام، وحياً، وكتابة، وحفظاً، وتواتراً، وأغراضاً، وسعة في الموضوعات، وشمولاً لحقائق الحياة، وسنن الاجتماع، ومن ذلك:

- الوحي المحمدي. للشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله.

- مدخل إلى القرآن الكريم.

- دستور الأخلاق في القرآن، وهما للدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله، وقد كتبهما باللغة الفرنسية، ثم ترجما أخيراً إلى العربية.

(جـ) العمل العلمي الجاد لسد حاجة المسلمين، والمكتبة الإسلامية، من البحوث التي يتطلبها العصر الحاضر، سواء من ناحية بعض الموضوعات التي جدت على حياة الناس، أو بتحديد وسائل البحث، والدراسات الإحصائية الجامعة.

و لم يكن هناك تخطيط محدد لهذا العمل، لأن المسلمين كانوا في غمرة الفوضى والضياع، خاصة بعد إسقاط "الخلافة"، وسقوط المسلمين جميعاً في قبضة الكفار،

ولكن الله تعالى قيض لهذا العمل أفراداً من العلماء، وبعض الجامعات والمجامع العلمية، والجمعيات الدينية فبذلوا جميعاً جهوداً مضنية في هذا السبيل، ولا يزالون يتابعون في خدمة القرآن، وتبصير المسلمين بعظمة الكنز الذي بين أيديهم، وتقريب علومه إلى مثقفيهم وجمهورهم، بالمعاجم الإسلامية ، والفهرسة العلمية، وتجديد طرائق البحث، ومناهج التأليف، مما أنتج حركة علمية دينية واسعة النطاق في أرجاء العالم الإسلامي كله، حملت لواء الدفاع عن الإسلام والقرآن أولاً، ثم تحولت إلى منازلة الكفار ببيان فضل الإسلام، وتفوقه - بما لا يقاس - عما لديهم من مذاهب الفكر والاعتقاد، ومناهج الحضارة، وقوانين الحكم والاقتصاد، وشرائع الأخلاق والاجتماع.

ثانيا: تطور التفسير الموضوعي:

ومن خلال هذا كله برزت أبحاث "التفسير الموضوعي" وتتابعت خطوطه الأولى، وأخذت تتجه نحو التأصيل والاكتمال.

ومن الكتب التي تتصل بهذا الجانب:

١- "معجم غريب القرآن" مستخرجاً من صحيح البخاري، لمحمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله.(١)

٢- "معجم ألفاظ القرآن الكريم" وقد أصدره مجمع اللغة العربية، بواسطة لجنة من العلماء.(٢)

---

(١) راجع "التصدير" الذي كتبه الدكتور محمد حسين هيكل لهذا الكتاب، ففيه دارسة عن التفسير الموضوعي، ونشأة المعاجم الإسلامية، وخاصة "معجم الألفاظ القرآنية".

(٢) وطريقته أن يتتبع اللفظ في استعماله اللغوي والقرآني، ويثبت عدد ورود مادة اللفظ في القرآن، ويذكر الآيات على سبيل الاحصاء، تارة بلفظها، وتارة بعددها.

وهذا الكتاب من أجل الكتب لخدمة التفسير الموضوعي ، وهو مزيج من "مفردات" الراغب، و"المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم"، مع مصادره الأخرى من كتب التفسير واللغة.

٣- "المرشد إلى آيات القرآن الكريم وكلماته" لمحمد فارس بركات.

٤- "فتح الرحمن لطالب آيات القرآن" لفيض الله العلمي.

٥- "مصباح الإخوان لتحريات القرآن" ليحيى حلمي بن حسين قسطموني وهو أجمع كتب الفهرسة القرآنية جميعاً لأنه:

"أحصى لنا ألفاظ القرآن ، لم يترك منها لفظاً... غير أنه لم يذكر الآيات، وإنما اكتفى بذكر أرقام للآيات... يشيع فيها الاضطراب، ولا سيما في طوال المفصل، وقد اعتذر عن هذا في مقدمة كتابه التي كتبها باللغة التركية بأنه لم يكن لديه مصحف مرقم الآيات، لأن هذا المصحف لم يظهر إلا بعد أن فرغ من كتابه".[1]

٦- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة رحمه الله، وهو يقع في أحد عشر مجلداً كبيراً، ويتبع طريقة الإحصاء التام للأدوات والحروف القرآنية، وما فيه من دقائق النحو والصرف، واختلاف الأساليب.

٧- "المعجم المفهرس لموضوعات القرآن الكريم" للدكتور عبد الصبور مرزوق. وهو كتاب يوشك على التمام إن شاء الله، وقد أطلعني المؤلف على قطعة منه مخطوطة، وهو حصر جامع لموضوعات القرآن الكريم، مرتب على حروف المعجم، وفيه إحالات لربط الموضوعات، فيبدأ بالحرف، ثم يذكر تحته عنوان الباب، ثم يبدأ الموضوع بما يسميه "آية الباب"، ثم يردف ذلك بما

(١) دراسات لأسلوب القرآن الكريم للشيخ محمد عضيمة رحمه الله (١/ ٣) المقدمة مع تصرف يسير.

يسميه: "تصنيف داخلي للموضوع" وفق عناوين فرعية، ثم يذكر تحت كل عنوان آياته. وعسى أن يصدر الكتاب قريباً إن شاء الله[1] وأن يكون مع أمثاله أساساً صالحاً يقوم عليه "التفسير الموضوعي الجامع".[2]

٨- الرسائل العلمية ، فقد تنبهت الجامعات الإسلامية في شتى أقطار الإسلام- وعلى رأسها كلية أصول الدين بالأزهر الشريف - إلى ضرورة العناية بالدراسات الإسلامية، وخاصة الموضوعات القرآنية، لحاجة المسلمين إليها في معرفة حقائق القرآن، وللرد على المطاعن والشبهات التي يثيرها الملحدون، وأعداء الإسلام.

وقد قدم مئات من طلاب الدراسات العليا رسائل علمية جادة، في عديد من موضوعات القرآن الكريم، وكثير منها يقترب من تطبيق مناهج التفسير الموضوعي، مما يجعلها تمهيداً صالحاً، وأساساً جيداً لاكتمال هذا العلم في اصطلاحه الجديد.

ومن هذه الرسائل: رسالتي التي عنوانها: المنهاج القرآني في التشريع.[3]

ولا يزال الطريق مفتوحاً لمزيد من هذه الرسائل، وندعو الله تعالى أن يوفق كلية أصول الدين، أو أي جامعة إسلامية لتبني إخراج مبسوطة: "التفسير الموضوعي الجامع" بواسطة جهود النابهين من طلابها وعلمائها، ولكن لا بد لذلك من خطة علمية محكمة، ومتابعة يقظة، حتى تبدأ الجهود وتستمر على أصول معلومة سلفاً، فلا تتفاوت الأجزاء بتفاوت الطلاب، أو تصبح حقلاً للتجارب العقيمة، كما فعل بأخوات لهذه الدراسات من قبل.

---

(١) طبع هذا الكتاب عام ١٤١٥ هـ باسم: معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم.

(٢) ما ذكرته هنا هو على سبيل المثال فقط ، والكتب في هذا الشأن أكثر من أن تحصى ، سواء فيما يتصل بموضوعات القرآن، أو غيرها من العلوم الإسلامية.

(٣) لم تطبع بعد، وأبحاثها قريبة من نمط التفسير الموضوعي، (ثم صدرت طبعتها الأولى بعد ذلك عام ١٤١٣هـ).

أسئلة التقويم الذاتي

ضع علامة (✓) أو علامة (×).

(   ) من أهم سمات تطور التفسير الموضوعي الاتجاه نحو التأصيل والاكتمال

(   ) الرسائل العلمية من الوسائل التي تمهد لاكتمال التفسير الموضوعي.

(   ) من أهم أسباب بروز التفسير الموضوعي توجه البحث العلمي لنحو التخصص الدقيق.

(   ) من نتائج التفسير الموضوعي ظهور أساليب جديدة في فهرسة العلوم الإسلامية وتبويبها وضبط أطرافها.

(   ) ظهور شبه ومطاعن شديدة في القرآن وسائر جوانب العلوم الإسلامية من نتائج دخول المستشرقين بمجال الدراسات الإسلامية.

(   ) جهود علماء المسلمين من الأسباب الهامة وراء ظهور التفسير الموضوعي وبروزه.

المبحث الخامس

أهمية التفسير الموضوعي وضرورته وفوائده

للتفسير الموضوعي - بمعناه الخاص - أهمية فائقة، وضرورة بالغة في هذا العصر الذي تقاربت فيه المسافات، وتشابكت فيه الأقطار والأمصار، واختلطت المذاهب والأفكار، وصار كل حزب بما لديهم فرحون، وكل فريق يصارع من أجل اكتساب عقول الأمم والشعوب، وقلوب الأفراد والجماعات، ولذلك تبدو الحاجة الماسة إلى هذا اللون من التفسير، لما يحققه من فوائد أساسية منها:

أولاً: إبراز إعجاز القرآن على وجه يلائم العصر:

ذلك لأن القرآن إذا كان قد أعجز الأقدمين بلفظه ونظمه وبلاغته، فإن الآخرين لا بد لإعجازهم من وجه مستمر المدى، استمرار التحدي، وهذا يتمثل في معاني القرآن وموضوعاته من طريقين:

(أ) شمول القرآن لكل هذه الموضوعات المتكاثرة مع قلة حجمه، ووجازة لفظه، وهذا يخالف معهود الكتب، وقدرات البشر، كما قال الراغب[1] رحمه الله: "وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجم، وبحيث تقصر الألباب البشرية عن إحصائه، والآلات الدنيوية عن استيفائه كما نبه عليه بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

(١) انظر مقدمة كتاب المفردات للراغب الأصفهاني ص٥.

(ب) كمال كل موضع منه على حدة، ثم حين نجمعه الآن، ونؤلف منه موضوعاً واحداً مؤتلفاً غير مختلف، وهذا من أعظم وجوه الإعجاز.

ذلك لأن القرآن قد تواتر نزوله نجوماً[1] متفرقة، على مدار ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً، ما بين مكة والمدينة، والسفر والحضر، وفي ظروف متباينة كالسلم والحرب، والنصر والهزيمة، والمنحة والمحنة ، والجماعة المطاردة والدولة المستقرة.

نزلت نجوم كل موضوع مفرقة على هذه الأماكن والظروف، ووضعت في سورها متباعدة، وبينهما في النزول فواصل زمنية مختلفة....

ومع هذا كله حين ننظر إلى كل نجم نجده في موقعه من ترتيب السورة متألقاً متناسقاً مع سابقه ولاحقه.

ثم حين نجمع "نجوم الموضوع" معاً نجدها على غاية التوافق والتناسق، وكأن أقساطه جميعاً قد نزلت في وقت واحد، تعالج قضية ما في موعدها وظروفها، ونجد قانوناً واحداً ينتظم النجوم جميعاً، وهذا ضرب بالغ الإعجاز، لا يستطيعه بشر مهما أوتي من إحكام العقل ، وجودة العلم والفكر ، بل لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى، ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣].

فالإكمال: يرجع إلى الوصف والكيف.

والإتمام: يرجع إلى العدد والكم.[2]

ولعله أيضاً سر القسم الإلهي بمواقع النجوم:

---

(١) النجم يطلق على الأجرام السماوية المضيئة، ويطلق على جزء الشيء يقال: أديت الدَّين نجوماً، أي: أقساطاً متتابعة، متساوية أو متفاوتة، والمعنى الأخير هو المقصود من نجوم القرآن.

(٢) انظر مفردات الراغب مادة "تم، وكمل" فقد أخذت منه هذا المعنى.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ • وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ • إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٧]

فالمراد بالنجوم هنا: نجم السماء، أو نجوم القرآن، وهذا أرجح المعنيين لذكر القرآن بعده، ولا يظهر مقدار العظمة في هذا القسم، وفي إعجاز هذه النجوم القرآنية ، إلا إذا نظرنا إليها الآن لنعلم إعجازها في كل موقع من مواقعها ، سواء في ترتيب السور، أو في موضوعات القرآن الكريم.

ثانيا: الوفاء بحاجات هذا العصر إلى الدين:

وهي حاجات كثيرة متشعبة، بعضها عام، وبعضها خاص، ومنها:

(أ) حاجة البشر عامة:

فالبشر الآن حائرون على مفترق الطرق، وليس لهم دين صحيح، ولا رسالة هادية ، وقد غلب عليهم الإلحاد والعناد، وزين شياطين الحضارة المعاصرة أن الدين طور متخلف مضى زمانه، أو أنه مفهوم قاصر على الفرد والضمير، وليس له شأن بالسلوك الاجتماعي والدولي.

ولم يبق كتاب إلهي على وجه الأرض يمثل الدين الصحيح إلا القرآن، لذلك يحتاج الناس إلى معرفة هديه غاية الاحتياج ، وإلى فهم ما حواه من شمول موضوعي بالغ غاية الكمال، وإلى إدراك ما يقدمه لهم من حلول لمشكلاتهم النفسية والاجتماعية، ومعضلاتهم الأخلاقية والاقتصادية، ولا يتحقق ذلك إلا بدراسات علمية جادة لموضوعات القرآن الكريم، ثم تنصب أمام الناس مثلاً أعلى، وحبلاً ممدوداً للنجاة من هذه المحنة العالمية الطاغية، فإما أن يؤوب الناس إلى دين الفطرة، أو تقوم عليهم الحجة البالغة، التي من أجلها تعهد الله تعالى بحفظ القرآن وجعله صوت النبوة الممدود إلى يوم الدين.

(ب) حاجة المسلمين خاصة:

فلقد فتن المسلمون بزخارف الحضارة المادية، وتبعوا سنن الكفار في القوانين والأخلاق والتربية، ولذلك يحتاجون قبل غيرهم إلى فهم شمول الهدي القرآني، واتساع موضوعاته لكل شئون حياقم، وبذلك يقبلون على تطبيقه بيقين واقتناع، ويقدمونه للناس عن معرفة وتجربة، ويبذلون في سبيله الغمس والنفيس عن رضا وطواعية، لأنه الحق الوحيد في الأرض، والذي يغنيهم عن نسول المبادئ من الشرق أو الغرب، بل إن الدنيا كلها محتاجة إليه، وبذلك ينقذ المسلمون أنفسهم، والعالم كله من ورائهم، بهذا الهدي القرآني الجامع.

ثالثا: تأصيل الدراسات القرآنية والعلمية:

فمن المقرر الثابت أن كتاباً في الأرض لم ينل ما ناله القرآن الكريم من عناية ودراسة، وقد بذل علماؤنا من قديم جهوداً خارقة لخدمة الكتاب الكريم، غير أن القرآن من السعة والاستبحار بحيث لا تنفد معانيه، بل يجد العلماء منها جديداً في كل عصر وربما أربى اللاحق على سابقه بما يفتح الله له من كنوز القرآن العظيم، وهذا معنى ما ندندن حوله من تجدد ألوان الإعجاز القرآني، بتجدد الزمان.[1]

وإني على مثل اليقين، أن جمع الآيات الكريمة جمعاً موضوعياً، وتفسيرها على هذا النمط، مع إحصاء الألفاظ واستقصاء المعاني، وتتبع تعدد الدلالات القرآنية في مواضعها وموضوعاتها، هذا اللون حين تنضج مباحثه، سيكون له أعظم الأثر في

(١) هذا أمر كثير التكرر في الدراسات الإسلامية والقرآنية، ويكفي مثالاً كتاب: "الإتقان" للسيوطي، فقد ألفه في أواخر القرن التاسع الهجري، وفاق به القرون السابقة، وصدق حين ختم كتابه هذا بقوله:
"وقد منّ الله تعالى بإتمام هذا الكتاب... البديع المثال... الجامع لفوائد ومحاسن لم تجتمع في كتاب قبله في العصر الخوالي".

إبراز علوم قرآنية جديدة، ودفعها نحو التأصيل، والاكتمال، بإذن الله تعالى، ومن ذلك:

علم الأصول القرآنية:

وهو ابتداء أوسع مدى وشمولاً من علم "أصول الفقه" المعروف، لأننا نعني به علم استخراج الأصول الجامعة، والقواعد الحاكمة، والقوانين العليا من نصوص القرآن، والتي تضبط كل ما يتصل بالقرآن، والإسلام، من علوم وفنون.

ومن المقرر أن القرآن الكريم هو دستور محيط، يضم في تضاعيفه هذه الضوابط الكلية الجامعة، وقد أدرك علماؤنا هذه الحقائق من قديم، وتناولوها بالبحث والاستنباط، وسجلوها نثراً في مواضعها من مباحث العلوم الإسلامية واللغوية، غير أن طرائق علمائنا- نضر الله تاريخهم - لم تكن تقوم دائماً على الإحصاء والاستقراء الكلي الشامل لكل أطراف الموضوع.

ثم لم يمتد نطاقها إلى كل المباحث العلمية المتصلة بالقرآن من حيث منهجه الديني، أو أسلوبه التربوي والاستدلالي، ولغته العربية الخاصة به ونحو ذلك من جوانبه الواسعة.

فلا تزال قواعد أئمتنا السابقين تحتاج إلى مزيد من التحرير في الكيف والكم، أو من حيث " الكمال، والتمام" الذي عناه القرآن: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣].

وهذا ليس بعيب على السابقين رضي الله عنهم، فلقد وطأوا أكناف العلم، وجمعوا شتات المسائل، وتركوا لمن بعدهم إتمام البناء، وإنما العيب على اللاحقين إن رضوا بالقعود مع الخالفين.

وعلى سبيل المثال:

(أ) علم أصول الفقه:

لقد كان علم "أصول الفقه" هو أوفر العلوم حظاً من حيث التأصيل، وأخذ القواعد الكلية من القرآن، والسنة النبوية.

ومع ذلك لم تزل فيه جوانب لم تنل حظها الحقيقي من التأصيل الكلي الشامل، عن طريق القوانين العليا التي تحكم مفردات القواعد، مثل :

١-"التشريع خصوصية إلهية".

٢-" السنة النبوية طريق ورود للشرائع، لا طريق إنشاء".[١]

ولقد بُحثت هذه القضايا في "أصول الفقه"، لكن ليس على طريق الاستقراء القرآني الجامع ، وإلا لحسمت مادة الخلاف بين الأصوليين أنفسهم حول: جواز الاجتهاد النبوي في وضع الأحكام أو عدمه، مع أن هذه قضية تتعلق بالأصل الأول، القطعي الثبوت والدلالة في القرآن، وهو: "تفرد الله تعالى بالحكم والتشريع".

(ب) علوم اللغة العربية:

وعلوم اللغة العربية: "كالنحو والصرف"، وضعت قواعدها، وأسست أصولها، ولكن ثبت فيها خلل كثير حين عرضت على الأصول القرآنية القائمة على الاستقراء الكلي، والاستيعاب الشامل، كما أثبت ذلك العلامة صاحب المبسوطة النادرة: "دراسات لأسلوب القرآن الكريم" وسنبين ذلك تفصيلاً في المبحث السابع[٢] إن شاء الله.

وإذا كان هذا في علمين وصفهما العلماء بأنهما "نضجا واحترقا" من كثرة

(١) يراجع هنا بأدلته التفصيلية في كتابي "المنهاج القرآني في التشريع" فصل أدلة الأحكام ص١٥٢ من المخطوطة المقدمة لكلية أصول الدين بالقاهرة.

وانظر ص٢٦٠ وما بعدها من الطبعة الأولى لهذا الكتاب.

(٢) انظر ص ٩٧، ٩٨ من هذا الكتاب.

البحث والتفصيل والتأصيل، فكيف بغيرهما من العلوم التي لم تصل إلى هذا المستوى؟ لا شك أنها محتاجة إلى "الأصول القرآنية" الجامعة أكثر من غيرها، ومنها على سبيل المثال في علم التفسير.

١- "كل قول على الله بغير علم فهو باطل وحرام"

فهذا أصل قرآني قطعي ثبت بالعديد من الآيات مثل:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِـهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]

٢- "كل استطراد وحشو في التفسير لا حاجة إليه فهو لغو أو عبث باطل".

وهذا أيضاً أصل قطعي ثابت بآيات كثيرة مثل:

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

٣- "الإسرائيليات ضلالات لا يفسر بها القرآن".

وهذا أيضاً أصل قرآني قطعي الثبوت والدلالة، حيث ثبت في صريح العشرات من الآيات تحريف بني إسرائيل لكلام الله تعالى، وافتراؤهم الكذب على الوحي، ونسبة الشناعات إلى الله تعالى، ورسله، وملائكته، وكتبه، والطعن الفاحش في الأنبياء المعصومين، والصديقين الصالحين.

ومن ذلك قوله تعالى في بني إسرائيل:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا • وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النساء: ١٥٦، ١٥٧].

﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

فهذا أصل قطعي مأخوذ من صريح القرآن في عشرات الآيات، والذي يثبت عليهم تحريف كلامه تعالى عمداً، وعلى علم وبصر به،[1] ومن باب أولى يثبت عليهم هذا في كل كلام بعد كلامه سبحانه وتعالى، فكيف ينقل عن أمثال هؤلاء خبر أو قصة، ناهيك عن الدين والرسالة؟

ومن أعجب العجب في تاريخ العلوم الإسلامية أن يتساهل بعض المفسرين فيدخل هذه الإسرائيليات في تفسير كلام الله رب العالمين، وهو أصدق الحديث، وخير الكلام.

والأحاديث التي أباحت التحديث عن بني إسرائيل كان لا بد أن تفهم من خلال هذا الأصل القرآني، وأن يكون هو الحَكَم في القضية، والحاكم على تحديد معنى الكلام النبوي، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخالف القرآن قط، ولا يعارضه بقول أو فعل، فما أباحه صلى الله عليه وسلم مخصوص بأمور لا تتعلق بالدين أو التفسير ، ولا نقول ذلك ظناً أو ترجيحاً، وإنما هذا هو عين ما فهمه وقاله

(١) راجع كتاب: "معركة الوجود بين القرآن والتلمود" فقرة: ٤٥– ٤٧.

"ترجمان القرآن" ابن عباس رضى الله عنهما:

"يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء؟ وكتابكم الذي أنزله الله على نبيكم أحدث الأخبار بالله مَحْضاً لم يُشَبْ، وقد حَدّثكم الله أن أهل الكتاب قد بدّلوا من كتب الله ، وغيروا، فكتبوا بأيديهم وقالوا: هو من عند الله ليشتروا بذلك ثمناً قليلاً أولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟! فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم".[1]

وكلام ابن عباس مأخوذ من قوله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧٨].

ولو تقرر هنا "الأصل القرآني" في نفس كل مفسر من قدم، لكان خليقاً بتطهير التفسير من لوثات بني إسرائيل، ولصينت علوم الإسلام عن هذه الأباطيل، كتلك التي نسبت للرسولين الكريمين: داود وسليمان عليهما السلام.

كذلك لو تقررت "**الأصول القرآنية**" العليا في جانب "**الاعتقاد**" لحمت المسلمين من غوائل "**الفلسفة اليونانية**" ومن ظلماتها الجدلية التي بني على أساسها- مع الأسى - علم الكلام.[2]

وفي اعتقادي أن جرجرة هذين البلاءين إلى ميدان: "التفسير"، "والاعتقاد" كانت أفدح جناية أوقعها المسلمون بدينهم، وأصابتهم في مقاتلهم، ولذلك **﴿فرقوا**

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الشهادات، والتوحيد، وغيرهما، "وانظر فتح الباري (٥/ ١٣) الحديث رقم: ٢٦٨٥، ٧٣٦٣، ٧٥٢٢، ٧٥٢٣".

(٢) راجع كتاب: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ص١٧ وما بعدها مبحث: "غزو تدم".

دينهم وكانوا شيعاً﴾ [الأنعام: ١٥٩]. واتبعوا السبل التي فرقت بهم عن سبيله المستقيم رغم نذير القرآن وصدق الله:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وبهذا يتقرر لدينا أن "**الأصول القرآنية**" علم بالغ الخطر، جليل الأثر، ولا يستطاع تقريره على وجهه في هذه العجالة، وإنما أردت التمثيل لا التأصيل، وقصدت إلى تنبيه الأذهان، ولفت أنظار العلماء الأجلاء إلى هذا العلم ، عسى أن يتجرد له بعضهم بالبحث والتأليف، على نمط التحقيق والتدقيق، والتحديد والتحرير، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

ولعل هذه المعاني هي التي فتحت لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في أخريات أيامه، وهو في سجنه، إذ لم يوافق على ما اقترحه عليه بعض تلاميذه من تفسير القرآن مرتباً على السور، لكثرة الكتب في هذا، واتجه إلى ما يشبه "التفسير الموضوعي" لبعض الآيات التي أُشْكِلَ تفسيرها على جماعة من العلماء، ليفسرها بالدليل، فإذا تبين به معنى الآية يتبين معنى نظائرها.

ثم يقول الشيخ رحمه الله:

"قد فتح الله عليَّ في هذه المرة من "**معاني القرآن**" ومن "**أصول العلم**" بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن".(١)

ثانياً: علم "الإعجاز التشريعي":

فمن المقرر أن القرآن ما جاء أصلاً إلا للهداية، وتقرير منهاج الله لعباده،

(١) انظر صفحة ١١ من تقديم الدكتور عدنان زرزور لرسالة ابن تيمية مقدمة "في أصول التفسير".

وشريعته للناس، وما جاءت وجوه الإعجاز اللغوي، أو العلمي، والتاريخي إلا لخدمة هذا الأصل، واستمالة وجوه الناس إليه.

ومن العجيب أن وجوه الإعجاز القرآني في لفظه، ونظمه، وأساليبه البلاغية قد استوفاها العلماء استيفاء يكفي ويشفي، نضر الله وجوههم وأعمالهم.

لكن المعجزة الأصلية وهي "شريعة القرآن"، لم يقع في علمي أن أحداً من علمائنا الأفذاذ قد كتب عنها على نمط علمي جامع، يقرر به وجوه الإعجاز في قواعدها، وخصائصها، وعناصر الموازنة الفذة في بنائها مثل المرونة والثبات، والعدل والفضل، ونحو ذلك، مع أن هذا "الإعجاز التشريعي" هو المعجزة الدائمة، التي تتحدى البشر في كل زمان ومكان، خاصة في عصور "الغرور العلمي"، والفكري، والمذهبي الذي يسود العالم الآن، أما "الإعجاز اللغوي" فهو كذلك صالح إلى يوم الدين، ولكن لا يوجد أحد على وجه الأرض يصلح أن يكون أهلاً لتحدي القرآن الآن، كما كان العرب في أوج فطرتهم البلاغية، وسليقتهم البيانية حين نزل القرآن، والإعجاز أظهر ما يكون حين يتحدى الناس في أقدارهم التي برعوا فيها، وظنوا أنهم وحدهم القادرون عليها.

وللعلماء المعاصرين أبحاث ومقالات جيدة في هذا الباب، ولكنها متناثرة، مثل ما جاء في تضاعيف تفسير المنار، وكتاب "الوحي المحمدي" للعلامة محمد رشيد رضا رحمه الله ، وكذلك ما كتبه العلامة الشيخ الزرقاني رحمه الله في كتابه القيم: "مناهل العرفان في علوم القرآن".[1]

وقد وفقني الله تعالى إلى كتاب يعالج هذا الموضوع تحت عنوان "الإعجاز التشريعي في القرآن"، ولا يزال منذ عديد من السنين مخطوطاً، ينتظر معونة من الله

---

(١) انظر على سبيل المثال: الوجه السادس من وجوه الإعجاز (٢/ ٢٤٧).

وفضلاً حتى يرى النور، نسأل الله تعالى التوفيق لإخراجه عن قريب.

وفي تقديري - والله أعلم - أن "التفسير الموضوعي" حين تنضج مباحثه، وتتميز موضوعاته على وجهها العلمي، سيكون هو الأساس الذي تقوم عليه دراسات "علم الإعجاز التشريعي" كما يتأسس البناء على قواعده.

ثالثاً: علم "الحكمة القرآنية":

مفهوم العلم:

وهو علم متمم لسابقه، ولازم له لزوم الظل لصاحبه، لأننا نعني به العلم الذي يبرز: "منهج القرآن في الدعوة والإصلاح"، وأسلوبه في الهداية وتطبيق المبادئ، وطرائقه الفذة في سياسة الأفراد والجماعات، ووسائله العجيبة في طب النفس البشرية وقاية وعلاجاً، من التدرج في التشريع، والرفق، والمطاولة مع الخصوم، والتناسب مع الأحداث والوقائع بتنجيم القرآن، وتقديم التربية والتزكية على المعرفة العقلية المجردة، وتكرار المبادئ والأحكام بشتى الأساليب حتى ترسخ في النفوس، وتقسيط التعليم وإطالة مدته حتى تتشربه القلوب والعقول، وهكذا.

ومن الواضح الفرق بين العلمين:

فالأول: يراد به إظهار الإعجاز في نفس المبادئ القرآنية.

والثاني: يراد به إظهار الإعجاز في الوسائل والأساليب التي طبق بها القرآن هذه المبادئ، ليخرج خير أمة أخرجت للناس.

وقد تقرر الأمران في كثير من الآيات القرآنية قال تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

والحكمة تطلق – في الأصل – على كل ما يمنع من السفه، والمراد بها في الآيات الكريمة "فقه القرآن" وفهمه، أو "طريقة الدعوة"، وحكمتها أن تكون على بصيرة وفهم، وقيل "السنة النبوية"، وقيل "القرآن ذاته" وقيل "إصابة القول والعمل".

والذي يتقرر عندي – والله أعلم – أن المراد بها ما ذكرناه من جانب "الأساليب"، في مقابل "المبادئ"، التي سميت أيضاً باسم محدد هو "الشريعة" بمعناها الشامل. وكل سياسة حكيمة، أو طريقة حسنة فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي لبّ "الحكمة القرآنية" التي أوحيت إليه عليه السلام، ولذلك **"كان خلقه القرآن"**[1] كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

أمثلة القرآن لهذا العلم:

ومن الأمثلة الجامعة في ذلك:

تدرج القرآن مع العرب في الشريعة، فبدأ بالأصول قبل الفروع، أو وزع الحكم على مراحل زمنية حتى تستوعبه النفوس كالخمر، والربا.

فقد بدأ القرآن بالأصلين الجامعين: **"العقيدة والأخلاق"**، فلما أسس لهما في القلوب، أنزل التفصيلات على قلوب مستعدة لها، فنجح نجاحاً غير مسبوق ولا ملحوق، من حيث فشلت مناهج الناس ومذاهب البشر، وفي ذلك يقول تعالى:

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وتجمل أم المؤمنين عائشة هذه الحكمة القرآنية البالغة فتقول:

"...إنما نَزَلَ أوَّل ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه بلفظ "فإن خلق نبي الله كان القرآن" (٢/ ١٦٩) باب صلاة الليل.

ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نَزَل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنى أبدا..".[1]

وفي القرآن العظيم آيات كثيرة تقرر هذه الحكم القرآنية، فإذا جمعت موضوعياً، ثم فُسرت على هذا النمط، ورتبت تحت عنوان جامع، لقام بين أيدينا علم جليل عظيم، لا يقل وجه الإعجاز فيه عن سابقه، ولذلك ألحقه العلامة المحقق صاحب "مناهل العرفان" بمبحث "إعجاز القرآن"،[2] وسماه بعض الباحثين بحق: "علم فقه القرآن" أو "فقه الإسلام" وبيان منهجه في هداية البشر،[3] وهو علم لم يستوف حظه من البحث والتأصيل ليكون معالم الهداية القرآنية، في طريق البشرية.

رابعاً: تصحيح مسار الدراسات القائمة:

وعلى هذا الأساس سيكون للتفسير الموضوعي مهمة بالغة في تصحيح الدراسات الدينية، والعربية القائمة فعلاً، وإصلاح مسارها، وضبطها على معايير قرآنية جامعة.

وهذا موضوع طويل، ومتشعب، ويحتاج إلى مزيد من التمحيص والتدقيق لا يتسع له المقام في بحثنا هذا، ولكننا نوجز بعضه على سبيل الإشارة، ولفت أنظار العلماء إليه:

(أ) تصحيح طريقة النظر في القرآن الكريم:

فإن للقرآن كما قلنا أصوله الجامعة، وقواعده الحاكمة، التي لا تعلم إلا بالاستقراء الكلي للألفاظ والدلالات، لتصبح حَكَما في تقرير القضايا، وليكون

(١) البخاري في الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن (٦/ ١٠٠).

(٢) (٢/ ٢٥٧) الوجه السادس من وجوه الإعجاز: سياسته في الإصلاح.

(٣) انظر الرسالة الصغيرة النافعة: "محاضرات في التفسير الموضوعي للقرآن" ص٤٨، للشيخ فوزي عثمان.

القرآن - كما أراده الله - مصدر الفهم والبيان، ومرجعا مهيمنا يُرَد إليه عند التنازع.

ولكن كثيراً من الفرق نظروا في القرآن نظرة مقلوبة، فبدلاً من البحث عن أصوله ليتحاكموا إليها، نظر كل فريق فيه بحثاً عما يؤيد مذهبه الذي اعتنقه عن هوى، أو عن طريق نظرة جزئية عجلى، تجعل من الآية الواحدة أصلاً يترل عليه ما عداه، بلا استقراء لموقف القرآن الكلي من الموضوع، أو تأخذ الآية الواحدة منقطعة عن معاني القرآن، وبيان السنة، وفهوم الصحابة وقت الترول، كما حدث من الخوارج، والشيعة، والمعتزلة، وغلاة الصوفية، إلى القاديانية، والبهائية وغير ذلك من الفرق الضالة.

ومن هنا وقع التكلف والاعتساف في فهم الآيات، ولجأت كل فرقة إلى التأويلات الفاسدة، وصرف الآيات عن ظواهرها وحقائقها، وكثر القول بالنسخ من غير دليل، وردوا الأحاديث الصحيحة التي تفسر القرآن إذا خالفت أقوالهم.

وبذلك صار القرآن فرعاً يفسر على "أصول" خارجة عنه، وسابقة في عقول كل فرقة عليه، لأنهم استخلصوها من طرائقهم الفقهية، أو الكلامية، أو اللغوية، واستمدوها من النظر في فروع المسائل، أو مذاهب الفلسفة، أو شواهد اللغة المجردة.(١)

(ب) إصلاح طريقة التفسير وإنضاجه:

وذلك بحصر الجهود في الحقائق والمقاصد القرآنية، وجمع العزائم عليها، ليأخذ التفسير وجهته الصحيحة، لأن القرآن العظيم هو كتاب الهداية، وهدايته تكمن في

(١) انظر رسالة ابن تيمية رحمه الله : "مقدمة في أصول التفسير" ص٧٩ وما بعدها ورسالة "محاضرات في التفسير الموضوعي" ص٤٦.

مقاصده ومعانيه، "و التفسير الموضوعي" هو الذي يحقق هذا، ويبرزه، وبذلك يوحد جهود المفسرين حول لباب القرآن، ويحفظ طاقاتهم الفكرية العظيمة من التبدد في القشور والأشكال، لأن "التفسير الموضوعي" نمط علمي منضبط ومحدد، يدور فيه الجهد حول جميع الآيات، واستخلاص حقائقها المباشرة، أو استنباط معانيها وخطوطها الجامعة، فلا يجد المفسر فرصة للاستغراق في لونه الفني، الذي طغى على التفسير قديماً: كالنحو والإعراب، والجدل الكلامي، والاستطراد الفقهي، وضروب المجاز والبديع، والإسرائيليات، ونحوها من الفنون التي غلبت على التفسير، حتى أبعدته عن وجهته وغايته الأصلية.

والمفسر الموضوعي قد يذكر شيئاً من هذه الفنون عَرَضًا لا غرضًا، ولبيان معنى جزئي في موضعه، بحيث لا يقطع عليه موضوعه الأصلي، ومِنْ ثَمّ يتخلص التفسير من الحشو الزائد، والاستطراد لأدنى ملابسة، ويجد المفسر نفسه دائماً في دائرة الموضوع الواحد، المحدد المعالم، والمتقيد بالآيات الكريمة ذاتها، وفي إطار معانيها ومقاصدها، وحقائقها العليا، وفق المنهج العلمي الصحيح.

وبذلك يصحح التفسير الموضوعي ذلك الخلل التاريخي الخطير، الذي وقع في أعظم العلوم الإسلامية وهو التفسير ثم تسرب منه إلى سائر الدراسات الدينية والعربية.

وبذلك أيضاً نرجو أن يصل علم التفسير جملة إلى مرحلة "النضج" التي تمناها العلماء من قديم، وعمل لها المحققون منهم ولا يزالون، ولكل أجل كتاب بإذن الله .

(جـ) ضبط القواعد العلمية:

فإن جمع الآيات موضوعياً، وتحديد دلالات الألفاظ القرآنية من خلال النظرة الكلية الجامعة، يؤدي إلى تصحيح كثير من القواعد، والقوانين، والأحكام الكلية،

التي قال بها أصحاب الفنون العلمية المختلفة، في الدراسات الدينية واللغوية جميعاً.

ذلك لأننا حين ننظر إلى كثير منها نجدها قائمة على غير استقراء كلي، أو إحصاء واستيعاب شامل، ولو رجع واضعوها إلى: "التفسير الموضوعي" لصححوها بأنفسهم، ولحسمت مادة الخلاف بين العلماء في كثير من القضايا.

وعلى سبيل المثال: في التفسير تلك القاعدة التي أوردها كثير من المفسرين، وجعل لها بعض الرواة سنداً إلى "أبيّ بن كعب" رضى الله عنه، قال: "كل شيء في القرآن من الرياح فهي رحمة، وكل شيء فيه من الريح فهو العذاب".(١)

ومن العجب أن يعود الإمام السيوطي فيضع هنا في قاعدة كلية أخرى فيقول: "...ومن ذلك الريح ذكرت مجموعة ومفردة، فحيث ذكرت في سياق الرحمة جمعت، أو في سياق العذاب أفردت".

ثم ذكر الأثر السابق، ثم أخذ يلتمس حكمة ذلك ويعلله، إلى أن يقول: "وقد خرج عن هذه القاعدة قوله تعالى في سورة يونس: ٢٢، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾، وعلى ذلك جرى قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ [الشورى: ٣٣]. وقال ابن المنير: إنه على القاعدة، لأن سكون الريح عذاب وشدة على أصحاب السفن.(٢)

ورحم الله أئمتنا الأعلام، كيف فاقم- مع حفظهم التام- خلل هذه القاعدة؟

وأظن – والله أعلم – أن سبب ذلك هو عدم جمع الآيات كلها، والنظر فيها مجتمعة قبل تقعيد "القاعدة" وحينئذ نقول بالقاعدة، أو نَعْدِل عنها، أو نعدِّلها، وهذه وظيفة التفسير الموضوعي، وإحدى فوائده الجليلة.

---

(١) الإتقان (١/ ١٤٤) (النوع التاسع والثلاثون: معرفة الوجوه والنظائر).

(٢) الإتقان (١/ ١٩٣)، (النوع الأربعون).

وبيان ذلك:

أن "الريح" وردت في القرآن الكريم مفردة: (**تسع عشرة مرة**)، منها (**سبع**) في الخير والرحمة، أي أكثر من ثلثها، فكيف تؤسس قاعدة على مثل هذا الاستثناء.

والآيات السبع التي خرجت على القاعدة هي: (**بعد الآيتين اللتين ذكرهما الإمام السيوطي**):

١- **﴿إنّي لأجدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾** [يوسف: ٩٤].

٢- **﴿ولِسُلَيمانَ الريحَ عَاصِفةً تَجْرِي بأمره إلى الأرضِ التي بَارَكْنا فيها﴾** [الأنبياء: ٨١].

٣- **﴿ولِسُلَيمان الريحَ غُدُوّها شهر﴾** [سبأ: ١٢].

٤- **﴿فَسَخَّرْنا له الريحَ تَجرِْي بأمْرِه رُخَاءً﴾** [ص: ٣٦].

٥- **﴿ولا تنازعوا فتفشَلُوا وتذهب ريحكم﴾** [الأنفال: ٤٦].

ووردت "الرياح" في القرآن (عشر مرات)، كلها في الخير، إلا واحدة فتحتمل الأمرين وهي قوله تعالى: **﴿فاصبح هَشِيماً تَذْرُوه الرياح﴾** [الكهف: ٤٥].

وفي قراءة سبعية متواترة: "الريح" بالإفراد.

وعلى ذلك تصحح القاعدة هكذا:

"إذا جمعت الرياح في القرآن فهي في الرحمة، وإذا أفردت استعملت في الرحمة والعذاب، والأخير أكثر".

وللشيخ العلامة محمد عبد الخالق عضيمة – رحمه الله– دراسات علمية نادرة لأسلوب القرآن الكريم، تتبع فيها قواعد النحاة وأهل اللغة، ونقض الكثير منها نقضاً بواسطة معيار الجمع والتفسير الموضوعي ، القائم على الاستقراء، والاستقصاء، والإحصاء، وسنعود إليها – إن شاء الله تعالى – "في المبحث السابع" لأهميتها البالغة في ذاتها، وفي موقعها هنالك.[1]

(١) انظر ص: ٩٧، ٩٨ من هذا الكتاب.

أسئلة التقويم الذاتي

س١: "إن ضبط القواعد العلمية من فوائد التفسير الموضوعي للقرآن الكريم". اشرح هذه العبارة في ضوء ما قرأت؟

س٢: إبراز إعجاز القرآن على وجه يلائم العصر هو ما يتحقق عن طريق التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. وضح ذلك؟

س٣: ما هي فائدة التفسير الموضوعي لعلم الإعجاز التشريعي؟

س٤: الوفاء بحاجات هذا العصر إلى الدين سواء حاجة البشر عامة أو حاجة المسلمين خاصة هو من فوائد وثمار التفسير الموضوعي، ناقش هذا الموضوع؟

س٥: ما هو مفهوم علم الحكمة القرآنية؟ اذكر أمثلة من القرآن على ذلك العلم؟

س٦: التفسير الموضوعي يصحح طريقة النظر في القرآن الكريم. وضح ذلك؟

س٧: من الفوائد الكبيرة للتفسير الموضوعي أنه يصلح طريقة التفسير ويعمل على انضاجه وضح ذلك بإيجاز؟

المبحث السادس

منهج البحث في التفسير الموضوعي

نعني بالمنهج الطريقة، أو الخطوات التي ينبغي اتباعها، والتقيد بها ممن يتصدى للتفسير الموضوعي بمعناه "الخاص" الذي حددناه سابقاً.

وسنذكر هذه الخطوات سرداً على سبيل الإجمال.

ثم نعود إليها بالتفصيل الوافي، نظراً لأهميتها البالغة في ضبط العمل العلمي لهذا الفن الجديد، وتحديد مساره على أصول ومعالم ثابتة وطيدة، فنقول وبالله التوفيق:

أولاً: الخطوات إجمالاً:

١- المعرفة الدقيقة لمعنى "التفسير الموضوعي الخاص" الذي يريد المفسر مزاولته.

٢- تحديد الموضوع القرآني المراد بحثه تحديداً دقيقاً من حيث المعنى.

٣- اختيار عنوان له من ألفاظ القرآن ذاته، أو عنوان منتزع من صميم معانيه القرآنية.

٤- جمع الآيات الكريمة المتعلقة بالموضوع، والعناية باختيار جوامعها عند إرادة الاختصار.

٥- تصنيفها من حيث المكي والمدني، وترتيبها من حيث زمن النزول ما أمكن.

٦- فهم الآيات الكريمة بالرجوع إلى تفسيرها، ومعرفة أحوالها من حيث أسباب النزول، وتدرج التشريع، والنسخ، والعموم والخصوص، وغير ذلك مما يتقرر به المعنى.

٧- تقسيم الموضوع إلى عناصر مترابطة، منتزعة من الآيات ذاتها، ورد الآيات إلى

عناصرها ومواضعها من البناء الكلي للموضوع، مع تفسير موجز لما يحتاج منها إلى تفسير، واستنباط حقائقها القريبة من غير تكلف، ورد الشبهات عن الموضوع ذاته.(1)

٨- التقيد التام في كل هذه الخطوات بقواعد التفسير الموضوعي، وضوابطه العلمية التي سنذكرها إن شاء الله تعالى.

ثانياً: الخطوات تفصيلاً

(١) المعرفة الدقيقة لمعنى التفسير الموضوعي:

نقصد بهذه الخطوة أن يميز المفسر هذا المصطلح عما يخالطه من أبحاث أخرى، حتى يتضح له عمله من أول الطريق، وبذلك يتجنب الأخطاء التي يقع فيها كثير من الباحثين، حين يكتبون تحت هذا العنوان ما لا يمت له بصلة، كتفسير السور المكية الذي نشر تحت عنوان: "التفسير الموضوعي للقرآن"،(2) وهو تفسير موجز، يلتزم النمط المشهور في التفسير، حيث يقسم السورة إلى جملة مقاطع، يتناول كلاً منها – على ترتيب السورة – بالبيان الأدبي الإجمالي، وبأسلوب محكم، وعرض جيد، لكنه ليس تفسيراً موضوعياً بأي معنى من معانيه.

وكذلك يتجنب المفسر الكتابة تحت هذا العنوان فيما يسمى "بالنظام في القرآن"(3) أو "الوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم".(4)

(١) راجع في هذا كتاب "التفسير الموضوعي" لشيخنا أحمد الكومي ص٢٢-٢٤ مع زيادات وتصرف، ومن العجب أن هذه الخطوات قد اهتديت إلى معظمها فيما أمليته على الطلاب قديماً كما ذكرت في المقدمة، مما يشير بأن هذه طريقة علمية صحيحة، يقتضيها النظر الموضوعي، والتأمل الفاحص، ولشيخنا فضل السبق والعلم.

(٢) للدكتور محمد البهي رحمه الله. مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٣) انظر دلائل النظام للفراهي، والرسالة المخطوطة "إمعان النظر في نظام الآيات والسور" لمحمد عناية الله الهندي. كلية أصول الدين بالرياض.

(٤) انظر النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز، والوحدة الموضوعية في القرآن الكريم للدكتور محمد حجازي.

أو التفســير الموضــوعي بمعــناه العام كالنسخ في القرآن[1] ونحوه، أو "علم المناسبات".[2]

لأن هــذه الجوانــب مع جلالتها وأهميتها هي خارجة عن "مصطلح التفسير الموضوعي" بمعناه الجديد المقيد بمعناه الخاص على ما بيناه سابقاً.

(٢) تحديد الموضوع القرآني المراد بحثه تحديداً دقيقاً:

من حيث وجوده في القرآن أولاً، ثم من حيث المعنى ثانياً، حتى لا تختلط عليه القضايا، أو تتداخل المسائل، ثم من حيث الأوصاف كالإطلاق والتقييد، ونحو ذلك.

ومن الكتب التي تعين الباحث على معرفة موضوعات القرآن، وتحديدها:

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.
- مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني.
- المدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبة.

فــإن في كتب علوم القرآن عامة تحديداً لأهداف المكي والمدني من القرآن، وبيانــاً لوجوه الإعجاز، ولكنها لم تفرد باباً لبيان: "موضوعات القرآن" وهو علم خــليق بالبحث والتأليف، وقد أشار إليه شيخنا العلامة أحمد الكومي تحت عنوان: "إجمال لما عرض إليه القرآن من موضوعات"[3] وهو مفيد جداً في بابه.

ومــن الكــتب النافعة: "تفصيل آيات القرآن الحكيم" للمستشرق الفرنسي "جول لابوم" والذي نقله الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله.

وقــد قســم الكتاب إلى ثمانية عشر باباً، تحت كل باب عدة فروع تصل في

(١) انظر ص   من هذا الكتاب.

(٢) مثل كتاب نظم الدرر في تناسب الآي والسور للبقاعي، وانظر الإعجاز البياني للدكتور محمد القاسم.

(٣) التفسير الموضوعي ص٢٥-٤٤.

مجموعها إلى ثلاثمائة وخمسين عنواناً فرعياً.

والكتاب لم يستوعب موضوعات القرآن، ولا يستوعب جميع الآيات تحت كل عنوان، ويخطئ كثيراً فيضع آيات في غير مناسباتها، وإنما ذكرنا هذا لتنبيه الباحثين، وإلا فالكتاب مجهود علمي نافع، ومفيد في بابه إذا تجنب الباحث الأخطاء الموجودة فيه.

وسبق التنبيه على كتاب:" المعجم المفهرس لموضوعات القرآن" ونرجو أن يلبي الحاجة الماسة إليه عن قريب إن شاء الله.(١)

وينبغي ألا يتكلف الباحث فيحاول أن يدخل في القرآن الكريم كل شيء مستحدث في العلوم والصناعات، بدعوى شمول القرآن لكل شيء من هذه الوسائل، فإن القرآن الكريم جاء منهاجاً دينياً شاملاً، أما تفصيلات العلوم البشرية، فليست من مقاصد القرآن، وإن قرر كثيراً من حقائقها وأصولها -كالطب، والفلك - تدليلاً على عجائب القدرة الإلهية، وحضاً على قبول دعوته الدينية.

ومن ذلك ما يتكلفه بعض الباحثين من "موضوعات" تفصيلية، لم يعن القرآن بذكر أعيانها، فينسبها للقرآن مثل بحث بعضهم عن: "الأطباق الطائرة في ضوء القرآن"، ومثل" القنبلة الذرية في القرآن".(٢)

(٣) أما "اختيار العنوان" فينبغي أن يراعى فيه ما يأتي:

(أ) أن يكون لفظاً قرآنيا صريحاً، أو مشتقاً، ولا ينبغي العدول عن اللفظ القرآني إلى معناه إلا لضرورة، ولا يجوز البتة ترك اللفظ القرآني إلى غيره من

---

(١) انظر ما كتبناه سابقاً ص ٤٩، ٥١.

(٢) القرآن يذكر "الذرة" وقبولها للانقسام ﴿وما يعزب عن ربك من مثال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ [يونس: ٦١].

ولكن لم يذكر الانشطار النووي الذي تقوم عليه القنبلة الذرية، كما حاول بعض الباحثين أن يتكلف ذلك مستدلاً بعذاب قوم شعيب. ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ [الشعراء: ١٩٨].

مصطلحات الناس، خاصة في مواطن الاشتباه فلا يحل مثلا أن يترك لفظ: "الشورى" القرآني، إلى لفظ آخر يظنه مرادفاً أو مقارباً، مثل: "الديمقراطية في القرآن".

ولا يُترك لفظ "الزكاة" إلى "الاشتراكية، أو الضريبة الاجتماعية" ولا يُترك لفظ "الجاهلية" باعتباره مصطلحاً إسلامياً عن المناهج المخالفة لدين الله تعالى فيقال مثلا: العلمانية في ضوء القرآن".[1]

ولا يعبر عن الجهاد في سبيل الله بلفظ "صراع الطبقات" ونحو ذلك من المصطلحات الحادثة، التي تعنى معاني محددة،ت قد تخالف القرآن في جملتها أو في تفاصيلها.

ولا ينخدع الباحث بما يقال: من أن "العبرة بالمعاني لا بالمباني" فإن هذه قاعدة أبت على إطلاقها، وخاصة بالنسبة للقرآن الكريم، لأن "مباني القرآن" مقصودة لذاتها،[2] والله أعلم بمواقع الألفاظ، وكل شيء عنده بمقدار وحسبان وميزان".[3]

هذا فضلا عما في هذه الكلمات وأمثالها من معان تخالف القرآن والإسلام. "فالديمقراطية" مثلا: ليست هي "الشورى" الإسلامية ، لأن الشورى عندنا تكون فيما لا نص فيه إذ الحكم والتشريع لله وحده، أما الديمقراطية فتقوم عندهم على أساس تشريع الشعب لنفسه، أو بواسطة ممثليه من البشر، فاللفظان مختلفان في الأصل الذي يقوم عليه كل منهما، وإن اشتركا في بعض المعاني الجزئية، كحرية الكلام ونحو ذلك.

(ب) اختيار أجمع لفظ قرآني – عند تعدد الألفاظ – ليكون عنواناً للبحث، ومحوراً يدار عليه الموضوع ابتداء، ثم تضم إليه في تكوين الموضوع:

(١) أفردت بحثاً لهذا في رسالتي "المنهاج القرآني في التشريع" الباب الثاني : البشر بين الإسلام والجاهلية ص١٢٦ وما بعدها من الطبعة الأولى.

(٢) انظر المرجع السابق: الباب الرابع: بحث "مصطلحات مميزة" ص: ٦٩٧ الطبعة الأولى.

(٣) هذه ألفاظ قرآنية "انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن".

- الألفاظ المقاربة لمعناه.

- ثم الألفاظ المقابلة للمعاني السابقة.

لأن كل حكم يتقرر في النقائض والأضداد سلباً وإيجاباً، يفيد في توضيح حكم ما يقابله، "وبضدها تتميز الأشياء".

ويوضع هذا كله موضع البحث والموازنة والبيان لمن أراد الاستيعاب واستقراء الموقف القرآني الشامل من موضوع ما.

ومثال ذلك: موضوع "الحرب في ضوء القرآن".

- نختار له أجمع الألفاظ ليكون عنواناً وهو: "الجهاد في سبيل الله" ولأنه أشهر ألفاظ هذا الموضوع في القرآن الكريم.

- ثم نضم إليه: "ما يقاربه" في المعنى مثل: القتال - الحرب - الضرب - الثبات - الإثخان - الغَلَب - النصر - الفتح - اللقاء - الصف - الإعداد - الغنيمة - الفيء - الأسرى - العهد...

- ثم نضم إليه ما يقابله مثل:

السلام - الفرار - التولي - الفشل - الرعب - النبذ - نقض العهود.[1]

ومثال آخر: موضوع "تفرد الله تعالى في ذاته وصفاته".

- نختار له أجمع الألفاظ وأشهرها في القرآن: "الوحدانية والتوحيد".

- ثم المقاربة: مثل ألفاظ: الرب - الإله - العبودية - الحكم - التشريع.

- ثم المقابلة: مثل: الشرك - الكفر - الطاغوت - الأوثان.

(١) كل هذه الألفاظ ومشتقاتها موجودة في القرآن الكريم يسترجعها الحافظ القارئ على البديهة، وتراجع في "معجم ألفاظ القرآن"، ونحوه من الكتب، في مادة كل كلمة منها.

ومن الكتب التي تفيد في هذا:

١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

٢- المفردات للراغب الأصفهاني.

٣- معجم ألفاظ القرآن الكريم، الذي أصدره مجمع اللغة العربية.

(ج) فإذا وجد الموضوع في القرآن الكريم ، ولم يجد للعنوان لفظاً قرآنياً مباشراً، انترع له عنواناً من أقرب لفظ، بعد النظر في جملة المعاني القرآنية، بحيث يمثل الموضوع تمثيلاً واضحاً.

ومثال ذلك موضوع: "تقدم الأمم ورقيها المادي والعمراني، ثم طغيانها وهلاكها"، فهذا الموضوع موجود في القرآن الكريم بأساليب شتى.

فيجوز أن نضعه تحت عنوان: " سنن الله في نشوء الحضارات واندثارها" فلفظ "السنن" موجود في القرآن، لذلك جعلناه أصل العنوان. أما لفظ الحضارة الذي هو ضد البداوة، والذي يعني التقدم العمراني فلم يرد في القرآن الكريم بهذا المعنى نصاً وإنما على سبيل الاحتمال في قوله تعالى ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]. فجاز استعماله في العنوان أخذاً من هذا الاحتمال، أو انتزاعاً من المعاني القرآنية الواضحة في آيات الموضوع.[١]

(٤) جمع الآيات الكريمة المتعلقة بالموضوع:

جمع الآيات الكريمة المتعلقة بالموضوع من أطرافه المذكورة سابقاً: "اللفظية، والمقاربة، والمقابلة، ومعانيها.. الخ".

ويتفاوت عدد الآيات المطلوبة باعتبار النوع الذي يريده المفسر.

- ففي التفسير الموضوعي "الوجيز": يأخذ الآيات التي فيها لفظ العنوان فقط، أو

(١) انظر مقال: "الدين ضرورة للحضارات" للمؤلف، عدد مجلة الأمة القطرية رقم ٤٤ شعبان ١٤٠٤هـ.

التي فيها جوامع هذا اللفظ، أو جوامع الآيات التي تمثل أصول المعاني.

- وفي التفسير الموضوعي "الوسيط" : يأخذ جوامع الآيات ، التي تؤلف موضوعاً متكامل العناصر، من اللفظ، وأطرافه حسب الموازنة والاختيار.

- وفي التفسير "البسيط": يأخذ الآيات كلها، ويستقصى أطراف الموضوع، وذلك في الرسائل العلمية، والتآليف المفردة الموسعة كما قدمنا.[1]

ويستعان على جمع الآيات الكريمة بما يأتي:

(أ) حفظ الصدور، وهو خصوصية أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لأن الله تعالى يسر كتابه ليجمع في الصدور ويتمكن القارئ الحافظ من استرجاع آياته، واستحضارها على لسانه في أي وقت.

(ب) الرجوع إلى المصحف الشريف لاستخراج الآيات، وتقييدها في مواضعها من البحث.

(ج) الرجوع إلى معاجم الألفاظ القرآنية، أو معاجم الموضوعات على ما بيناه[2] وهذه الطريقة أسرع وأجمع مما قبلها، وهي مما يسره الله تعالى لخدمة دينه وكتابه في هذا الزمان، وكتبها برهان ناهض على صدق الوعد الإلهي بحفظ القرآن، حيث تزداد مباحثه دقة، وإحصاء، واستيعاباً، في الوقت الذي قل فيه حفاظه، وكثر أعداؤه وحساده، بل كان المستشرقون الضالون أنفسهم هم بعض أدوات هذا الحفظ الإلهي من حيث لا يشعرون ولا يريدون.

(٥) تصنيف الآيات من حيث المكي والمدني وترتيبها حسب زمن النزول:

تصنيف الآيات الكريمة من حيث المكي والمدني،[3] وترتيبها من حيث زمن

(١) انظر المبحث الثاني من هذا الكتاب ص ٣٦ وما بعدها.

(٢) انظر المبحث الرابع من هذا الكتاب ص ٥٠ وما بعدها.

(٣) المكي نزل قبل الهجرة مطلقاً، والمدني ما نزل بعد الهجرة مطلقاً، ولو نزل في مكة عام الفتح أو في عرفات مثلاً، وهذا هو الاصطلاح الراجح.

النـــزول ما أمكن ذلك، فيعلم الباحث أن نزول هذه الآية كان في أول العهد، أو أوســطه، أو آخره، حتى تتضح له دقائق الموضوع القرآني، وليس ذلك بمتعين دائماً إلا في الأحكـــام الشـــرعية التي تتوقف صحتها على معرفة الترتيب، كالآيات التي نزلت على طريقة التدرج التشريعي مثل: آيات الخمر والربا.

فالمفســر إذا علم أن قوله تعالى: ﴿لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠] نــزل قبل آيات البقرة التي تحرم قليل الربا وكثيره: [٢٧٥-٢٨٠] فهم أن ذلك تدرج في التشريع انتهى بالتحريم الكلي، وهذا هو الحكم الصحيح.

ولو لم يعلم الترتيب فربما أخطأ في الحكم الشرعي حين يجعل آية الأضعاف مقيدة لآيات الإطلاق في البقرة، فيكون المحرم هو "الأضعاف المضاعفة" فقط، وهذا باطل.

ولا يســتطيع المفسر أن يصل إلى معرفة صحيحة في تقدير موقف القرآن من اليهــود إلا إذا نظر في الآيات المكية على حدة، وعلم شدة تنديدها باليهود، رغم بعدهـــم عن المسلمين يومئذ، مما يقطع بأن هذا موقف تأصيل وتأسيس، وأن خلافنا مع اليهود هو قضية: "اعتقاد وامتداد" لا قضية مرحلية، لإصرار اليهود في كل زمان على تحريف الوحي، وطمس الحق، والإفساد في الأرض.(١)

وللعلماء مباحث مستفيضة لتحرير خصائص المكي والمدني من القرآن الكريم، وبيان ضوابط كل منهما، وما ثبت منهما بيقين، وما هو ثابت على سبيل الترجيح، ومـــا يحتمل الأمرين جميعاً، وهذا قليل جداً في جانب الأحكام الشرعية بالذات، بل لا يكاد يوجد في هذا الجانب التشريعي.

ومن الكتب التي تعين على معرفة المكي والمدني:

(١) انظر كتابي : "معركة الوجود بين القرآن والتلمود"، ص٧٧ وما بعدها، وهو لون من التفسير الموضوعي يبنت فيه سراً من أسرار القرآن المعجز في هذا الباب.

١- البرهان في علوم القرآن للزركشي.

٢- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.

٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن - لمحمد عبد الباقي - حيث يرمز للمكي بحرف: "ك" وللمدني بحرف "م" وهو على القانون الذي قلناه من حيث ثبوت ذلك، أو رجحانه، أو احتماله، فلا بد للباحث من التحري والتثبت على كل حال.

(٦) فهم الآيات الكريمة قبل الشروع في التفسير الموضوعي:

فهم الآيات الكريمة قبل الشروع في التفسير الموضوعي، وهذا أمر ضروري حتى يستطيع المفسر ترتيبها، وتأليف عناصرها، ولذلك ينبغي الرجوع إلى كتب التفسير التي تناسب الموضوع، ليعلم معاني الآيات الكريمة في مواضعها من ترتيب المصحف الشريف، وليتبين أحوالها المتعددة من حيث الناسخ والمنسوخ، أو العموم والخصوص، ونحو ذلك.

وبذلك يكون "التفسير التحليلي"، ضرورة "للتفسير الموضوعي"، فهما يتعاونان، ولا يتعارضان، بل يتكاملان لخدمة النص القرآني، وإنضاج علم التفسير كله.

(٧) تقسيم الموضوع إلى عناصر مترابطة:

بعد فهم الآيات الكريمة، والنظر فيها مجتمعة، يقسم المفسر الموضوع إلى عناصر وأجزاء، منتزعة من صميم المعاني المقررة في الآيات الكريمة ، ويربط بينها برباط علمي، يجعل من الموضوع وحدة واحدة، مسلسلة، ومرتبة ترتيباً فنياً يتفق مع النمط القرآني، فيقدم ما يتعلق بذات الله على كل شيء، وما يتعلق بالأصول على الفروع،[1] وما يتصل بالفرائض على ما دونه، وهكذا يقدم الأهم على المهم، وجواهر الأشياء على أعراضها، وفق خطة ونظام يبرز إعجاز القرآن في موضوعاته،

---

(١) انظر موضوع: "المعية في القرآن الكريم" من هذا الكتاب.

كمـــا هو معجز في مواضع آياته، المرتبة في سورها، لأن كليهما جاء بقدر موزون، أو كما قال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

فـــإذا استوت هذه العناصر أمام نظر المفسر، ضم إلى كل منها ما يلائمه من الآيـــات بلا تكلف، ويفسر مفرداتها، ومعانيها المتصلة بالموضوع اتصالاً وثيقاً، مع الاقتصـــار على "موضع الدلالة" من الآية الكريمة إن كانت متعددة الأغراض، لأن التفسير هنا مرتبط "بالموضوع"، ولكل مقام مقال، وما العلم إلا مراعاة مقتضى الحال.

وإذا كـــان الموضـــوع ممـــا يَرِد عليه بعض الشبهات، التمس الرد من آيات الموضـــوع ذاته، فإن الله تعالى أودع كتابه معاني لا تحصى، ورد على كل معارض ومعاند إلى يوم القيامة بأصول جامعة، وألفاظ حافلة، ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥].

فـــإن لم يفـــتح للمفسر[١] من هذا، التمس الرد من القرآن في موضوع آخر مناســـب لموضوعه، كموضوع "الغيب" بالنسبة "لصفات الله تعالى"، وكموضوع "الوحي" بالنسبة لموضوع "الرسالة والرسل" وهكذا.

ولا يخرج عن إطار القرآن الكريم في هذا الباب، إلا إلى الآثار الصحيحة التي في ذات الموضوع، لأنها شارحة للقرآن،[٢] أما الردود العقلية، والأبحاث الفكرية فلها موضع آخر غير التفسير الموضوعي ، وإلا ضاع هذا النوع في غمارها، كما حدث مع التفسير التحليلي قديماً

---

(١) ممـــا نقطـــع به وجود عناصر متكاملة تامة في كل موضوع، بما فيها الرد على شبهات الموضوع ذاته، ومع ترداد النظر، وتكرار الفكر يفتح الله تعالى بما يشاء لمن يشاء من هذه المعاني الكامنة في تضاعيف النص القرآني المعجز، ولا علم لنا إلا معلمنا سبحانه وتعالى.

(٢) سيأتي في المبحث السابع أن الآثار لا تدخل في عناصر الموضوع، إنما تدخل في الشرح فقط.

(٨) التقيد بقواعد التفسير الموضوعي:

الـــتقيد بقواعد وضوابط هذا التفسير، القصد منه لفت انتباه المفسرين إليها، ووجـــوب مراعاتها، بحتى يتجنب صاحب التفسير الموضوعي الحشو، والاستطراد، والتقســيمات الفنية المحضة، التي وردت في مصطلحات العلوم المنطقية، والفلسفية وغيرها، ولا يتورط في تقسيمات أو تقعيد قواعد لا تشهد لها نصوص القرآن الكريم المباشرة، على ما نبينه - إن شاء الله - فيما يلي.

أسئلة التقويم الذاتي

س١: أذكر ثلاثة من خطوات منهج البحث في التفسير الموضوعي؟

س٢: جمع الآيات الكريمة المتعلقة بالموضوع أحد خطوات منهج البحث في التفسير وضح ذلك؟

س٣: تصنيف الآيات وترتيبها الخطوة الخامسة في منهج البحث في التفسير الموضوعي. وضح المقصود بالتصنيف والترتيب؟

س٤: ما هي الأمور الثلاثة التي يجب مراعاتها في خطوة اختيار العنوان كخطوة في منهج البحث في التفسير الموضوعي؟

س٥: منهج البحث في التفسير العلمي يقتضي أولا المعرفة الدقيقة لمعنى التفسير الموضوعي؟ وضح ذلك جيداً؟

س٦: ما الذي تجب مراعاته عند تقسيم الموضوع إلى عناصر مترابطة؟

المبحث السابع

قواعد وتنبيهات ضرورية

يشترط في المفسر عامة شروط وآداب ضرورية، بينها العلماء مفصلة مثل: الورع والتقوى، والعلم بلغة العرب، وعلوم القرآن، وعلوم الحديث دراية ورواية، حتى يميز الصحيح من السقيم، وغير ذلك[١] وقد فصل العلماء أيضاً الأدوات التي يحتاج إليها المفسر، والقواعد التي تحكم عمله كما هو مقرر في مواضعه.[٢]

كل هذا مقرر ومطلوب ممن يتصدى للتفسير بكل أنواعه.

ولكن هناك قواعد خاصة، وضوابط ضرورية لابد من مراعاتها في التفسير الموضوعي على وجه الخصوص، لأنه نوع من تفسير القرآن بالقرآن نصاً، أو استنباطاً من نص، ولأن الخلل فيه يوقع الخلل في "موضوع" كامل، وليس في "موضع" واحد كما هو الشأن في التفسير التحليلي، الذي قد يتساهل فيه قليلاً، لأنه في حقيقته يقوم على الرأي المحمود، والنظر في اللغة والأدلة، التي قد تختلف فيها الأنظار والأفكار.

*** وهذه قواعد وضوابط نراها ضرورية للتفسير الموضوعي بذاته، وهي على سبيل التمثيل لا الحصر.**

أولاً: الالتزام التام بعناصر القرآن:

فيجب على المفسر الالتزام بالعناصر التي استخرجها من النظر في الآيات الكريمة، على الوجه السابق بيانه، ولا يصح أن يضيف عنصراً للموضوع من أي

(١) راجع الاتقان للسيوطي (٢/ ١٧٥) وما بعدها، "النوع الثامن والسبعون في معرفة شروط المفسر وآدابه".

(٢) المرجع السابق في النوعين: "الأربعين، والثاني والأربعين".

مصـــدر غير القرآن الكريم، لا السنة النبوية، أو اللغة، أو ما تقتضيه القسمة العقلية ونحو ذلك.

كذلـــك لا يطوي عنصراً من القرآن بأي حجة يتصورها، ولو كانت دعوى الدفاع عن القرآن.

وقد جاء زمان كان بعض المفسرين يخجل - تحت وطأة التفوق الحضاري للكفار - من تقرير حقائق القرآن في تعدد الزوجات، والطلاق والربا ونحوها، فيؤولها بما يبطلها، أو يهدر وجودها من عناصر القرآن.

فلما ذهبت السكرة بدت حقائق القرآن شامخة معجزة، يثوب إليها المنكرون الآن بالإجلال والإكبار، بعدما تبين لهم أنها الحق المبين.

والمسألة ينبغي أن تتقرر على الوجه التالي:

أن الله يعلم ما لا نعلم، والقرآن أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض، وقد جعله على غاية العلم والحكمة في الحذف والإثبات، وسائر المعاني والصفات.

فكـــل إضافة أو نقص في عناصره هي استدراك على القرآن، وقول بالكذب عـــلى الله تعالى، ينبغي أن يحذره المفسر غاية الحذر، لأنه في أقل الأحوال قد يفتح أبواب الخطأ التي تنسب إلى القرآن ، وما هي إلا أخطاء الإنسان، التي لا يسلم منها عمل أحد من البشر - حاشا المعصومين - مهما صحت النيات، وخلص القصد.

ومن هنا يأتي تنبيهان مهمان:

التنبيه الأول: عن وظيفة السنة النبوية في التفسير الموضوعي:

فالمفسر يأتي بالحديث النبوي (شارحاً) ومبينا للنص القرآني، ولا يصح أن يأتي به ليكون (منشئا) لعنصر من عناصر الموضوع القرآني.

لذلك لا نصنف عناصر الموضوع من حديث نبوي ما دمنا في إطار الموضوع

القرآني، وفي مجال التفسير الموضوعي لهذه العناصر بذاتها، من غير زيادة عليها، حتى تتحدد "موضوعات القرآن" مستقلة، ويعلم القارئ حدود ما أنزل الله على رسوله من القرآن المتلو المتعبد بلفظه.

وهذا أيضاً ما يقتضيه التحرير العلمي الدقيق، من وجوب التقيد بقيود الموضوع المراد بحثه:

فإن قال مثلاً: "العلم في القرآن" تقيد في عناصره، وأمثاله بالقرآن فقط، وتأتي السنة النبوية تفسيراً لمعاني العناصر و الآيات الكريمة .

وإن قال: "العلم في الكتاب والسنة" تقيد في عناصره بالأصلين.

وإن قال: "العلم في الإسلام" ضم إليهما أقوال الصحابة والتابعين.

وإذا أطلق فقال: "بحث في العلم" أضاف إلى ذلك ما شاء من مصادر التاريخ،، والفلسفة، ومذاهب الفكر.... وهكذا.

وعلى هذا يحمل كلام شيخنا العلامة الكومي.

"فإن أعوزه كمال ذلك الموضوع إلى حديث جاءت به السنة، حتى يكمل له هيكله... جاء به".

لأنه يقول بعد ذلك:

"حتى يستوعب المفسر جميع نواحيه، ويلم بكل أطرافه، وإن أعوزه ذلك لجأ إلى التعرض لبعض الأحاديث المناسبة للمقام، لتزيدها إيضاحاً وبياناً".(1)

فالمراد زيادة البيان، وليس إنشاء عنصر جديد في الموضوع.

وعلى هذا أيضاً ينبغي أن يحمل كلام صديقنا المدقق الدكتور الفرماوي فقد

(1) التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ص١٣-١٧.

جعل "منهج التفسير الموضوعي" في خطوته السادسة هكذا:

"تكميل الموضوع بما ورد من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إن احتاج الأمر ذلك، حتى يكمل له هيكله، ويزداد وضوحاً وبياناً".[1]

نعم يوجد بعض توسع في عبارة: تكميل الموضوع، وكمال هيكله، مما اقتضى التنبيه على ما ينبغي أن تحمل عليه، خاصة ونحن جميعاً نلتمس السبيل إلى إحكام خطة التفسير الموضوعي ، وإرساء مناهج البحث فيه.

التنبيه الثاني: عن وظيفة كلام الصحابة والعلماء من بعدهم في التفسير الموضوعي:

فهذا يأتي من باب أولى - شارحاً للقرآن، لا منشئاً لعنصر في موضوع من موضوعاته.

لأن المقصود - كما قلنا مراراً - هو إبراز موضوع قرآني بعينه، مرتبط بعناصر القرآن وحدها، وكل كلام سواها يذكر في تفسيرها عَرَضاً لا غَرَضاً، وإلا وقع المفسر في كثير من الأخطاء من حيث لا يقصد، ولا يحب.

وقد قرأت كتاب "الصبر في القرآن" لصديقنا العلامة الدكتور يوسف القرضاوي، وقد أجاد فيه وأفاد، وهو من الكتب القلائل التي تستحق أن تدرج تحت عنوان: "من التفسير الموضوعي"، كما فعل المؤلف.

ولكن وقع في الكتاب تجاوز يسير في بعض العناصر، يقتضي التنبيه عليه، تأكيداً لما نريده جميعاً من خدمة وتأسيس هذا العلم القرآني الناشئ، فقد جاء الفصل الأول من الكتاب تحت عنوان: "حقيقة الصبر في القرآن وضرورته".[2] ثم جاء تحت

---

(١) البداية في التفسير الموضوعي ص٦٢.

(٢) الصبر في القرآن ص١٠.

هذا العنوان عنصر فرعي هي: "الصبر خصيصة إنسانية".

ولم يذكر المؤلف الفاضل نصاً قرآنياً يؤيد هذا العنصر، بل ذكر كلاماً للإمام الغـــزالي خلاصته: "أن الصبر خصيصة إنسانية لا تتصور في البهائم لنقصانها، ولا في الملائكة لكمالها"

وها هنا وقع الخطأ من جهتين:

أ- وضـــع هذه القاعدة تحت عنوان: "حقيقة الصبر في القرآن" يوهم بظاهره أنها قضية مقررة في القرآن، أو عنصر من عناصر موضوع الصبر في القرآن، وليس كذلك.

ب- ويوهم أنها قضية صحيحة في ذاتها، وليس كذلك أيضاً:

لأن الجن مكلفون مثلنا، ومطالبون بالصبر.

ولأن القـــرآن الكـــريم أثبت (للملائكة) نوعاً من الصبر يليق بهم، وهو الاستمرار الدائـــم على الطاعة قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

وعكسه صبر الشياطين على الكفر والضلال.

ولأن من أسماء الله الحسنى: "الصبور"(١) وهو صبر يليق بكماله جل شأنه.

وفي هـــذا بلاغ ومقنع لوجوب التزام عناصر القرآن، حين نتصدى لموضوع قرآني، أو تفسير موضوعي، والله أعلم بأسرار كتابه الكريم.

ثانياً: التقيد بصحيح المأثور في التفسير:

وهـــذا أمـــر ضروري للمفسر الموضوعي، حين يجمع الآيات، ويصنفها في مواضـــعها، ويســـتخرج عناصرها، حتى يفسر الموضوع كله على وجه صحيح لا

(١) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وانظر فتح القدير للشوكاني في الأعراف: ١٨٠.

اضطراب فيه، وهذا يتمثل في عدة أنواع:

١- ما صح وثبت من تفسير القرآن للقرآن يجب عليه التزامه لأنه أوثق المعاني، أما ما كان من استنباط المفسر فليس من المأثور، وهو كغيره من ضروب الاجتهاد بالرأي.

٢- مـــا ثبت من تفسير النبي صلى الله عليه وسلم ، أو من تفسير الصحابة، كلفظ "الظـــلم" في آيـــة الأنعام: ٨٢ ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ فإنه يصـــنف في موضـــوع "الشرك"، لا الجور والاعتداء ، لأن النبي صلى الله عليه وســـلم فسره بذلك صراحة،[1] وأحال إلى آية في القرآن الكريم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

فثبت بيقين أن القرآن قد فسر القرآن في هذا الموضع، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد فسر اللفظ أيضاً فاجتمع في هذا الحديث المثالان، وكان أحدهما يكفي.

والمفسر الموضوعي يصنف ما جاء في سورة الفاتحة من وصف "المغضوب عليهم" في موضوع الآيات التي تتحدث عن اليهود، ووصف "الضالين" في الآيات التي تتحدث عن النصارى، لأن النبي صلى الله عليه وسلم فسرهما[2] بذلك، ولا يلتف إلى غير هذا التفسير.

والمفسر الموضوعي يدرج قصة (موسى وفتاه) التي في سورة الكهف مع موضوع قصص موسى كليم الله لأنه ثبت عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كذّب نوفا البكالي حين زعم أنه موسى بن ميشى بن يوسف، وقال ابن عباس وسائر السلف: إنه موسى بن عمران.[3]

---

(١) الحديث رواه : أحمد والشيخان من حديث ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً.

(٢) الحديثي رواه: أحمد والترمذي، وغيرهما من عدة طرق "انظر فتح القدير للشوكاني في سورة الفاتحة".

(٣) انظر تفسير ابن كثير، وفتح القدير للشوكاني، والبخاري في تفسير سورة الكهف.

٣- ما ثبت من المفهوم والمعاني ودلالات الألفاظ، وكان شائعاً ذائعاً متعارفاً عليه عند الكافة، في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين، وهذا ما يسمى "**بالحقيقة الشرعية**" وهي تمثل الاصطلاح الإسلامي للألفاظ العربية.

فلا عبرة عند المفسر الموضوعي وهو يصنف الآيات، ويؤلف الموضوع إلا بهذه المعاني إن وجدت، ولا يلتفت إلى المعاني الطارئة، ولا المصطلحات الحادثة بعد هذا العصر في العلوم والمذاهب الفرعية، والكلامية، ونحوها مما جد بعد عصر التزول، والراشدين...، وعلى سبيل المثال:

أ- كلمة "**الشريعة**" حقيقة شرعية في الدين كله، وليست مخصوصة بجانب منه كالفروع مثلاً.

وكذلك لفظ "**الفقه**" يطلق على فهم الدين كله، وليس مجرد الفقه الاصطلاحي الخاص بالعبادات والمعاملات. وقد استعملهما القرآن بهذا الإطلاق.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٩].

﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]..

ب- "**الملائكة**"، "**والجن**"، و"**الشيطان**"، هي ذوات حقيقة، وليست كناية عن معان أو رموز لقوى الخير والشر في النفس الإنسانية، كما حاول بعض المفسرين المحدثين أن يصورهم بها،[1] مخالفاً بدهيات المعاني التي كانت شائعة عند المسلمين جميعاً، وقت نزول القرآن، شيوعاً لا ينازع قط، وقد رأوا الملائكة (حديث جبريل عليه السلام) في صورة إنسانية، ورأى بعضهم الجن (حديث أبي هريرة في البخاري)، وغير ذلك من الواضحات.

جـ- "**وآدم**" عليه السلام هو أبو البشر، وهو أول إنسان، وقد خلق في الملأ الأعلى، وأُسجدت له الملائكة، وأسكن الجنة، وأخرج منها بذنبه، وهذه كلها

(١) حكى هذا الرأي الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار عند تفسير قصة الملائكة في أول سورة البقرة، وينسب هذا إلى الشيخ محمد عبده.

حقائق شرعية لا سبيل إلى تأويلها كما حاول بعض الجهال- القائلين في القرآن بغير علم - أن يصور آدم خارجاً من رحم الأرض، وطين البحار، متدرجاً في أطوار الخلق، كما زعمت نظرية: "النشوء والارتقاء" التي ماتت عند أصحابها أنفسهم، ولا تصلح لتفسير الأساطير، فكيف يفسر بها القرآن العظيم.

ثالثاً: تجنب الحشو والاستطراد في التعليق:

ذلك لأن القصد من التفسير الموضوعي هو إبراز موقف القرآن ذاته من موضوعه، فإذا استطرد المفسر، وتوسع في التعليقات طغى ذلك على العناصر القرآنية، وخرج من نطاق التفسير الموضوعي ، إلى كونه رأيا لصاحبه، أو استطراداً لأدنى ملابسة، كما حدث في التفسير التحليلي من قديم، وبالتالي يندرج هذا تحت اسم آخر هو: "الدراسات القرآنية" أو "من معاني القرآن"، أو "حول القرآن"، ونحو ذلك من الألفاظ العامة، التي لا يضبطها صاحبها تحت موضوع قرآني محدد، أو يلتزم فيه نهجاً تفسيرياً محدداً.

وقد عاب العلماء قديماً على الإمام الرازي، وحديثاً على الشيخ طنطاوي جوهري تفسيرهما، حتى قالوا: "فيهما كل شيء إلا التفسير"، ولا شك أن العيب سيكون أشد إذا استطرد المفسر في التفسير الموضوعي الذي من شأنه: "الموضوعية والتحديد".

ومن هذا الباب كثير من الكتب التي تدرج في التفسير الموضوعي ، تحت عنوان قرآني مثل: "الإنسان في القرآن"،[1] و"اليهود في القرآن"،[2] فإنها في الحقيقة

(١) لعباس العقاد، وهو كتاب بديع يتحدث عن الإنسان في القرآن في ٥٠ صفحة، وعن الإنسان في مذاهب الفكر والعلم في ١٢٠ صفحة، وهو تحليل فكري يخرج عن نمط عنوانه إلى عنوان آخر كان خليقاً به هو: (مقارنة بين الإنسانين)، أو نحو ذلك.

(٢) هو للأستاذ عفيف طبارة، وليس فيه من التفسير الموضوعي إلا نحو ثلثه فقط (الباب الأول)، وبقيته استطراد في غير موضوعه مثل (الباب الثاني): قصة إبراهيم عليه السلام (ما كان إبراهيم يهودياً)، ومثل (الباب الثالث): قصة يوسف عليه السلام، وهو إسرائيلي وليس يهودياً بل كان حنيفاً مسلماً، (والباب الرابع): قصة موسى عليه السلام، وما كن عليه السلام يهودياً أيضاً، ثم (الباب الخامس): أضواء على القصة في القرآن، فماذا بقي للموضوع الأصلي؟ ولماذا هذا العنوان؟

دراسات مرسلة عن التقيد بمنهج التفسير الموضوعي الاصطلاحي، وإن عدها بعض الكاتبين في هذا الباب، متأثرين بظاهر العنوان.

رابعاً: التدقيق التام قبل التقعيد والتأصيل:

فالتفسير الموضوعي يقوم على جمع الآيات وربما نظر المفسر في مجموعها من غير إحصاء واستقصاء، ثم أصدر حكماً عاماً، أو أصّل أصلاً جامعاً، أو وضع قاعدة كلية، فيودي ذلك إلى غلط، أو تخليط يحرف الكلم عن مواضعه.

لذلك ينبغي النظر الشامل، والاستيعاب الكامل لكل الألفاظ القرآنية الواردة في موضوع ما، وتقليب الفكر والنظر في استعمالاتها المتعددة، وحصر الفروق بين أصل الوضع، وواقع الاستعمال، وعدم متابعة الغير في ذلك إلا بعد التحري، والتحرير، والفحص البصير.

وقد لفت العلماء الأنظار إلى ذلك من قديم، لكن مع الأسف شاعت في الكتب أخطاء جمة من جراء هذا التقعيد بلا تحر، أو لأخذ كلام غيرهم ونقله بلا نقد وميزان، مما يجب الاحتياط منه في التفسير الموضوعي بوجه أخص، وهذه بعض أمثلة:

أ- قال ابن فارس رحمه الله في كتابه الأفراد: "كل ما في القرآن من ذكر الأسف فمعناه الحزن، إلا: ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم..﴾ فمعناه أغضبونا".[1]

وهذه قاعدة جليلة، وتشير إلى قاعدة أخرى خلاصتها: "كل لفظ قيل بالاشتراك اللفظي بين الخالق والمخلوق فمعناه مختلف بما يليق بصاحبه".

وقد أحسن ابن فارس رحمه الله في تقريرها، غير أن هذا النوع من القواعد يحتاج إلى غاية التحري والنظر، ولذلك أخطأ رحمه الله حين قال بعد ذلك: "وكل ما فيه من

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٤٣)، "النوع: ٣٩ معرفة الوجوه والنظائر" والآية الكريمة من سورة الزخرف.

ذكر البر والبحر فالمراد بالبحر الماء، وبالبر التراب اليابس، إلا: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاس..﴾ [الروم: ٤١]. فالمراد به البرية والعمران".[١]

لأن تفسير "البر" بالتراب اليابس تخصيص بلا مخصص، وقد ألجأه ذلك إلى استثناء الآية المذكورة، وضيق عليه واسعاً من المعاني، ينقض القاعدة نقضاً.

والصحيح أن: "البَر ضد البحر"[٢] مطلقاً، فيشمل التراب اليابس، والطين الذي ليس بحراً، والعمران والبوادي، والجبال الصخرية التي ليست تراباً، بل يشمل "الجو" أيضا لأنه ضد البحر، وبذلك تستقيم جميع المعاني التي وردت بها الآيات الكريمة بلفظ "البَرّ".

فيدخل النقل الجوي في الامتنان الإلهي على العباد بقوله تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحَمَلْنَاهم في البَرّ والبحر﴾ [الإسراء: ٧٠]، وهذا من إعجاز اللفظ القرآني، الذي يتبدى للناس في هذا الزمان، ويخطئ من يحجّر منه واسعاً بتفسير، أو بقاعدة غير مستوعبة.

وأيضاً يدخل قوله تعالى: ﴿أحلّ لكم صيدُ البحر وطعامُه مَتاعاً لكم وللسّيارةِ وحُرِّم عليكم صيدُ البرّ ما دمتم حُرُماً﴾ [المائدة: ٩٦]. فلا شك أن "الجو" داخل في البر هنا، فلو اصطاد المحرم بسهم، أو برصاصة طائراً في الجو لوجبت عليه الكفارة.

وعلى تفسير الإمام ابن فارس لا شيء عليه، لأنه لم يصطد على التراب اليابس،[٣] أو هو حكم مسكوت عنه، وكلاهما: (دعوى الإباحة أو السكوت) خطأ

(١) المرجع السابق.

(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم- مجمع اللغة العربية.

(٣) لا يقال إنه اصطاد وهو على التراب اليابس لذلك وجبت الكفارة، لأننا نقول: لو مدّ شبكة في البحر فصاد منه وهو على التراب اليابس فلا شيء عليه، فلا بد من إدخال "الجو" في معنى البر، كما هو معناه على الحقيقة، والله أعلم.

جاء من وضع القاعدة بلا استقراء كلي لمدلول "البر" في القرآن الكريم.

ب- ومن هذا القبيل قول بعضهم: "كل شيء في القرآن (قليل) (وإلا قليل) فهو دون العشرة"(١)

وهذا كلام يدحضه ظاهر القرآن نفسه في عديد من الآيات الكريمة،(٢) ويكفي قوله تعالى: ﴿وقليل من عِبَادِيَ الشَّكُور﴾ [سبأ: ١٣].

ولو لم يدخل فيهم إلا الأنبياء لكفى، ولجاوزوا العدّ.

وقد سبق أن نبهنا على قاعدة "الريح والرياح" وبينا الخطأ فيها عند الكلام على فوائد التفسير الموضوعي بالمبحث الخامس.

والغرض أن ينتبه من يتعرض للتفسير الموضوعي غاية الانتباه، ويأخذ حذره حتى لا يقع في حكم قاصر، أو قاعدة ناقصة، أو أصل منقوض، وأولى الناس أن يتبينوا وأن يتدبروا القرآن هم علماؤه ومفسروه، والله يعصمنا جميعاً من الزلل خاصة في كتابه ودينه.

جـ- ولشيخ شيوخنا العلامة محمد عبد الخالق عضيمة رحمه الله تعالى دراسات علمية جامعة، سبق أن نبهنا عليها، وقد نحا فيها نحواً عجيباً فريداً، تجعل من أسلوب القرآن حَكَمًا في كل ما يعرض للدارس من قوانين النحو، والصرف، وتسجل الظواهر اللغوية والنحوية في ضوء الأسلوب القرآني الإحصائي، بعد أن استبد بها الشعر دهراً طويلاً، وبذلك أصبحت قواعد القرآن معياراً لهذا الباب، يصحح الأخطاء القديمة، ويُرَد إليه ما يجد ويستحدث من قضاياه.(٣)

---

(١) الإتقان (١/ ١٤٤، ١٤٥) (النوع التاسع والثلاثون).

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.

(٣) راجع مقدمة كتاب "دراسات لأسلوب القرآن الكريم" القسم الأول (١/ ٢) وما بعدها.

ويقول الشيخ -رحمه الله -:

"وللنحويين قوانين كثيرة لم يحتكموا فيها لأسلوب القرآن، فمنعوا أساليب كثيرة جاء نظيرها في القرآن ، من ذلك:

- ذكر سيبويه قُبحَ "كُلّ" المضافة إلى نكرة في أن تلي العوامل.. وجاءت "كلّ" المضافة إلى نكرة مفعولاً به في ٣٦ موضعاً في القرآن الكريم .

- منع ابن الطراوة أن يقع المصدر المؤول من (أنْ) والفعل مضافا إليه .. جاء هذا في ثلاثة وثلاثين موضعا من القرآن .

- منع النحويون وقوع الاستثناء المفرغ بعد الإيجاب، وعللوا ذلك بأن وقوعه بعد الإيجاب يتضمن المحال أو الكذب.

وفي القرآن ثماني عشرة آية وقع فيها. وفي بعضها كان الإيجاب مؤكداً مما يبعد تأويله بالنفي كقوله تعالى: ﴿وإنها لَكَبِيرَةٌ إلا عَلَى الخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٥٤].

ثم يقول الشيخ -رحمه الله-:

"ولبعض النحويين جرأة عجيبة: يجزم بأن القرآن خلا من بعض الأساليب من غير أن ينظر في القرآن، ويستقري أساليبه، (وذكر أمثلة كثيرة) كذلك رأينا بعض النحويين يخطئ في حصر ما جاء في القرآن حينما يتعرض لذلك.."[1] ثم ذكر الأمثلة.

وما فعله الشيخ رحمه الله هو المنهج، وهو الخليق أن يحتذيه كل عالم في فنه، خاصة أصحاب التفسير الموضوعي ليكون القرآن العظيم حكماً ومهيمناً كما أراده ربنا جل شأنه.

خامساً: مراعاة خصائص القرآن الكريم:

ذلك لأن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى ، نزل بلسان عربي مبين، فاجتمع له من الخصائص ما لم يجتمع لكلام آخر، في أي لسان، فهو كلام معجز، تحدى الله

(١) المرجع السابق ص٧-١٤ مع اختصار يسير.

تعالى الإنس والجن والعرب خاصة بلفظه ونظمه، ومضامينه ومعانيه.

فهو من جهة قائم على أتم الحقائق، والإحاطة بالأشياء، وتمام الصدق والعدل: ﴿وتمّت كلمةُ ربّك صدْقاً وعَدْلاً لا مُبَدّلَ لكلماته وهو السميعُ العليم﴾ [الأنعام: ١١٥]. وهو من جهة أخرى قائم على أتم وجوه الكلام العربي وأوفاها، وقد صنع في لغة العرب ضرباً من الكلام جديداً وفريداً، هو نوع قائم برأسه، متميز عما عداه، بريء كل البراءة من نقائص البشر في لغتهم، ومثالبهم في استعمالاتهم، مع كونه يركب الكلام من مفرداتهم، ويجري على سنن تراكيبهم، وهذا هو الإعجاز، ولعل هذا الوجه هو سر حروف القواتح في أوائل سورها، والتي يأتي ذكر القرآن بعدها خمساً وعشرين مرة، من تسع وعشرين سورة[1]، افتتحها الله تعالى بهذه الحروف.

وكتاب هذا شأنه ينبغي مراعاة خصائصه عند تفسيره، ويجب هذا بوجه أخص عند تفسيره موضوعياً، لأنه يتقرر بالاجتماع ما لا يتقرر في الانفراد، والنظرة الكلية تبرز دقائق الحقائق، إذا تقيد المفسر بمراعاة هذه الخصائص، ولو غفل عنها لحظة اضطرب معه أصل الموضوع، ناهيك عن استخلاص قواعده، وكلياته، ودقائقه.

وهذا الباب من أدق أبواب العلوم القرآنية، وهو خليق بأن يفرد له العلماء المعاصرون مزيداً من الأبحاث والرسائل، لأنه متشعب الحقائق والمسائل، وسنتناول بعضه بإيجاز على سبيل التنبيه:

(أ) القرآن أصل الأصول جميعاً:

فهو الحاكم على غيره، وهو المهيمن على ما سبقه، وهو الحكم عند التنازع في القواعد والفروع، وهو الأصل الذي ينبغي أن تقاس عليه أصول العلوم جميعاً: في

(١) لم يذكر القرآن بعد فواتح: (مريم – العنكبوت – الروم – ن) مباشرة، وإنما ذكر خلال السور لحكم قررها العلماء.

اللغة والأدب، والفقه والأصول، والسير والتاريخ، والقوانين والشرائع، والقصص والغيب، وسائر فنون الناس.

فإذا قال القرآن في شيء من هذا فقوله الفصل، وحكمه الأصل، وتقريره الحق والصدق، وإن خالفته أوهام الناس، أو فرحوا بما عندهم من العلم المحدود، فإن الله: ﴿بِكُلِّ شيء مُحيط﴾ [فصلت: ٥٤].

ويقرر هذا الأصل أن الله تعالى جعل القرآن شاهداً، ورقيباً على كتب الوحي السابقة، فغيرها أحرى وأولى بهيمنته:[1] ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]. وهذا أصل يتقرر عليه ما بعده:

(ب) القرآن غاية في الإحكام والإتقان:

لأنه معيار الأشياء وميزانها، فلا بد أن يكون مركباً على أتم الوجوه وأوفاها في لفظه، ونظمه، ومعناه.

فليس في القرآن قط كلمة مكرر لمحض التكرار،[2] وإنما هي لغرض حكيم في كل موضع، ولمعنى مقصود في كل موقع.

وليس فيه حرف زائد على الإطلاق، وإنما تجتلب فيه الحروف والكلمات ليؤدي كل منها قسطاً من المعاني، لا يؤدى بسواها، ولا يقوم بغيرها.

وليس فيه أقوال ظنية، أو جزافية، أو تقريبية، وإنما هي الحقائق القاطعة، والتحديد الصارم في كل خبر، أو قصة، أو حكم.

---

(١) المهيمن: الشاهد، وقيل الرقيب، والقفان على غيره، يقال فلان قفان على فلان إذا كان يتحفظ أموره، انظر نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن للسجستاني، في الآية الكريمة.

(٢) راجع في هذا كتاب "البرهان في متشابه القرآن" للكرماني، وقد طبع حديثاً تحت عنوان، "أسرار التكرار في القرآن"، تحقيق عبد القادر عطا.

ويتقرر هذا كله بقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

ومن ثمّ كان على من يتصدى للتفسير الموضوعي أن يلاحظ هذا الميزان، وهو يجمع الآيات الكريمة ، ويؤلف موضوعها على معانيها ويستخرج عناصرها من ألفاظها ودلالاتها، فيعلم تمام العلم أن كل كلمة قد وضعت في مكانها، وأن كل حرف يذكر أو يحذف فإنما هو بمعيار ومقدار، وكل تقديم أو تأخير في موضع دون موضع إنما هو لغرض يراد، ينبغي أن يبرزه في عناصر الموضوع عند الحاجة إلى ذلك.

ومثال ذلك قوله تعالى في التحدي بالقرآن:

١- ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨].

٢- ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣].

٣- ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨].

فالآيات الكريمة تتحدى الكفار أن يأتوا بالقرآن، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة، والمطلوب في الأطوار الثلاثة أن يأتوا بشيء مماثل للقدر المتحدى به تمام المماثلة، ولذلك جاء فيها جميعاً كلمة: "مِثْله" من غير حرف التبعيض: "مِنْ".

فلما عجزوا جاء الطور الرابع والأخير يطالبهم بسورة تماثل القرآن مماثلة جزئية، ولو في بعض نواحيه، ولذلك جاءت "مِنْ" في موضعها وميقاتها، لتودي قسط المعنى المطلوب بذاته في هذا المقام فقال تعالى:

٤- ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

فإذا عجزوا عن الإتيان بالمماثلة الجزئية، فهم على المماثلة الكلية أعجز.

ولذلك عقب الله تعالى عليها هنا بالنفي التام:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤]. كما عقب الطور الأول بالنفي العام: ﴿لا يَأْتُون بِمِثْلِه﴾ [الإسراء: ٨٨].

فاجتمع النفي في طرفي التحدي، إثباتاً للعجز، وتقريراً لإعجاز القرآن في بداية الموضوع، ونهايته، فسبحان من هذا كلامه، وتبارك وتعالى من هذا نظامه.

وأئمتنا الأعلام كانوا يوقنون بهذه القاعدة تماماً، ولكنها أهملت في التطبيق كثيراً، فأكثر بعضهم القول بزيادة الحروف في القرآن الكريم، وهم يفسرون القرآن، أو يتكلمون في اللغة، [1]وهذا أمر استنكره المحققون من العلماء قديماً وحديثاً، فلا يغتر المفسر بما يجده في الكتب من هذه الأقاويل، ولا يتابع غيره بلا حجة أو تمحيص.

يقول السيوطي رحمه الله فيما يجب على المفسر:

"يتجنب لفظ الزائد في كتاب الله تعالى، فإن الزائد قد يفهم منه أنه لا معنى له، وكتاب الله متره عن ذلك، ولهذا فرّ بعضهم إلى التعبير بدله بالتأكيد، والصلة، والمقحم".[2]

والمحققون من العلماء يمنعون هذه الإطلاقات منعاً باتاً، ويقولون بضرورة كل حرف في موضعه تماماً، وعلى سبيل المثال:

فقد قال كثير من المفسرين بوجوب زيادة "الكاف" في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فراراً من القول بوجود مثل لله تعالى، وهو محال.

وقد رد العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله - مقررا ضرورة وجود هذا الحرف بذاته، ليؤدي المعنى المقصود من الآية الكريمة، وهو نفي وجود (ما يشبه

---

(١) انظر كتاب "مغني اللبيب" لابن هشام (١/ ٢٤٨)، على سبيل المثال وهو يمثل لزيادة "لا" النافية بأمثلة قرآنية عديدة، مع أنه إمام جليل، ما كان يعجزه الوصول إلى بعض أسرار القرآن.

(٢) الإتقان (١/ ١٨٢) "النوع: ٤١ في معرفة إعراب القرآن".

المثل)، لتقرر (نفي المثل) عند العقلاء، فكان الخليق بالنفي هو الأول، لأنه قد يدب إلى النفس دبيب الوساوس والأوهام باحتمال وجود شبيه المثل... الخ.

وهو بحث طويل ونفيس جداً، ويقرر هذا المبدأ تقريراً واضحاً.[1]

ولذلك يجب على المفسر أن يقدم هذه القاعدة بين يديه دائماً، فيجعل لكلام الله تعالى إجلالاً كلياً، ثم ينقب عن المعاني الخفية بعد هذه النية، ولا بد أن يصل - بإذن الله - إلى الفهم الصحيح، وصدق الله : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

(جـ) كتاب الهداية:

فقد أنزل الله تعالى القرآن لغرض واحد حدده تحديداً فقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وكل ما فيه هو لتحقيق هذا الغرض، ابتداء من إعجازه الذي هو دليل النبوة، حتى زجره ووعيده وما بين ذلك من دلائل الخلق، وعجائب القدرة، وحقائق الكون والحياة، وكلها من وسائله لقبول هديه ونوره.

فالقرآن إذن ليس كتاب علوم وفنون مما تعارف عليه البشر في الطب، والفلك والكيمياء ونحوها... وإنما تورد فيه حقائق هذه العلوم وعجائبها من خلال الدعوة إلى الإيمان بالخالق الأعلى، وبقدرته الباهرة المطلقة، وعلمه المحيط، ونظامه المتقن في الكون، وعنايته البالغة بالأحياء والأشياء، وقهره وجبروته فوق عباده، خاصة بالإحياء والإماتة، ثم البعث ليوم لا ريب فيه.

---

(١) انظر كتابه القيم: "النبأ العظيم" ص١٣٠- ١٣٦.

ومن هنا كان على المفسر حين يجمع الآيات في موضوع ما أن يراعى وجهة القرآن الأصلية، فيقرر هذه الحقائق العلمية الفرعية من خلال الأصل الذي سيقت له، ولا يترك الوسائل لتطغى على المقاصد، ولا يسرف في الاشتغال بالدليل عن المدلول، فإن ذلك يجره إلى سلسلة من الأخطاء منها:

أن يقرر حقائق القرآن من خلال الحقائق العلمية الثابتة والعكس هو الصحيح لأن القرآن هو الحاكم عليها، ولأن ثباتها نسبي إضافي، وثبات القرآن مطلق نهائي.

وَمنْها: أن يجعل من نظريات العلوم والمذاهب الفكرية تفسيراً للقرآن وهي حُوّل قُلّب لاثبات لها ولا استقرار.

ومنها: أن يجهد نفسه في إقناع الناس بجانب العلم، وربما أفلح في ذلك، ثم يقصر في إقناعهم بجانب الإيمان، لطول ما بذل في الجانب الأول، فيكون جهداً ضائعاً بلا فائدة.

(د) القرآن عربي اللسان لا الصفات:

فالقرآن العظيم أنزل بلسان عربي مبين، وجرى على لغة العرب في المفردات والتراكيب، وجاء على سننهم في الأساليب، واتخذها أداة ووعاء لمراميه، لذلك اشترط في المفسر معرفة اللغة العربية بل إتقانها.

لكن العربية لغة بشرية، تخضع لما فيهم من فضائل ورذائل، لذلك دخلها ضرورة الشعر، وجفاء البادية وغلظتها، ورقة الحواضر وعذوبتها، وفيها الهجاء المقذع وفيها التصوير الفني الكذوب، حتى قالوا في الشعر: "أعذبه أكْذَبه" وزعموا أن لكل شاعر شيطاناً ينفث على لسانه، وما هي إلا شياطين الإنس ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥].

وهنا مفترق الطرق:

فالقرآن كلام الله، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا

يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢].

وقد جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

لذلك أخذ من العربية أجل وأسمى ما في لساها وأساليبها.

وتجرد عن كل مثالبها ونقائصها، في أدواها، وأغراضها على سواء.

ثم منحها من روح الله عطاء جديداً فوقف العربي يسمع لغته، ومفرداته لكن في لفظ ونظم جديد، وسمو وروح جديد، فبهت وتحير، ثم تفكر، فأسلم من أسلم مبهوراً، أو أعجب – مع كفره – بحلاوته وطلاوته مقهوراً.

إذا تقرر هذا – ولا بد أن يتقرر في قلب المفسر وعقله – ترتبت عليه أمور خطيرة وجليلة منها:

١- براءة القرآن من كل مثالب اللغة في ذاهّا أو مثالب أهلها، فلا نجد فيه – كما قلنا من قريب – حرفا زائداً، ولا تكراراً عقيماً، ولا ضرورة ملجئة، ولا معاظلة البادية، أو خنوثة الحاضرة، ولا فحش القول، ولا إقذاع الهجاء، ولا أكاذيب التصوير الفني البشر، ولا قعقعة الألفاظ في غير موضعها، ولا جعجعة فارغة المعاني بلا طحن، ولا بذاءة الغزل والتشبيب،وغير ذلك مما حفلت به لغة العرب مع جمالها، وفصاحة أهلها، وبلوغهم ذروة البيان يومئذ – بل لا تخلو لغة في الأرض من مثل ما نقول وأكثر، إلا أن يخرج الناس من طبائعهم وبشريتهم، وهذا من المستحيلات.

لكن هذا المستحيل قد حدث فعلاً في دنيا الناس على وجه غير مسبوق ولا معهود، فظل الناس على طبائعهم، وجاءهم كتاب الله تعالى بلغتهم وكلامهم ولكنه النموذج الأسمى، والمثل الأعلى.

ومن هنا يبطل كل ما لهج به كثير من المؤلفين قديماً وحديثاً، حين يتقولون في القرآن بغير علم ولا حق، بحجة أنه عربي جرى على سنن كلام العرب ومعهودهم، ولولا ذلك لأنكرته العرب ثم يجيزون فيه الضرورة، والزيادة، ورعاية الفواصل لأوهى سبب ونحو ذلك.

وقد أحسن الإمام السيوطي رحمه الله حين يرد على مثل هذا:

"...وقال ابن الخشاب: اختلف في جواز إطلاق لفظ الزائد في القرآن، فالأكثرون على جوازه، نظراً إلى أنه نزل بلسان القوم ومتعارفهم والتحقيق أنه إن أريد بالزيادة إثبات معنى لا حاجة إليه فباطل، لأنه عبث، فتعين أن إلينا به حاجة، لكن الحاجة إلى الأشياء قد تختلف بحسب المقاصد، فليست الحاجة إلى اللفظ الذي عدّه هؤلاء زيادة، كالحاجة إلى اللفظ المزيد عليه.

وأقول: بل الحاجة إليه كالحاجة إليه سواء. بالنظر إلى مقتضى الفصاحة والبلاغة، وأنه لو ترك كان الكلام بدونه ... أبتر خالياً عن الرونق البلاغي، ومثل هذا يشهد عليه البياني الذي خالط كلام الفصحاء، أما النحوي الجافي فعن ذلك بمنقطع الثرى.[(١)]

٢- الأصل في القرآن الحمل على الحقيقة، ولا يصار إلى المجاز إلا بدليل، وتتعين الحقيقة في العقائد، والأحكام الشرعية جميعاً، والأخبار، وأسماء الرسل، ومعجزاتهم، ووقائع القصص جميعاً، فهذا وأمثاله حقائق، مقصودة بذاتها، لا يصح تأويلها، ولا صرفها عن ظاهرها، ولا ادعاء معاني باطنة لها، ولا زعم اقتضاء التصوير الفني لأسلوبها، وغير ذلك من الدعاوي.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠].

---

(١) الإتقان (١/ ١٨٢) النوع : ٤١، مع بعض تصرف يسير.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "هو أن يوضع الكلام على غير موضعه" والحقائق في صفات الله تعالى تحمل على ما يليق به جلّ شأنه، من غير تكييف ولا تمثيل، وإلا كانت وضعاً للكلام في غير موضعه.

٣- ليس كل مجاز يصلح للقرآن، فمجازات القرآن تأتي في الأساليب غالباً، وهي مجازات لها طرف من الحقيقة في الواقع، أو في علم الله ، لذلك ليس كل مجاز في اللغة يصلح القول به في القرآن، فقد يكون المشبه به مجهولاً لنا، أو متخيلاً، ولكنه في علم الله حقيقة ثابتة.

فمثل قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥] حقيقة في علم الله ، لأنه يعلم الطرفين جميعاً، وإن كان المشبه به عندنا متخيلاً مجهولاً، فلا يصح أن نقول عن الآية إنها صورة متخيلة، وإنما نقول إنها حقيقة أطلعنا الله عليها، وإن كنا نجهل حقيقة طرفيها جميعاً: (طلع شجرة الزقوم، ورؤوس الشياطين).

٤- عدم القول بالترادف في القرآن ، فقد اختلف العلماء في قضية الترادف اللغوي، والصحيح أنه موجود في لغة العرب على قلة، وغالب الكلمات المتقاربة بينها فوارق دقيقة، كالقعود والجلوس، والخوف والخشية ونحوهما مما يظن فيه الترادف التام وليس كذلك.

لكن القرآن الكريم ليس فيه لفظان مترادفان تمام الترادف، وإنما يقوم الأسلوب القرآني على مراعاة أدق الفروق بين الألفاظ، ويضع كل لفظ في موضعه المناسب تماماً، وهذا ما ينبغي أن يتنبه له المفسر الموضوعي.

فلفظ: "القصاص" في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧]. يخالف لفظ "القتل" في مدلوله، وسعته، وإيحائه بسببه، وإن كانا يشتركان في بعض الأفراد، ولذلك آثره القرآن بالذكر هنا.

ولفظ "الجهاد" يفترق عن "القتال" وعن "الحرب" في جوانب كثيرة، ولذلك

صار علماً في القرآن والسنة على بذل الجهد في سبيل الله باللسان والمال، والنفس... وكذلك لفظي الكمال والتمام في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]. يرجع كل منهما إلى معنى:

فالتمام يرجع إلى شمول العدد، والكمال يرجع إلى جودة الصفات، فيحصل الكم والكيف جميعاً في دين الله تعالى، ولذلك رضيه الله تعالى لنا ديناً، فاللهم "اجعل الإسلام مُنْتَهى رِضَانا".(١)

(١) هذا جزء من دعاء علمه النبي صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه، وقد رواه الطبراني من حديث عبد الله ابن عمرو، والحاكم في المستدرك وأبو يعلى في مسنده عن بريدة.

أسئلة التقويم الذاتي

ضع علامة (✓) أو علامة (×).

( ) الالتزام التام بعناصر القرآن تقتضي أن يأتي المفسر بالحديث النبوي شارحاً وليس منشئاً لأي عنصر من عناصر الموضوع القرآني.

( ) وظيفة كلام الصحابة العلماء في التفسير الموضوعي أنه يأتي شارحاً لا منشئاً لأي عنصر.

( ) التقيد التام بصحيح المأثور في التفسير الموضوعي أحد القواعد التي يلتزم بها المفسر.

( ) الملائكة والجن والشيطان هي ذوات حقيقية وليست كناية عن معان أو رموز لقوى الخير والشر.

( ) تجنب الحشو والاستطراد في التعليق ليس من القواعد التي يلتزم بها المفسر في التفسير الموضوعي.

( ) التدقيق التام قبل التقعيد والتأصيل يعني النظر الشامل والاستيعاب الكامل لكل الألفاظ الواردة في الموضوع في القرآن .

( ) القرآن أصل الأصول جميعاً من أهم خصائص القرآن الكريم التي يجب على المفسر مراعاتها في التفسير الموضوعي.

( ) القرآن عربي اللسان لا الصفات يعني أن القرآن أخذ من اللغة العربية أجل وأسمى ما في لسانها وأساليبها وتجرد من كل مثالبها ونقائصها.

( ) الأصل في القرآن الحمل على الحقيقة ولا يصار إلى المجاز إلا بدليل.

( ) عدم القول بالترادف في القرآن يرجع إلى أن أسلوب القرآن يقوم على أدق الفروق بين الألفاظ.

المبحث الثامن

تتمات ورد شبهات

أولاً: حكم الجمع الموضوعي وتفسيره:

وفي ختام هذا المبحث نعود إلى قضية من بدهيات العلوم الإسلامية، ونعني بها: "حكم التفسير عامة، والموضوعي منه خاصة".

تفسير القرآن عامة:

وإنما نذكرها هنا توطئة بين يدي رد الشبه التي ستأتي بعد قليل.

ومعلوم أن تفسير القرآن الكريم من أجل الأعمال، لأنه اشتغال بفهم كلام الله تعالى، وبيانه للناس، وقد أمر الله تعالى بالأمرين جميعاً في عديد من الآيات الكريمة، حتى أنها لتصلح أن تكون "موضوعاً" قرآنياً إذا جمعت الآيات المتعلقة به في شتى السور.

ولذلك قال السيوطي رحمه الله:

"أجمع العلماء أن التفسير من فروض الكفايات، وأجل العلوم الثلاثة الشرعية".

قال الأصبهاني: أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن، بيان ذلك أن شرف الصناعة إما بشرف موضوعها مثل الصياغة... وإما بشرف غرضها مثل: صناعة الطب، وإما لشدة الحاجة إليها كالفقه، فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث:

لأن موضوع التفسير كلام الله تعالى.

والغرض منه الاعتصام بالعروة الوثقى.

وأما شدة الحاجة إليه، فلأن كل كمال ديني أو دنيوي مفتقر إلى العلوم الشرعية وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى".(1)

التفسير الموضوعي خاصة:

والتفسير الموضوعي هو نوع من أنواع التفسير، بل هو أقربها إلى التفسير بالمأثور، أو إلى تفسير القرآن بالقرآن على وجه الخصوص، وهو ألصقها جميعاً بمعنى تدبر الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

ثانياً: وجوه الترتيب في القرآن وموقع الجمع الموضوعي منها:

نزل القرآن الكريم منجماً على مدار ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً، وكان كلما نزل شيء منه أمر النبي صلى الله عليه وسلم بوضعه في مكان معين، من سورة معينة، وكانت هذه النجوم القرآنية تتضمن أغراضاً شتى توزعت في سور القرآن الكريم، **ومن هنا كان للقرآن الكريم وجوه متعددة في ترتيبه هي بإيجاز:**

١- **ترتيب النزول:** حيث كانت الآيات الكريمة تنزل على حسب الوقائع والأحوال، أحياناً بعض آية، أو آية، أو عدة آيات، أو سورة كاملة.

وقد بدأ هذا الترتيب بصدر سورة "العلق": ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. وانتهى بالآية الكريمة ٢٨١ من سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ﴾.

وهذا الترتيب هو أساس البحث والدراسة عند العلماء، لأن عليه يترتب معرفة الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، وتدرج التشريع، وتاريخه ونحو ذلك، ولا يوجد ضبط كامل لهذا الترتيب، وإنما يوجد كما قلنا "في المكي والمدني" أشياء مقطوع بترتيبها نزولاً، وأشياء راجحة، وأشياء محتملة. وهذا قليل جداً في الأحكام.

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٧٥) ملخصاً (من النوع السابع والسبعين في معرفة تفسيره).

٢- ترتيب التلاوة: وهو الموجود في المصاحف الآن، وقد رتب على هذا الوجه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وفق ما علمه جبريل عليه السلام أخذاً من اللوح المحفوظ، وهو الذي كان يقرأ به النبي صلى الله عليه وسلم ، في الصلاة والتلاوة، ويحفظه أصحابه، ويدارسه به جبريل في رمضان، وهذا الترتيب هو المتواتر، المتعبد بتلاوته، والمتحدى به، وقد رتب على هذا النمط لحكم وأسرار كثيرة سنتحدث عن بعضها بعد قليل إن شاء الله.

٣- ترتيب الموضوعات: وهو الذي تجمع فيه الآيات المتعلقة بكل موضوع على حدة، وفي مكان واحد، للنظر فيها مجتمعة، واستخراج عناصرها، ومعرفة حقائقها عن طريق تفسيرها تفسيراً موضوعياً.

وهذا الوجه هو أساس البحث والدراسة عند العلماء من قديم مثل الوجه الأول،وكان عمدهم في استخراج حقائق القرآن وأحكامه، في العقائد، والفقه، وغيرهما، مثل آيات الخمر، والربا، وأقسام القرآن ونحو ذلك.

وكل ما جد عليه هو الاتجاه به نحو مزيد من التخصص، وتحديد الموضوعات ودراستها دراسة تلائم حاجة الإنسان في هذا الزمان، وتبرز وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن.

وأصل هذا النوع هو أمر يقيني موجود في القرآن، ويمكن النظر فيه واستخراجه بلا تكلف ولا تعسف، أما طرائق الترتيب الفني، أو التصنيف العلمي، فهي وجوه دراسية يمكن أن تتعدد، فترتب الموضوعات على أساس حروف المعجم مثلاً، أو على أساس أغراض المكي والمدني، أو على أساس شعب الدين الأربعة الجامعة "العقائد، الأخلاق، العبادات، المعاملات" ونحو ذلك مما يتعلق بكيفيات الدراسة والبحث، لا بأصل القضية ذاتها.

٤- ترتيب النظام القرآني: أو ما يسمى "بالوحدة الموضوعية" في السورة الواحدة، أو في القرآن الكريم كله.

والمراد به أن القرآن كأنه كله كلام واحد، والآيات والسور تتكامل لخدمة وبيان هذا الأمر الواحد كلّ في موضعه.

وينطبق هذا أيضاً على السورة باعتبارها وحدة قرآنية متميزة:

يقول الدكتور دراز رحمه الله:

"ولقد وضح لنا أن هناك تخطيطاً حقيقياً واضحاً ومحدداً، يتكون من ديباجة وموضوع، وخاتمة "أي في السورة الواحدة".

فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة والموضوع الذي ستعالجه في خطوطها الرئيسية، ثم يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع، بنظام لا يتداخل فيه جزء مع جزء آخر، وإنما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة، وأخيراً تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة".[1]

وهذا الذي يقوله الشيخ رحمه الله أمر تقوم عليه الأدلة، وتطمئن إليه النفس والعقل، ولكن لا يزال البون بعيداً في وضع هذا على قوالب علمية محددة، تنتقل به من باب الالتماس والاجتهاد، والظن وكثرة الاختلاف، إلى باب الحقائق المحددة المعالم والأوصاف، ويومئذ يبرز لون جديد آخر من وجوه الإعجاز القرآني الفياض، وإنه لآت بإذن الله.

ثالثاً: شبهات وردها:

• شبهات على الجمع الموضوعي:

ولقد وردت بعض الشبهات على مبدأ "الجمع الموضوعي" للقرآن الكريم، وما يترتب عليه من "التفسير الموضوعي" ملخصها:

١- أن الله تعالى قد ذم مثل هذا الاتجاه في قوله تعالى:

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز ص١١٩.

﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ • الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ • فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ • عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر : ٩٠-٩٣].

٢- أن الجمع الموضوعي هو تقطيع "للوحدة القرآنية" التي سماها: "السورة" وإحلال لوحدة أخرى مكانها هي "وحدة الموضوع".

٣- الجمع الموضوعي إخلال بنظام ترتيب القرآن المعجز، المتواتر، المتعبد بتلاوته على هذا النمط الموجود في المصحف فقط.

٤- وفيه معنى الاستدراك على الله تعالى ، إذ لو شاء لجعل القرآن على الترتيب الموضوعي من أول الأمر.

والجواب على هذه الشبهات بإيجاز:

أولاً: معنى: "عضين" في الآية الكريمة: فِرَقاً وأقساماً، أي أن الكفار جعلوا القرآن هكذا، بعضه سحر، وبعضه كهانة، وبعضه شعر، وغير ذلك من أباطيلهم التي لا وجود لها في القرآن الكريم. أما "الجمع الموضوعي" فغير هذا جملة وتفصيلاً، لأننا نجعل بعضه في موضوع "التوحيد"، وبعضه في "إثبات النبوة"، وبعضه في "القيامة"، وهكذا كل موضوع هو تقرير لحقائق القرآن ذاته. وقد روى البخاري عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

"هم أهل الكتاب جزؤوه أجزاء، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه"[1] و"الجمع الموضوعي" وتفسيره هما إيمان بالكتاب كله ولله الحمد.

ثم هما "تجميع" لحقائق كل موضوع، وليس فيهما تجزئة وتفرقة لمعاني القرآن، فبطل الاستدلال بالآيات الكريمة على ذم الجمع الموضوعي.

ثانياً: القول بأنه تقطيع لأواصر الآيات : ومخل بالنَظْمِ المعجز هو قول باطل مردود، لأننا لا نؤلف بهذا "الجمع الموضوعي" قرآنا يتلى، أو يتعبد بتلاوته على هذا

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير "تفسير سورة الحجر" (٥/ ٢٢٢).

الوجه، فإن هذا لا يشك مسلم في حرمته، أو كفر من يستحله.

وإنما هذا "الجمع الموضوعي" مقصود به البحث والدراسة العلمية، لاستخراج كنوز القرآن في جوانب الحياة، على نمط يلائم العصر، ويؤكد الإعجاز القرآني.

ومثله في هذا كمثل "ترتيب النزول" فإن مقصده الدراسة، واستخراج الأحكام الصحيحة، وليس التلاوة.

ورحم الله علماءنا فقد ردّوا على مثل هذه الشبهة قديماً، كما روى الإمام الزركشي رحمه الله:

"قال بعض مشائخنا المحققين: قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة.

وفصل الخطاب: أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون، مرتبة سوره وآياته كلها بالتوقيف.

وحافظ القرآن لو استفتي في أحكام متعددة، أو ناظر فيها، أو أملاها، لذكر آية كل حكم على ما سئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى، ولا كما نزل مفرقاً، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة..".(١)

ثالثاً: أما القول بأن الجمع الموضوعي استدراك على الله تعالى: ولو شاء لجعله على النظام الموضوعي من أول الأمر.

فالجواب: أن الله تعالى جعل القرآن موضوعات محددة مرتبة من أول الأمر، وهي في القرآن على قسمين:

الأول: قسم محدد مستقل بسورة، لا تتناول إلا موضوعاً واحداً كما في سورة "الفيل – قريش – المسد – الإخلاص – نوح – الجن – القدر – القارعة".

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٣٧)، وقائل هذا هو الشيخ: ولي الله الملوي المنفلوطي رحمه الله.

الثاني: موضوع محدد قائم برأسه، مبثوث في سور مختلفة لحكم كثيرة، فيجمع موضوعياً من سوره، للدراسة، لا للتلاوة.

لكن يبقى لدينا السؤال عن حكمة بث الموضوع الواحد في سور شتى؟ وإيثار ترتيب السور على هذا النمط المتواتر في المصحف دون ما عداه؟ والحكمة في ذلك - والله أعلم - واسعة متشعبة منها:

١- تيسير حفظه وتلاوته:

لأن الله تعالى تعهد بحفظ القرآن إلى يوم الدين، وجعل لذلك وسائل شتى منها تيسير حفظه في الصدور، والتشويق إلى تلاوته دائماً.

وترتيب القرآن على نمطه المتواتر للتلاوة هو أيسر ترتيب يحفظ، وأشوق نص يتلى ويكرر، لان الأغراض وزعت على سوره، ومزج بعضها في بعض مزجاً عجيباً، وفق خطة ونظام معجز، فلا يزال القارئ- للحفظ أو التلاوة - ينتقل بين الآي والسور لا يمل، ولا يزهد، بل يزداد إقبالاً كلما فرغ من غرض، ممتزج بقصة، مشتملة هي على عبرة، ومفضية إلى موعظة حسنة... وهكذا.

ولعل هذا بعض أسرار قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

٢- التلطف في عرض موضوعاته دائماً:

ذلك لأن هذا النمط من ترتيب التلاوة يستدرج القارئ بغاية اللطف، إلى الإلمام بجميع أغراض القرآن، كلما تلا شيئاً منه، وإلى تذكيره بها دائماً فلا ينعزل عن بعضها أبداً، وهذا ضرب من الإعجاز في القرآن الكريم عجيب.

ذلك لأن الإنسان مفطور على حب "الانتقاء" فيختار ما تميل إليه نفسه، ويعرض عما عداه، إعراضاً دائماً، أو موقوتاً حسب حاجته، وهو في ذلك كثير التقلب، كما قيل بحق: "وللناس بعدد رؤوسهم آراء"، وسريع الملل ودائم التحول بين الأشياء والأضداد.

وبما أن الله تعالى هو الذي "علم القرآن" و"خلق الإنسان" ويعلم أسرار فطرته، لذلك جاء بالقرآن العظيم على هذا الضرب المعجز من معالجة الفطرة الإنسانية. وملاءمة أحوالها التي تنفعها، فلو جعل القرآن الكريم أبواباً موضوعية: باباً للصلاة ثم ينتهي الحديث فيه، وآخر للزكاة، وثالثاً للعقيدة على حدة.. الخ.

لو جعل القرآن على هذا النمط لأقبل كل قارئ على ما تهواه نفسه من أبواب المصحف، وأهمل ما عدا ذلك.

أما حين وزعت الموضوعات على نمط ترتيب التلاوة المعجز، فإن القارئ ينتقل بينها في يسر، وبلا إحساس بالفواصل بين ما يرغب فيه وما يرغب عنه، لأنهما مزجا مزجاً حكيماً، فالنذارة مزجت بالبشارة، وأحوال النار قرنت بأحوال الجنة، والقصة اشتملت على العقيدة، والأحكام الشرعية عرضت من خلال الأمثال والصور البلاغية، وهكذا تتسرب الموضوعات والأغراض جميعاً - في لطف بالغ - إلى نفس القارئ، وكأنهما عناصر شتى من الغذاء، والدواء، والفاكهة، والشراب مزجت في قوارير من فضة، فطابت قلباً وقالباً، وصار مزاجها محبوباً وغالبا، يتلقاه الإنسان من كل أقطاره بالقبول والإقبال، والشوق والإجلال.

فلما تم ذلك كله من خلال ترتيب التلاوة، واستقر القرآن في الأرض استقرار الأبد، التفت العلماء إلى أغراض القرآن وموضوعاته يستخرجونها، كل بما يلائم زمانه، حتى جاء هذا العصر الذي يحتاج إلى "الجمع الموضوعي" بمعناه المحدد، فوفق الله تعالى العلماء لاستخراج موضوعات القرآن متكاملة متجاورة، ووضعها على مناهج "التفسير الموضوعي" لاستخراج عناصرها، وبيان ما بينها من قرابة ماسة، ومناسبة خاصة، رغم تباعد الزمان، وتعدد الوقائع التي نزلت عليها نجوم القرآن.

ولعل أصدق تصوير لهذه المعاني كلها هو قول النبي صلى الله عليه وسلم في وصف القرآن: "هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخلُق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه".[1]

(١) رواه الترمذي.

أسئلة التقويم الذاتي

س١: ما هو حكم الجمع الموضوعي وتفسيره؟

س٢: ما هي وجوه الترتيب الثلاثة في القرآن الكريم؟

س٣: أذكر أهم الشبهات التي أثيرت حول التفسير الموضوعي؟

س٤: ما هي الردود التي يمكن الرد بها على الشبهات المثارة حول التفسير الموضوعي؟

الخلاصة

التفسير بمعناه العام

- **تعريف التفسير**
  - لغة: البيان والكشف
  - اصطلاحاً: علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة نزوله وسنده وأداءه وألفاظه ومعانيه المتعلقة بالألفاظ والمتعلقة بالأحكام
- **نشأته**
  - كان هناك التفسير النبوي ثم كان بعد ذلك تفسير الصحابة
- **مراحل تدوين التفسير**
  - ١- مرحلة تدوين الآثار المسندة
  - ٢- مرحلة استقلال آثار التفسير بالتدوين
  - ٣- مرحلة الآثار المسندة المستقلة الممزوجة
  - ٤- مرحلة الروايات المحذوفة الأسانيد
  - ٥- مرحلة التفسير بالرأي
- **أنواع التفسير**
  - من حيث مصدره: التفسير بالمأثور - بالرأي
  - من حيث مناهج المفسرين: التحليلي - الإجمالي- المقارن - الموضوعي
  - من حيث الضابط الجامع: الموضعي- الموضوعي

حقائق التفسير الموضوعي وأصوله

- **معنى التفسير الموضوعي**
  - هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة معنىً أو غاية عن طريقة جمع آياتها المتفرقة والنظر فيها على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة لبيان معناها واستخراج عناصرها وربطها برباط جامع.
- **أنواع التفسير الموضوعي**
  - (أ) التفسير الموضوعي العام
  - (ب) التفسير الموضوعي الخاص
- **مناهج التفسير الموضوعي**
  - (أ) التفسير الموضوعي الوجيز
  - (ب) التفسير الموضوعي الوسيط
  - (ج) التفسير الموضوعي البسيط
- **نشأة التفسير الموضوعي**
  - العهد النبوي – عصر الصحابة والتابعين – بداية التدوين وتطوره – الاختصاص محور التفسير الموضوعي الجديد
- **أهمية التفسير الموضوعي**
  - ١– إبراز إعجاز القرآن ٢– الوفاء بحاجات العصر ٣– تأصيل الدراسات القرآنية
- **منهج البحث في التفسير الموضوعي**
  - خطوات البحث إجمالا
  - خطوات البحث تفصيلا
- **قواعد ضرورية**
  - الالتزام بعناصر القرآن – التقيد بصحيح المأثور – تجنب الحشو والاستطراد – التدقيق قبل التقعيد والتأصيل – مراعاة خصائص القرآن
- **تتمات ورد شبهات**
  - حكم الجمع الموضوعي وتفسيره
  - وحدة الترتيب في القرآن وموقع الجمع الموضوعي
  - شبهات وردها

الاختبار البعدي للوحدة

س١: أذكر نوع التفسير الموضوعي ومنهجه الذي ينطبق على الآتي:

(أ) التفسير الذي يقوم على وحدة المعنى والغاية بين أطرافه وأفراده فتكون الرابطة بينهما خاصة وقريبة مثل "اليهود في القرآن" والذي يقوم منهج التفسير فيه على الاستقراء والاستيعاب والإحصاء الشامل لموضوع قرآني ما؟

(ب) التفسير الذي يقوم على وحدة الغاية فقط بين أطراف موضوعه مثل (الأحكام القرآنية) أذكر النوع الذي يدخل فيه هذا التفسير؟

س٢: نشأ التفسير الموضوعي في العهد النبوي وكان ذلك عن طريق القرآن نفسه أو السنة النبوية، وضح ذلك مع ضرب مثال للتفسير الموضوعي عن طريق القرآن وعن طريق السنة النبوية؟

س٣: التفسير الذي يعنى ببيان المناسبات بين الآيات والسور والذي يعنى بربط قضايا بعيدة متعددة، هل يستبعد من مجال التفسير الموضوعي ؟ وإذا كان مستبعداً فيما تفسر استبعاده من مجال التفسير الموضوعي؟

س٤: من أسباب بروز التفسير الموضوعي الرسائل العلمية في الجامعات الإسلامية. اشرح ذلك؟

س٥: عرف التفسير الموضعي؟ مع ذكر أي من مناهج المفسرين يدخل تحته هذا التفسير الموضعي؟

س٦: هل التفسير الموضوعي للقرآن الكريم يبرز إعجاز القرآن؟ وكيف يحقق التفسير الموضوعي للقرآن هذه الفائدة الكبيرة؟

س٧: كيف يكفل التفسير الموضوعي تأصيل الدراسات القرآنية والعلمية، اختر واحداً من العلوم واشرح كيف يحقق التفسير الموضوعي ذلك بالنسبة له؟

س٨: اختيار العنوان هو أحد خطوات منهج البحث في التفسير الموضوعي، ما الذي يجب مراعاته عند إجراء هذه الخطوة على طريق التفسير الموضوعي للقرآن الكريم؟

س٩: الاختصاص هو محور التفسير الموضوعي الجديد ونهاية المراحل التي وصل إليها التفسير الموضوعي، وضح المقصود بالاختصاص في التفسير الموضوعي؟

س١٠: جمع الآيات الكريمة المتعلقة بالموضوع كخطوة في منهج البحث في التفسير الموضوعي، فهل يتفاوت عدد الآيات المطلوبة حسب المنهج الذي يسير به المفسر؟ وضح ذلك؟

س١١: عن أي شيء تعبر العبارات الآتية فيما يتعلق بالقواعد التي يجب على المفسر أن يتبعها في التفسير الموضوعي ويتقيد بها:

١- المفسر يأتي بالحديث النبوي (شارحاً) ومبينا للنص القرآني ولا يصح أن يأتي به ليكون (منشئاً) لعنصر من عناصر الموضوع القرآني؟

٢- وظيفة كلام الصحابة والعلماء من بعدهم في التفسير الموضوعي تنحصر في أن يكون (شارحاً) لا (منشئا) للعنصر في موضوع من موضوعاته؟

٣- ما صح وثبت من تفسير القرآن للقرآن يجب على المفسر التزامه؟

٤- القرآن أصل الأصول جميعاً وغاية في الإحكام والإتقان وكتاب الهداية؟

س١٢: القرآن عربي اللسان لا الصفات، ما معنى ذلك؟ وماذا يترتب على ذلك من نتائج تتعلق بالتفسير الموضوعي؟

س١٣: اذكر وجوه الترتيب القرآني التي ينبغي مراعاتها عند التفسير الموضوعي للقرآن الكريم؟

س١٤: يثير البعض شبهات حول التفسير الموضوعي منها أن الجمع الموضوعي هو تقطيع للوحدة القرآنية، فما ردك على هذه الشبهة؟

س١٥: اذكر واحدة من حكمة بث الموضوع الواحد في سور شتى؟

الوحدة الثانية

نماذج من التفسير الموضوعي

الأهداف الخاصة

تركز الأهداف الخاصة في الإلمام بالموضوعات الآتية:

- **أولاً**: الوحدانية و التوحيد.
- **ثانيا**: المعية في القرآن الكريم.
- **ثالثاً**: التبعية في القرآن الكريم .
- **رابعاً**: العلم والعلماء في القرآن الكريم.
- **خامساً**: الآخرة ومشاهدها في القرآن.

الوحدة الثانية

- الوحدانية والتوحيد في القرآن
- المعية في القرآن الكريم
- التبعية في القرآن الكريم
- العلم والعلماء في القرآن الكريم
- الآخرة ومشاهدها في القرآن

الموضوع الأول

الوحدانية والتوحيد في القرآن الكريم

أولاً: تمهيد وتعريف:

يقال في اللغة (وَحِدَ) بكسر الحاء وضمها أي صار منفرداً، إذ أصل (الوَحْدة) الانفراد، أو كما يقول الراغب رحمه الله: "هي الشيء الذي لا جزء له البتة".[1]

ويقال: وحَّده توحيداً أي جعله واحداً، أو عدّه واحدا. و"الواحد" مشترك لفظي يطلق على الله تعالى، مع ملاحظة الفرق بين الوحدة في الحالين.

فالوحدة في جانب الخلق جميعاً عارضة تقبل التحول، بل قد تكون ادعائية.

كقولهم: فلان "واحد دهره"، أو "نسيج وحده".

أما الوحدة في جانب الخالق جل شأنه فهي أصلية غير عارضة، ولا مدّعاة، وهي حقيقة يقينية لا تقبل التحول والانتقال، وقد أحسن الراغب رحمه الله حين قال بعد أن بين استعمالات لفظ (الواحد):

"والوحدة في كلها عارضة، وإذا وصف الله تعالى بالواحد فمعناه هو الذي لا يصح عليه التجزي ولا التكثر".[2]

ولفظ "أحد" مشترك لفظي كذلك لكنه إذا وقع وصفاً فلا يكون إلا لله تعالى لأنه "أكمل من الواحد" كما قال أبو حاتم،[3] وأوفى دلالة على معنى الوحدة.

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني مادة (وحد) ص٥١٤.

(٢) المرجع السابق ص٥١٥.

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (النوع الأربعون في معرفة الأدوات التي يحتاج إليها المفسر) (١/ ١٤٦).

ثانياً: الوحدانية والتوحيد:

(فالوحدانية) صفة ذاتية لله تعالى، (والتوحيد) إيمان المكلف واعتقاده أن الله تعالى متصف بذلك.

ولذلك يقول صاحب القاموس المحيط:

"التوحيد الإيمان بالله وحده، والله الأوحد والمتوحد ذو الوحدانية".[1]

"الوحدانية" مصدر بمعنى "الوحدة" زيدت عليه ألف ونون للمبالغة في أصل المعنى ونظيره لفظ: ربانية، وروحانية، وجسمانية في النسبة إلى الرب، والروح والجسم على وجه المبالغة.

وجاء لفظ "الوحدانية" على هذا البناء للدلالة على اتصافه تعالى بالوحدة المطلقة البالغة غاية الكمال، والثابتة له سبحانه قبل أن يكون الخلق جميعاً كما قال تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

وكما قال صلى الله عليه وسلم: "كان الله ولم يكن شيء غيره".[2]

أما (التوحيد) شرعاً فهو:

الإيمان الجازم بتفرد الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، ونفي الشركاء عنه سبحانه اعتقاداً وعملاً على الوجه الذي جاء به الوحي الإلهي على ألسنة الرسل عليهم السلام.

ويتلخص من هذا:

أن "الوحدانية" هي صفة لله تعالى: وهي حقيقة قائمة بذاته جل شأنه سواء اعترف الناس بذلك أم لم يعترفوا.

---

(١) القاموس المحيط جـ ١(باب الدال) (فصل الواو).

(٢) رواه البخاري عن عمران بن حصين في كتاب (بدء الخلق) من كتابه الجامع الصحيح (٤/ ٧٣).

"والتوحيد" هو اعتقاد المكلفين بهذه الصفة على وجهها الشرعي فهو تكليف من الله لعباده ابتداء.

وهو امتثال من العباد لهذا التكليف انتهاء.

ولا يتحقق "التوحيد" إلا إذا امتثل العباد لما كلفهم به ربهم على الوجه المشروع.

ثالثاً: صفات الله تعالى وأسماؤه:

وقد علمنا الوحي الإلهي أن لله تعالى صفات كثيرة: كالعلم، والقدرة، والإرادة، والوحدانية من هذه الصفات الجليلة.

وعلمنا أن لله الأسماء الحسنى مثل: الخالق، الرازق، المصور.

(والواحد) من هذه الأسماء الحسنى.(١)

وقد عنى الوحي الإلهي أبلغ العناية ببيان وتقرير كل ما يتعلق بأسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، وجعل ذلك رأس الإيمان، ولب الاعتقاد، خاصة صفة (الوحدانية) باعتبارها الصفة الجامعة لكل كمال يليق بالله تعالى.

رابعاً: الوجود الإلهي حقيقة مسلمة:

● تسليم الأمم بوجود الله تعالى:

فالله تعالى متصف بصفة "أوّلية الوجود"، وهو متفرد بوجوب هذا الوجود، ومن المقرر الثابت أن عامة الأمم كانت تسلم بهذا لله سبحانه وتعالى، ولا تماري في ذلك لما يأتي:

أولاً: لأن الله تعالى علم أباهم آدم الأسماء كلها، ثم علمهم أبوهم آدم أول

---

(١) جاء في ذلك في حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي.

حقائق العلم وهو وجود الله تعالى.

ثانياً: لأن الله تعالى أخذ على بني آدم العهد والميثاق أنه ربهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ثالثاً: لأن الرسل جميعاً ترادفوا بين الأمم على كلمة واحدة في الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى.

رابعاً: لأن الله تعالى فطر الناس على أن لهم رباً وخالقاً، وكل مولود يولد على هذه الفطرة كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]

ومن هنا اجتمعت دلائل الخلق، والعهد، والعلم، والعقل، والوحي على التسليم بوجوده سبحانه وتعالى تسليماً مطلقاً ، وشاع ذلك بين الناس منذ درجوا على الأرض.

وقد استفاض القرآن الكريم في تقرير هذه الحقيقة التاريخية، وبيان شيوعها وذيوعها بين الأمم من أقدم عصور التاريخ.

قال تعالى على لسان قوم نوح: ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقال تعالى على لسان ثمود:﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ • إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ [فصلت: ١٣، ١٤].

ولم ينكر وجود الله تعالى في الأمم السابقة إلا صنفان:

الأول: "الدهريون" وهم قلة قليلة في كل أمة، كانوا ينسبون الأفعال إلى الدهر وطبائع الأشياء ، وقد قص القرآن مقالتهم، وجهّلهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا

هيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

الثاني: المكابرون أصحاب اللجاج المحض، والحجاج الباطل الذي يدخل في نطاق الهذيان والهزل، وغالباً ما يكون ذلك في مواقف الخصومة والجدال مع الرسل عليهم السلام، ومثال ذلك محاورة إبراهيم عليه السلام للنمرود.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾

[البقرة: ٢٥٨]

وفي هذا الموقف أيضاً قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

[الشعراء: ٢٣]

فلم يكن النمرود ولا فرعون يجهلان وجود الله تعالى، وإنما جادلاً بالباطل حفاظاً على الملك والسلطان واستتباع الناس لهما، لذلك سرعان ما بهت النمرود وانقطع، أما فرعون فقد لجّ في عناده حتى أخذه الله نكال الآخرة والأولى، وأعلن إيمانه وإسلامه بعد فوات الأوان.(١)

ولهذا لم يتوسع القرآن كثيراً في هذه القضية لكونهاحقيقة مسلمة عند عامة الأمم، وإنما عرض لها في إيجاز ردًّا على الملحدين والمكابرين، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]

(١) وذلك قوله تعالى: ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

خامساً: ضلال البشر في عقيدة التوحيد:

ومع اعتراف الأمم بالوجود الأعلى انحرفوا في أمر التوحيد، وضلوا فيه ضلالاً مبيناً، فأشركوا مع الله تعالى غيره، وجعلوا معه آلهة أخرى، واتخذوا من دونه أنداداً يحبونهم كحب الله. وقد لقن الشيطان أتباعه فرية خبيثة إذ زعموا أن الله تعالى قد أعطى لبعض "القوى" في الكون تفويضاً وسلطاناً، وجعل لهم نفوذاً وتأثيراً، لذلك يتقرب إليهم الناس ليكونوا واسطة بينهم وبين الله تعالى في الشفاعة لهم، أو دفع الضر عنهم، أو جلب النفع لهم، وتدرجوا حتى عبدوا من دون الله كل ما سولته لهم أوهامهم وشياطينهم، ابتداء من الملائكة وبعض الرسل، وانتهاء بالجن والكواكب والملوك والكهان، بل لم يزل الشيطان يستخف من اتبعه من الغاوين، حتى هوى بهم إلى أسفل سافلين فعبدوا الشجر والحجر، والحشرات والبقر، والشمس والقمر، وغير ذلك من المخلوقات التي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

سادساً: موقف القرآن من الوحدانية والتوحيد:

وقد وقف القرآن موقفاً شاملاً في هذا الباب، وعنى بأمر الوحدانية والتوحيد غاية العناية، وأبرزهما في الآيات المكية والمدنية جميعاً، وموقف القرآن في هذا الجانب واسع مستفيض، يحتاج إلى مجلد تفرد له، ولكننا في الجانب الوسيط من "التفسير الموضوعي" نأخذ جوامع الآيات الكريمة التي تجلي لنا هذا الموقف الشامل، والذي نلخصه في الفقرات التالية:

● **سر الاهتمام البالغ:**

لأن "الوحدانية" صفة جامعة من صفات الله تعالى كما قلنا، و"التوحيد" عقيدة ملزمة لا يقبل عمل العبد إلا إذ قام بها على وجهها الشرعي، ولأن "التوحيد" هو العقيدة التي كثر فيها انحراف البشر عن حقائق الفطرة التي خلقوا عليها، وعن

حقائق الوحي الإلهي الذي جاء على ألسنة الرسل جميعاً عليهم السلام، كما سنبين بعد قليل إن شاء الله.

● **جوامع الألفاظ:**

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه القضية الكبرى "الوحدانية والتوحيد" بألفاظ شتى تدور حول تقريرها وتأكيدها بطريق الإثبات مثل: لفظ: الواحد، والأحد، والرب، والإله أو بطريق نفي أضدادها مثل الشرك والشركاء، والشفعاء والأنداد، والدعاء والعبادة لغير الله ، وغير ذلك كثير وعلى سبيل المثال:

فقد ورد لفظ "واحد" وما تفرع منه في القرآن الكريم في ثمانية وستين موضعاً[1] منها ثمان وعشرون مرة وصفاً لله تعالى، وتقريراً لوحدانيته مثل:

﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقد ورد لفظ "أحد" في القرآن الكريم خمساً وثمانين مرة.[2]

ومن العجيب أنها جاء منها (مرة واحدة) وصفاً لله تعالى وهو قوله تعالى في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وكأن هذا نوع من التأكيد لأحديَّة الله تعالى من حيث اللفظ والمعنى والعدد جميعاً.

وقد ورد لفظ (أحد) بصيغ أخرى - غير الوصف- تتعلق بالله تعالى بوجه ما، مثل ردّ الأحدية إليه عن طريق الاستثناء قال تعالى: ﴿وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (وحد) ص٧٤٥.

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (أحد) ص١٥.

ومثل نفي الشركاء مطلقاً قال تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]. ﴿وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١].

• أصل الأصول جميعاً:

فالقرآن العظيم يتحدث عن "**الوحدانية**" باعتبارها الصفة الإلهية الجامعة لكل صفات الكمال، فهو سبحانه واحد في ذاته وهو سبحانه واحد في صفاته فلا يشاركه أحد في علمه ولا في قدرته، أو إرادته، أو حكمته، أو أي صفة من صفاته جل شأنه.

وهو واحد في أفعاله سبحانه فلا يشاركه أحد في خلقه، ولا رزقه كما قال تعالى في كلمة جامعة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والمعنى: أن الله تعالى متفرد (بالوحدانية) المطلقة، وكل شيء في الكون كله – سواه – مبثوث على نمط الزوجية المكررة، ذات الأشباه والنظائر.

و القرآن الكريم يتحدث عن "التوحيد" باعتباره رأس الإيمان، والأصل الذي ينبغي أن يتقرر في النفس والقلب قبل كل شيء، ثم في العمل والسلوك، لأنه مقياس كل شيء بعده، فلا يقبل عمل بدونه، ولا تقبل شفاعة، ولا تعطى مغفرة لمن أخل به قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾

[النساء: ٤٨، ١١٦]

• أساس دعوة جميع الرسل عليهم السلام:

فقد قرر القرآن الكريم أن الأساس الذي قامت عليه دعوة الرسل هو تقرير وحدانية الله تعالى، وتنزيهه عن الشركاء والأنداد، والأبناء والآباء، وصرف وجوه

العباد له وحده في العبادة والطاعة، والذكر والدعاء، والاستعانة والاستغاثة، والتوكل والرجاء ونحو ذلك من كل ما لا يليق إلا به سبحانه وتعالى.

وقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى وأكده بطريقين:

الأول: الطريق الإجمالي.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فهذا تعميم على سبيل الحصر بأن كل رسول قد أوحي إليه أن الله تعالى متصف بالوحدانية: "لا إله إلا أنا" ومستحق للتوحيد من العبيد، "فاعبدون" أي افردوني بالعبادة، لأني متفرد بالألوهية. وقال تعالى في هذا المعنى أيضاً: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

والآية الكريمة تقرر: أن الله تعالى قد بعث في كل أمة رسولاً، وكان أول دعوة كل رسول في كل أمة: أن اعبدوا الله ولا تشركوا به الطواغيت.

والطواغيت كل ما يعبد من دون الله تعالى، وهو مشتق من الطغيان.

الثاني: الطريق التفصيلي:

وهو الذي يذكر فيه القرآن الرسل بأسمائهم، وكيف كان التوحيد هو رأس دعوتهم جميعاً ومن ذلك:

١- ما جاء في قصة نوح عليه السلام، وهو أول رسول من أولي العزم بعث إلى أهل الأرض، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

٢- وقال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥].

٣- ونفس الألفاظ قال تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]، [هود: ٦١].

٤- وهي هي التي جاءت على لسان شعيب عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥].

٥- أما إبراهيم عليه السلام فقد تحدث القرآن بتفصيل وافر عن دعوته إلى التوحيد، وبشتى الصيغ والأساليب، في المواقف المتعددة، وفي الأحوال المختلفة.

ولعل السر في توسيع حديث القرآن عن إبراهيم عليه السلام أنه أبو الأنبياء الذين جاءوا بعده صلى الله عليهم وسلم أجمعين، وكان اليهود، والنصارى، والعرب يعترفون بنبوته وأبوته لهم، بل ويعتزون بالانتساب إليه عليه السلام، ومن هنا توسع القرآن في الحديث عن إسلامه، ودعوته البليغة إلى التوحيد، ونبذ الشرك، وعن محاوراته المفحمة للمشركين وموقفه العملي الصارم من الأصنام: سخرية منها، وتحطيماً لها، وتبكيتاً لعبّادها، وبذلك تقوم الحجة على المتنسبين إليه من اليهود، والنصارى، ومشركي العرب الذين حرفوا جميعاً دين الحق، ووقعوا في ضروب من الوثنية الطامسة الدامسة، وبذلك تسقط دعواهم أنهم على دين إبراهيم كما قال تعالى رداً عليهم مجتمعين: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

ويقول تعالى عنه وعن المؤمنين معه:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وسيأتي الكثير من حديث القرآن عن دعوة إبراهيم عليه السلام إلى التوحيد الخالص.

٦- وعن موسى عليه السلام يقول تعالى له: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى • إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٣، ١٤]

٧- وعن عيسى عليه السلام يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]

٨- أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد بعث بالدعوة العالمية الشاملة، وبالتقرير الأوفى، وبالبيان الأعلى في شأن الدين كله عامة، والتوحيد منه خاصة، وقد أمده القرآن العظيم بأتم الحجج والبراهين، وسجل أقاويل الكفار، وردود الوحي عليها ، حتى تكون حجة الله بالغة باهرة إلى يوم الدين، وحتى لا تكون للناس على الله حجة بعد ختم النبوة لأن القرآن هو صوتها الممدود، ونداؤها الموصول، وفيه أكمل حديث عن التوحيد تقريراً وإثباتاً، ورداً على المشركين والملحدين، وإبطالاً للشرك وكل ضروب الوثنية والانحراف عن التوحيد.

ويكفي مثالاً لهذا ما أمره الله تعالى أن يقوله للناس في كلمات جامعة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ • اللَّهُ الصَّمَدُ • لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ • وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

[سورة الإخلاص]

فهذه السورة الكريمة على وجازتها جامعة لكل ما يليق بالله تعالى وحده من صفات الكمال: أحدية، واستغناء، وتتريها له عن الشركاء والأشباه، ثم هي مصححة لضلالات المشركين وأهل الكتاب في باب الاعتقاد.

إن الآية الأولى تثبت "الوحدانية" لله تعالى على أبلغ الوجوه، لأن لفظ "أحد" أكمل من الواحد كما قلنا، ولذلك لا يوصف به إلا الله تعالى، والآية الثانية: بيان لأسباب أحديته إذ أنه هو وحده السيد الكامل في جميع صفاته وأفعاله، وهو المقصود في جميع الحوائج، وهو الغني عن كل شيء، بل كل شيء محتاج إليه.

والآيتان الثالثة والرابعة تقرير لهذه الأسباب أيضاً، لأنه سبحانه متفرد عن الأصول والفروع، وما يلزمها من الصاحبة أُما أو زوجاً، ومتفرد عن الشبيه والمماثل وإن لم يكن أصلاً أو فرعاً.(١)

• الربوبية والألوهية وصلتهما بالتوحيد:

وقد تحدث القرآن الكريم طويلاً عن الربوبية والألوهية، وأبطل كل ادعاء لأحدهما من دون الله تعالى: وأثبت أنه لا رب ولا إله بحق إلا الله تعالى، وأوجب سبحانه وتعالى على عباده أن يفردوه بهما معاً في التوحيد.

والرب شرعاً يطلق على معان أجمعها:

أ- المربِّي الذي تعهد خلقه بالتنشئة والتربية، وقضاء الحاجات، على معنى أنه هو المتصف بكل صفات التأثير من: خلق، ورزق، وملك، وإحياء وإماتة، وتدبير، وهداية.. الخ.

ب- السيد المطاع النافذ الحكم.

والإله يطلق على معان أجمعها:

أ- المعبود الذي يستحق وحده أقصى غايات التذلل والخضوع من صلاة، وذكر، وحبّ وخوف وتوكل، ودعاء، ونذر، وقسم به سبحانه وتعالى.. الخ.

ب- المستعلي على عباده الخليق بالطاعة فيما أمر ونهى.

• وصفان لا يفترقان:

ومن هنا يتضح التلازم التام بين الربوبية والألوهية، وأنهما لا ينفصلان من حيث الحقيقة الشرعية، ومن حيث الوجود الواقعي لما يأتي:

أولاً: لأنهما وصفان لذات واحدة، لا يوجدان في غيرها، ولا يجتمعان في سواها، ولا يتحققان بمعناهما الصحيح إلا (لله) الواحد الأحد.

---

(١) انظر تفسير السورة في تفسير البيضاوي، والخازن، وأبي السعود.

ثانياً: لأنهما يجتمعان في معنى مشترك بينهما وهو المعنى: (ب) من كل منهما، وإن اختص كل منهما بمعنى خاص به كما رأينا في المعنى: (أ).

الوحدانية والتوحيد مجموع الأمرين:

ومن هنا يتضح أيضاً أن:

"الوحدانية" تعني اتصاف الله تعالى وحده بالربوبية والألوهية جميعاً. و"التوحيد" يعني وجوب إفراده سبحانه وتعالى بالأمرين جميعاً فلا يقال: "توحيد الربوبية" هو كذا، ولا يقال "توحيد الألوهية" وهو كذا، لأن التوحيد لا يقبل التجزئة أصلاً حتى يقوم أحد الجزئين مقام الآخر في الإطلاق، لذلك لا يصح أن يقام التوحيد المضاف لأحد الوصفين مقام الحقيقة الجامعة، ولا يصح أن يقال هذا من باب المجاز، لأن المجاز لا يصار إليه في حقائق الاعتقاد.

أما من حيث الحقيقة الشرعية: "فالتوحيد" هو أن يؤمن العبد بأن الله تعالى هو وحده "الرب" صاحب كل صفات التأثير والكمال، وأنه لذلك هو وحده "الإله" المستحق للعبادة والطاعة بلا شريك.

فإذا أقرّ العبد بأحدهما فقط لم يكن موحداً، وإنما يقال هو مقرّ أو معترف بأحدهما، ولكن لا يصح أن يسمى "موحداً" لأن التوحيد هو بمجموع الأمرين جميعاً.

ولهذا لم يطلق القرآن على الكفار أنهم "موحدون" توحيد الربوبية حين أقروا أن الله تعالى هو الخالق، المالك ، الرازق،[1] وإنما سماهم كفاراً، ومشركين،[2] لأنهم لم يأتوا بحقيقة التوحيد الجامعة، وإنما أقروا بوصف منها، والتوحيد لا يقبل التجزئة أصلاً، فمن أشرك في وصف فقد أشرك في الكل، لأنه لم يأت بحقيقة مسمى

---

(١) كما قال تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله﴾ [يونس: ٣١].

(٢) يقول تعالى بعد الآية السابقة ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ۰ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ [يونس: ٣٣، ٣٤].

"التوحيد" الشرعي الجامعة.

ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

استعمالات الوصفين:

و القرآن الكريم يورد هذين الوصفين على أربعة وجوه:

الوجه الأول: استعمال اللفظ في معناه الخاص به فقط.

مثال الربوبية: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. فالخلق من أخص معاني الربوبية لذلك وقع صلة للموصول الذي وصف به "الرب"، تحديداً للمعنى المراد بالرب هنا.

مثال الألوهية: ﴿لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]. فالإله هنا بمعنى المعبود، والمعنى لا معبود بحق سواي فخصني بالعبادة.

الوجه الثاني: استعمال كل لفظ منهما في معناه الخاص به مع جمعهما في مكان واحد.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]

أي هو "ربي" خالقي ومالكي ورازقي .. الخ. ﴿لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي المعبود الذي لا معبود سواه.

فكل لفظ أفاد معناه الخاص به، وجمع بينهما لبيان حقيقة التوحيد الجامعة للمعنيين جميعاً، لذلك جاءت آيات أخرى تبين المعنى المقصود عقب كل لفظ منهما مثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُون﴾ [غافر: ٦٢]

فالخلق متصل بمعنى "الرب"، واستنكار الانصراف عن عبادته متصل بمعنى

"الإله" الحق، وقد جاء المعنيان صراحة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وهو من النوع المعروف في البديع باللف والنشر المرتب، إذ الخلق عائد إلى معنى "الرب"، والأمر بالعبادة عائد إلى معنى "الإله" على الترتيب الواقع في صدر الآية الكريمة.

الوجه الثالث: استعمال اللفظين في المعنى المشترك بينهما هو "السيد المطاع"، ومثال ذلك:

أ- قال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

فسياق الآيات يدل على أن المراد (بالرب) هنا السيد المطاع في أمره ونهيه المفهوم من قوله تعالى قبلها ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً﴾ [الأنعام: ١٦١].

ب- و قال تعالى: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [التوبة: ٣١].

وربوبية الأحبار والرهبان هنا بمعنى طاعتهم طاعة مقدسة في أمور الحلال والحرام، ومعنى عبادة الإله الواحد في قوله: ﴿وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا﴾ أي ليطيعوا سيداً واحداً لهم، لأن المقام عن "الطاعة في التشريع" كما جاء في حديث عدي بن حاتم أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية، وكان عديّ قد تنصر في الجاهلية فقال: إنهم لم يعبدوهم،[1] فقال له النبي صلى الله عليه

(١) ظن عدي بن حاتم أن العبادة المذكورة في الآية الكريمة هي العبادة المخصوصة كالصلاة لهم، أو دعاؤهم... فبين له النبي صلى الله عليه وسلم نوع العبادة المقصودة.

وسلم : "بل إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم".[1]

الوجه الرابع: استعمال كل لفظ مكان الآخر.

وذلك لما قلنا من التلازم التام بينهما، فإذا ذُكر أحدهما دل على الآخر باعتبارهما وصفين منفردين لذات واحدة، ولا يليق أحدهما إلا بالله تعالى، فإذا ذكر "الرب" فهم منه أنه المستحق للعبادة والطاعة وحده، وإذا ذكر "الإله" فهم منه أنه الخالق الرازق المالك لأنه لا يكون "إلها" حقاً إلا بهذه الصفات.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠].

فالسؤال في أول الآية وقع عن أشياء تتصل بالخلق، والرزق، والقدرة، والتدبير وغيرها من صفات التأثير التي هي معنى لفظ "الرب" ، فكان المقام يقتضي سؤالهم في آخر الآية عن ذلك فيقال: (أرب مع الله؟) ولكن وقع السؤال بقوله: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ لأن اللفظين متلازمان لا فرق بينهما من حيث الواقع، وإن كان استعمال كلمة "إله" هنا قد جاء لحكمة عظيمة لأنه سألهم عن محل النزاع مباشرة والمعنى: أرب يخلق ويرزق مع الله فيستحق التأليه معه؟ ولما كان الخلق والرزق والتدبير ليس محل نزاع كثير، وإنما النزاع في عبادة غير الله، لذلك عاجلهم باستنكار اتخاذ آلهة مع الله تعالى.

والمثال الثاني قوله تعالى:

﴿اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

والمقام يقتضي أن يقول: اعبدوا الله إلهي وإلهكم، ولكن استعمل كلمة

(١) رواه الترمذي والطبري وغيرهما.

"الرب" مكان "الإله" للتلازم التام بين الكلمتين كما قلنا.

والحكمة هنا – والله أعلم – أن ذكر "الرب" فيه تصريح بعلة العبادة وهو ما يتضمنه الرب من معاني الخلق والرزق.. الخ، والمعنى اعبدوا الله الذي خلقكم ورزقكم وتولاكم في سائر أموركم.

● التوحيد عقيدة شاملة:

ومما تقدم يظهر جليا أن "التوحيد" الذي أمرنا الله تعالى به إنما هو عقيدة شاملة تستوجب يقين القلب ، وإسلام الوجه لله تعالى قولاً وعملاً ، وإفراده سبحانه وتعالى وحده بالعبادة كالصلاة، والدعاء، والنذر، والطواف، والذكر، والطاعة في شئون الحياة أي في تشريعات الحلال والحرام.

فالتوحيد ليس قضية كلامية، أو جدلية، وإنما هو التزام شامل بدين الله تعالى في كل نواحي الحياة الإنسانية.

لذلك قص علينا القرآن الكريم كيف جعل الرسل جميعاً على رأس دعوتهم اجتناب الطواغيت التي تعبد من دون الله، خاصة في أمر الشرائع والأحكام قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ولذلك جعل الرسل جميعاً مدخلهم إلى تغيير حياة أهل الجاهليات هو "التوحيد"، لأن التوحيد يعني رد الحكم والتشريع إلى الله تعالى، في العقائد والأخلاق، والعبادات والمعاملات ، فإذا فعل الناس ذلك سهل تغيير ما هم عليه من فساد وضلال.

يقول تعالى على لسان شعيب عليه السلام :

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤].

فالآية الكريمة ترتب على التوحيد وجوب الالتزام بشريعة الله في التجارة والتصرفات المالية.

ويقول صالح عليه السلام لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٠-١٥٢].

فقد رتب النهي عن طاعة أوامر الزعماء الضالين على تقوى الله، وطاعة الشرع الذي جاءهم به عليه السلام من عند الله.

ويقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [لأنعام: ١٥١].

فقد جعلت الآية الكريمة التوحيد (أو النهي عن الشرك) رأس الأمر فيما بعده من الأوامر والنواهي.

فتقرر إذاً اختصاص الله تعالى وحده بالطاعة في التشريع، كما اختص بالعبادة وحده، وهذا هو معنى التوحيد في شموله وسعة مدلوله.

يقول الدكتور/ محمد عبد الله دراز رحمه الله بعد كلام طويل عن سورة البقرة:

"... الخطوة الأولى: تقرير وحدة الخالق المعبود... الخطوة الثانية: تقرير وحدة الآمر المطاع... وهي ركن من عقيدة التوحيد في الإسلام ، فكما أن من أصل التوحيد ألا تتخذ في عبادتك إلهاً من دون الرحمن الذي بيده الخلق والرزق... كذلك من أصل التوحيد ألا تجعل لغيره حكما في سائر تصرفاتك، بل تعتقد ألا حكم إلاّ له، وأن بيده وحده الأمر والنهي، والحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله، ومن استحل حرامه، أو حرم حلاله فقد كفر..".[1]

(١) راجع هذا البحث القيم في كتاب النبأ العظيم ص٢١٧، وما بعدها.

سابعاً: أساليب القرآن في الحديث عن الوحدانية و التوحيد:

جاءت أساليب القرآن في هذا الباب على غاية التفنن والإبداع، تلطفا في استدعاء الناس إلى التوحيد، وتأليفا لقلوبهم، ولفتا لأسماعهم وأبصارهم، وإقامة للحجة عليهم بكل الأساليب ومن ذلك:

(١) أسلوب الخبر المجرد بياناً للحق وإعلاماً للخلق: كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ﴿وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣].

(٢) أسلوب الخبر المؤكد: والمؤكدات التي جاء بها القرآن في شأن الوحدانية و التوحيد كثيرة متنوعة ومنها:

أ - التأكيد بإنَّ.

ب- التأكيد باللام.

جـ- التأكيد بالقسم.

ومثالها جميعاً قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّات صَفًّا • فَالزَّاجِرَات زَجْرًا • فَالتَّالِيَات ذِكْرًا • إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ • رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: ١-٥]

د- التأكيد بأساليب القصر:

- كأسلوب النفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ﴾ [طه: ١٤].
- وأسلوب القصر بإنما ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]

وأسلوب القصر بالتقدم والتأخير: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فتقدم المفعول (إياك) أفاد قصر العبادة على الله تعالى وحده، واصل الجملة: (نعبدك).

• وأسلوب القصر بتعريف طرفي الجملة: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

فتعريف الخبر (ربي) أفاد أنه مقصور على المبتدأ، أي الربوبية مقصورة على الله تعالى.

(٣) **أسلوب الطلب**: كالاستفهام التقريري، أو الإنكاري، قال تعالى: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

ومن هذا النوع الطلبي فعل الأمر مثل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإن نظرت إلى أول الجملة كانت إنشائية طلبية لصدارة فعل الأمر (قل)، وإن نظرت إلى مضمون الجملة أو مقول القول كان خبرية، وفي الحالين هي إثبات للوحدانية، وأمر بالتوحيد على أبلغ الوجوه وأوفاها، ولذلك كانت السورة المصدرة بهذه الآية الكريمة تعدل ثلث القرآن كما جاء في الحديث الصحيح.

(٤) **أسلوب الأمثال**: وهو باب واسع في القرآن الكريم، يقصد به تقرير المعاني في نفس السامع، وتصويرها في صورة محسوسة ملموسة عن طريق التشبيه، أو الاستعارة أو غيرهما من أساليب البيان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ • إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ • وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾

[العنكبوت: ٤١-٤٣].

فقد ضرب الله تعالى مثلا للذين يستنصرون بآلهة غير الله، صورهم فيه بأنهم يستنصرون بأضعف شيء، وكأنهم العنكبوت في بيتها الهش الذي تمزقه الريح، وتقتحمه الحشرات ويعبث به الصبيان فلا يغني عن أهله شيئاً.

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

فهذان مثلان: للمشرك في تخبطه وحيرته، وللموحد في راحته وسلامته ولا يستويان أبداً، كما لا يستوي عبد مملوك يسومه سادته لسوء أخلاقهم سوء العذاب، وعبد مملوك لمالك واحد لطيف لا يشق عليه بكثرة الأوامر واختلاف المذاهب والمشارب.

(٥) أسلوب المحاورة: وهو الذي يورد فيه الحديث عن التوحيد من خلال حوار يجري بين طرفين أو أكثر، فيتقرر في النفس أكثر من الخبر المجرد.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا • إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤١، ٤٢].

فالآيات الكريمة لم تأت على طريقة الخبر المجرد، وإنما جاءت على سبيل المناقشة بين طرفين، وهي تورد حواراً بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه المشرك، فيسأل إبراهيم أباه: لم تعبد آلهة صماء عمياء لا تغني عنك شيئا؟.

وهو سؤال يبين حقيقة هذه الآلهة الباطلة، ويتضمن صفات الله الخليق وحده بالعبادة، فهو السميع البصير، الغني المغني عز وجل.

(٦) أسلوب القصة: وهو أسلوب من أوسع أساليب القرآن في التوحيد وغيره، وقد عني القرآن الكريم بهذا الأسلوب، وأكثر منه، لما للقصة من تأثير في النفوس، وسهولة في الحفظ، وانتشار وذيوع بين الناس، وأوضح مثال لذلك قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه وأصنامهم، وتحطيمه لها، وتقريره للتوحيد من خلال المشاهد المتتابعة التي جرت بينه وبين قومه، كما قص الله علينا ذلك في عديد من سور القرآن الكريم كالشعراء، والصافات، والأنبياء ومنها: أنه بعد أن حطم الأصنام سألوه عليه السلام فسخر منهم، وأحالهم إلى الأصنام فرجعوا إلى أنفسهم يتلاومون ثم كان ما قصه القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ • قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ • أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١- ٧٠].[١]

(١) القصة بتمامها في سورة الأنبياء: (٥١-٧٠)

وفي هذا تقرير للتوحيد بأبلغ أسلوب وأقواه، ونفي للشرك على أتم وجه وأوفاه، فضلاً عما فيه من تحقير للأصنام، وسخرية بالغة بعبادها، الذين ألغوا عقولهم، وخروا عليها صمًّا وعمياناً.

• الاستدلال القرآني:

اهتمام القرآن بإقامة الدليل:

الدليل هو: ما يتوصل به إلى معرفة صحة الشيء وصدقه، أو إثبات هذه الصحة بطريق من طرق الإثبات.

ولقد جاء القرآن الكريم يقرر مبادئ وتعاليم، ويقيم عليها دلائل صدقها وصحتها، ويحث الناس على طلب الدليل، وفهم البراهين.

وقد استوعب القرآن الكريم الاستدلال على صحة عقيدة الوحدانية ، وأنها الحق المبين، وأن كل شريك أو معبود مع الله تعالى هو كذب وافتراء، بل كلها أصنام وأوهام لا حق فيها، بل لا حقيقة لها في باب الألوهية كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى • وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى •أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى • تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى • إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ١٩- ٢٣].

والمعنى: أن هذه التي تسمونها آلهة ليس لها من حقيقة الألوهية أدنى نصيب، وإنما هي أسماء على غير حقائق كالغول، والعنقاء وغيرها من الأشياء المتوهمة، ولذلك يقول القرآن متحدياً المشركين.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [الرعد: ٣٣].

والمعنى: أن الله تعالى رقيب وعليم بكل شيء، وقد جعل له المشركون شركاء لا حقيقة لهم، وإنما عبدوها بظنون من القول، وأوهام من الفكر باطلة.

ويقول تعالى منددا بالمشركين الذين يعبدون الأوهام المطلقة، تحت هذه الأسماء المخترعة: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

لذلك لم يترك القرآن دليلاً يصلح لخطاب البشر إلا أورده على أتم الوجوه، حتى لنقول إنه لم يسق الدليل على صحة الوحدانية أو وجوب التوحيد فقط، وإنما أوجب على الناس أن يتدبروا هذه الأدلة، وأن يفهموها ويحصّلوها - ولو إجمالاً - حتى يكونوا على بينة في أعظم حقائق الوجود، وحتى يكون إيمانهم على غاية الاستقرار،ولذلك نوّع الأدلة في هذا تنويعاً عجيباً حتى تناسب جميع الناس على اختلاف مستوياتهم وعصورهم.

أنواع الأدلة القرآنية:

وسنتحدث عن ثلاثة أنواع منها على سبيل الإيجاز:

النوع الأول: الأدلة الحسية (أو الكونية):

وهو الذي يستخدم فيه القرآن الكريم الكائنات للتدليل على وجود الله تعالى ووحدانيته، وسعة قدرته وعظيم حكمته.

والقرآن الكريم يتخذ كل شيء في الكون دليلاً لذلك، خاصة وجود الكون من العدم، وانتظامه على قوانين مطردة، ونواميس محكمة، وقيامه على غاية التدبير، والتكامل بين أجزائه، والعناية بما فيه من عجائب الأشياء والأحياء.

وفي كل هذا يتجه القرآن الكريم إلى الإنسان مخاطباً قلبه وفكره، ومطالباً أن يتأمل بحسه هذه الموجودات، لينتقل من ملاحظتها في أوضاعها المختلفة إلى ما وراءها وليدرك من هذه المقدمات الحسية البدهية نتائجها القاطعة، فيعلم أن لهذا

الكون رباً موجداً، وإلها واحد، مطلق القدرة والإرادة، واسع العلم والحكمة، متفرد باستحقاق العبادة والطاعة.

وبذلك يدور الدليل بين السمع والبصر، والفكر والنظر، والمقدمات البدهية القريبة، والنتائج السهلة المسلمة.

وهذا النوع على سهولته ويسره هو أقوى أنواع الأدلة، وأقربها إلى القلوب والنفوس، وأعظمها في التأثير والإقناع، لدلالته على المطلوب بذاته ومن أقصر سبيل، بخلاف أدلة الفلاسفة والمتكلمين التي تدل على المطلوب دلالة ناقصة وتحتاج مقدماتها إلى برهنة واستدلال في الغالب، بل قد تحتاج النتائج نفسها إلى دليل آخر خارج عنها، مما يعقد الاستدلال، لطول مقدماته، وكثرة وسائطه، وصعوبة طرقه على أكثر الناس، وذلك كاستدلالهم بحدوث العالم على أن له محدثاً، ويستدلون على حدوث العالم، بتقسيمه إلى جواهر وأعراض، ثم يثبتون حدوث كل منها بمقدمات طويلة، وكل هذا ينتهي إلى أن للعالم محدثاً، وهذه نتيجة ناقصة لأنها لم توصلنا إلى من هو المحدث؟ وهذا يحتاج إلى دليل آخر لإثباته، خارج عن نطاق علومهم، وضروب منطقهم.

ولكن القرآن العظيم يطوي هذا الشتات، ويضع الإنسان أمام حقائق الكون مباشرة، ليوقن بنفسه أن الذي أبدع هذا الكون ونظمه إله واحد، هو الله رب العالمين، الذي صدّق المرسلين فيما بلغوه عنه جل شأنه.

ولذلك يحث سبحانه وتعالى عباده على النظر في الكون جملة: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

ويأمر سبحانه بالنظر في دقائق هذا الكون: ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

ويلفت حواسهم وقلوبهم إلى عجائب هذا الكون الكلية، والجزئية: ﴿ أَفَلَمْ

يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ • وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ • تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ • وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ • وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ٦-١٠].

والآيات في هذا النوع كثيرة جداً، ومن أراد المزيد فليقرأ عجائب هذا الاستدلال القرآني في سورة (الرحمن، الواقعة، الملك، المرسلات، النبأ، النازعات، عبس، الغاشية، الشمس) وغير ذلك في القرآن المجيد.

النوع الثاني: الأدلة النفسية (أو الداخلية):

وهي التي تعتمد في انتزاع الدليل على الوحدانية من داخل الإنسان لا من خارجه، ومن أعماق شعوره الداخلي، ووجدانه الباطني، لا من مدركات حواسه المعروفة.

وهذا الدليل بالغ الأهمية للإنسان، وفي قضية الإيمان بالذات، حتى يحاط به من خارجه ومن داخله جميعاً، فتمتلئ نفسه يقيناً لا يتسرب إليه ريب ولا قلق.

وكم من إنسان امتلأ عقله بالمعارف، والأرقام، وفنون الإحصاء، وامتلأت حواسه بعجائب هذا الكون ولكنه يمضي متبلد الإحساس بسبب تعطل وجدانه الداخلي كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]

ومن هنا اهتم القرآن العظيم ببيان هذا الدليل النفسي، وساق الآيات تذكيراً للناس بهذا الجانب الفذ الذي أهملوه وعطلوه، وطمروه تحت ركام من الشبهات والشهوات التي رانت على قلوبهم فأظلمتها وأماتتها.

يخبرنا الله تعالى أن المشركين الذين يعطلون التوحيد، ويشركون مع الله آلهة أخرى في كل شئون حياتهم، ويجادلون غاية الجدل دفاعاً وحمية عن أوثانهم، يخبرنا

الله تعالى أن هؤلاء يحملون في أعماق نفوسهم دليل الوحدانية، ويمضون صماً وعمياناً عنه في الرخاء، حتى إذا مستهم شدة جائحة انتفض الدليل في صدورهم حياً نابضاً، حين لا تغني الأصنام أو الأوهام، عن أصحابه شيئاً هم في أشد الحاجة إليه.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

ويسألهم القرآن سؤال تقرير عن حقيقة يعلمونها وإن كابروا فيها، ثم يكررها لهم زيادة في التقرير والتأكيد فيقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ • بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١].

وينتزع لهم القرآن من حياتهم صورة واقعة حية، تعتمد على هذا المعنى الذي تتجه فيه النفوس إلى مالك القوى والقدر اتجاه شعور وفطرة، وخضوع ودعاء، وتنسى ما عداه سبحانه حين تكتنفها الأخطار الماحقة: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

النوع الثالث: الأدلة العقلية:

وهي الأدلة التي تعتمد على عمليات نظرية فكرية، كترتيب المقدمات واستخراج نتائجها حسب ضوابط وقوانين وراء بداهة الحس ومشاعر النفس، وإن كان الإدراك في الجميع راجعاً إلى العقل، والأدلة العقلية أوسع مدى من أشكال المنطق اليوناني، وضروبه المنتجة، لذلك لم يتقيد القرآن العظيم بهذا النمط الفكري، وإنما جاء على نمط خاص في الاستدلال العقلي هو ضرب من إعجازه الذي تفرد به.

وقد استخرج العلماء منه أنواعاً كثيرة منها:

١- الدليل البدهي:

وهو الذي يقوم على استخدام الحقائق المشهورة، والبديهات المستقرة في إبتناء الدليل عليها، فيذعن الخصم للدليل إذعانا إن كان منصفاً.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

فحيث تقرر أن الولد لا يكون من غير أم، فقد بنى القرآن على هذه الحقيقة المسلمة دليل بطلان ما نسبوه إليه من الولد، لأنه ليس له صاحبة فمن أين يأتي الولد؟

والدليل كما نرى سهل واضح يشبه الدليل الحسي في كونه يدل على المطلوب مباشرة، ولا يحتاج إلى مقدمات تنظم على وجه مخصوص، ولا بد من دليل على النظري منها، وغير ذلك من التعقيدات التي تصرف الذهن عن المطلوب الأصلي بكثرة الوسائط، والاشتغال بالمقدمات، والاستدلال عليها ثم على نتائجها أحياناً كما بينا.

٢- دليل التمانع:

وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وتقرير هذا الدليل أن يقال: لو كان للعالم صانعان لكان تدبيرهما لا يجري على نظام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما.

وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته فحينئذ : إما إن تنفذ إرادتهما معا فيتناقض لاجتماع الضدين.

وإما ألا تنفذ إرادتهما معاً فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزاً، فبطل ما أدى إليه وهو افتراض التعدد، وثبت نقيضه وهو الوحدانية.

٣- دليل التسليم:

وهو الذي يُسَلِّم فيه بوقوع المستحيل جدليا، ثم يُستدل على عدم فائدة هذا المحال على تقدير وقوعه، ومثاله قوله تعالى:

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ومعنى الآية الكريمة:

ليس معه تعالى من إله، ولو سُلِّم جدلاً أن معه إلها لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق، واستعلاء بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر، ولا ينفذ حكم، ولا تنتظم أحواله، والواقع المشاهد خلاف ذلك، ففرض إلهين فصاعداً محال لما يلزم عليه من المحال.[1]

٤- الشرك ظنون وأوهام (دليل التحدي):

وفي ختام هذا **الاستدلال على صحة التوحيد**، يبرز القرآن العظيم وجهاً آخر من وجوه الاستدلال، حين يطالب المشركين ويتحداهم أن يقيموا دليلاً واحداً - من أي نوع - على صحة عقيدتهم فلا يستطيعون، بل لا يملكون إلا التعلق بالظنون والأوهام، والاحتجاج بفعل آبائهم الذين قال عنهم القرآن: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ومن هذا التحدي الشامل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

أي أن الآلهة التي تعبدونها لم تخلق شيئاً في الكون، وليس عليها دليل من كتب الله المنزلة، ولا بقية من أثر علمي صحيح، وإن ادعيتم شيئاً من ذلك فأثبوته إن كنتم صادقين.

(١) راجع كتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (النوع الثامن والستين) (٢/ ١٣٦) وما بعدها، وفيه تفصيلات عديدة من هذه الأدلة.

ولما كانوا عاجزين على ذلك، بيّن القرآن الكريم حقيقة عقائدهم، وأنها بمجرد ظنون فاسدة قال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ويقول عن أصنامهم:

﴿إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

فالحمد لله الذي جاءنا بهذا الهدى، وعلمنا الحق الذي قامت على صحته أدلة الحس والنفس، والعقل والنقل، ليزداد الذين آمنوا إيماناً، وليكونوا على غاية اليقين بوحدانية رب العالمين، وبأن توحيده هو الحق المبين، والصراط المستقيم، وما الشرك والإلحاد إلا لوثات وضلالات عارية من كل دليل ، بل هي مضادة لكل فكر وعقل سليم.

أسئلة التقويم الذاتي

س١: عرف التوحيد لغة وشرعاً؟

س٢: اختر الإجابة أو الإجابات الصحيحة مما يلي:

(١) لم ينكر وجود الله تعالى في الأمم السابقة إلا صنفان.

أ - الدهريون. ب- المكابرون. ج- الفلاسفة.

(٢) يدخل في أنواع الأدلة القرآنية على وجود الله تعالى:

أ - الأدلة الحسية (الكونية).

ب- الأدلة النفسية (الداخلية).

ج- الأدلة الخيالية.

(٣) تتعدد صورة الأدلة العقلية على وجود الله تعالى وذلك في القرآن منها:

أ - الدليل البَدَهي. ب- دليل التمانع.

ج- دليل التسليم. د - دليل التحدي.

(٤) من أساليب القرآن في الحديث عن الوحدانية و التوحيد ؟

- أسلوب الخبر المجرد.

أ - أسلوب القصر. ب- أسلوب الأمثال.

س٣: أجب عن الأسئلة الآتية:

(١) ما معنى أن الوحدانية و التوحيد هما أصل الأصول جميعاً؟

(٢) تحدث القرآن عن التوحيد كأساس لدعوة الرسل تفصيلاً تكلم عن حديث القرآن عنه كأساس لدعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم؟

(٣) التوحيد عقيدة شاملة. اشرح ذلك بإيجاز؟

(٤) تكلم عن صلة الربوبية والألوهية بالتوحيد، وذلك باختصار؟

الموضوع الثاني

المعية في ضوء القرآن الكريم

أولا: المعنى اللغوي:

الْمعِيَّة - بتشديد الياء - نسبة إلى لفظ (مع)، وهو لفظ يقتضي الاجتماع إما في المكان نحو: هما معاً في الدار، أو في الزمان نحو: ولدا معا. وإما في الشرف والرتبة نحو: هما معا في العلو، ويقتضي معنى النصرة، وأن المضاف إليه لفظ هو المنصور نحو قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] أي ناصرنا.(١)

وقال الإمام اللغوي ابن هشام:

(مع): اسم بدليل التنوين في قولك: (معاً) ودخول الجار في حكاية سيبويه ذهبت مِنْ معه، وتسكين عينه لغة غَنْم وربيعة لا ضرورة.

وتستعمل مضافة فتكون ظرفا ولها حينئذ ثلاثة معان:

أحدها: موضع الاجتماع.

الثاني: زمانه.

الثالث: مرادفة (عند) وعليه حكاية سيبويه السابقة.

ومفردة: فتنون، وتكون حالاً (٢).. إلخ.

ويقول صاحب القاموس المحيط:

(مع): اسم قد يسكن وينون، أو حرف خفض، أو كلمة تضم الشيء إلى

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٤٧٠.

(٢) انظر كتاب مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (١/ ٣٣٣) بتصرف يسير.

الشيء، وأصلها معاً، أو هي للمصاحبة، وتكون بمعنى عند، وتقول: كنا معا، أي جميعا، والمَعْمَعِيّ الذي يكون مع من غَلَب.(١)

ثانيا: ورود (مع) في القرآن الكريم:

وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم إحدى وستين ومائة مرة في معظم سور القرآن الكريم.(٢)

و لم تستعمل هذه الكلمة في القرآن الكريم مفردة، بل وقعت مضافة دائماً، إما إلى اسم ظاهر،(٣) نحو ﴿وإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وإما إلى ضمير(٤) نحو: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

(والمعية) في القرآن الكريم تعطي معاني كثيرة متعددة: مدحاً أو ذماً. حقيقة أو مجازاً، عموماً أو خصوصاً على ما نبينه ۔ن شاء الله تعالى.

قال السيوطي رحمه الله: "وأصلها لمكان الاجتماع، أو وقته، نحو: {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ﴾ [يوسف: ٣٦]. ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ [يوسف: ١٢].

(١) القاموس المحيط للفيروزبادي (٣/ ٨٥) باب العين فصل الميم.

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (مع) ص٦٦٨ وما بعدها.

(٣) وردت مضافة إلى اسم ظاهر ٥٦ مرة.

(٤) وردت (مع) مضافة إلى الضمائر ١٠٥ مرة كالتالي.

- وردت مضافة إلى ضمير المفرد المخاطب (معك) ١١ مرة.

وإلى ضمير المخاطبين (معكم) ٢٧ مرة

وإلى ضمير الاثنين المخاطين (معكما) مرة واحدة.

وإلى ضمير المتكلم المجموع (معنا) ٦ مرات.

وإلى ضمير المتكلم المفرد (معي) ١١ مرة.

وإلى ضمير المفرد الغائب (معه) ٣٤ مرة.

وإلى ضمير المفردة الغائبة (معها) مرة واحد . راجع المعجم المفهرس .

وقد يراد بها مجرد الاجتماع والاشتراك من غير ملاحظة المكان والزمان، نحو: ﴿وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] ﴿وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

أما نحو: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ [المائدة: ١٢]. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] فالمراد به العلم والحفظ والمعونة مجازاً.[1]

ثالثا: الأنواع الجامعة (للمعية) في القرآن الكريم

وحين نتأمل الآيات الكريمة التي ورد فيها لفظ (مع)، ونردُّ الأشباه والنظائر إلى أصول جامعة، نجدها تتلخص إجمالاً في الأنواع التالية:

النوع الأول: معيّة الله تعالى لعباده.

النوع الثاني: معية العباد لله تعالى.

النوع الثالث: معيّة الناس لما حولهم من الأحياء والأشياء.

وسنتحدث عن كل منها تفصيلاً على الترتيب السابق إن شاء الله تعالى:

النوع الأول: معية الله تعالى لعباده:

وقد وردت في مواضع كثيرة من القرآن الكريم وبصيغ شتى، مضافة إلى الاسم الظاهر نحو: ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]. ومضافة للضمائر بأنواعها نحو: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

ولفظ (المعية) معناه الاجتماع والصحبة كما علمنا، وهو إذا أسند إلى الله تعالى احتمل - من حيث هو - (**معية الذات**) و(**معية الصفات**)، **أي هو معكم** بذاته، أو هو معكم بصفاته.

---

(١) الإتقـــان في علوم القرآن (النوع الأربعون في معرفة الأدوات التي يحتاج إليها المفسر) لفظ (مع) من حرف الميم (١/ ١٧٦).

ولكن العلماء سلفا وخلفا مجمعون على أن (معية الذات) هنا غير مرادة، وإنما المراد معيته تعالى لعباده بصفاته اللائقة بمعنى المعية، كالعلم والحفظ والنصر ونحوها.[1]

ومعية الله تعالى لعباده على ما ورد في القرآن قسمان:

القسم الأول: (المعية العامة) للخلق جميعاً: والمراد بها معية العلم، والرزق، والتدبير، ونحو ذلك مما يليق به تعالى؛ ويصلح للخلق عامة، ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

أي معهم بعلمه وسلطانه وقدرته سبحانه وتعالى.[2]

القسم الثاني: (المعية الخاصة) : ولا تكون إلا للمؤمنين الصادقين من عباد الله تعالى ومعناها حينئذ النصرة، أو التأييد، أو الرعاية والرحمة والعناية، أو الحفظ، والمعونة، أو إجزال الثواب ورفع الدرجات، أو تكفير السيئات ونحو ذلك من المعاني التي لا تليق إلا بعباد الله المؤمنين.

وهذا الضرب يضاف في القرآن للمؤمنين بصيغ شتى:

١- فيضاف للملائكة ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢].

والمعنى (معكم) بحفظي وتأييدي ومعونتي.

٢- ويضاف إلى الأنبياء عليهم السلام ﴿لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

والمعنى: (معكما) بحفظي ورعايتي ونصرتي، والمخاطب بها موسى وهارون عليهما السلام.

(١) راجع في هذا كتاب الأسماء والصفات للبيهقي ص٤٣٠ وكتاب مناهل العرفان للزرقاني (٢/ ١٨٢).

(٢) انظر ما نقله البيهقي في الأسماء والصفات عن سفيان الثوري، ومقاتل بن حيان وغيرهما من علماء السلف ص٤٣٠ وما بعدها.

٣- ويضاف إلى المؤمنين بأوصافهم المحمودة كالإحسان، والتقوى، والصبر مثل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِين﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ المتقين﴾ [البقرة: ١٥٣/ ١٩٤].

والمراد معهم بالتأييد، والرعاية، وحسن الجزاء والتوفيق.

٤- وقد يضاف إلى ذوات معينة بالشروط التي تجعلهم مؤمنين مستحقين لهذه المعية الإلهية العظيمة، ومنه قوله تعالى خطاباً لبني إسرائيل: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢].

أي: أن رعاية الله تعالى ونصرته لهم مشروطة بإقامة الصلاة وما بعدها من الشروط.

قال ابن رجب رحمه الله: "من حفظ حدود الله تعالى، وراعى حقوقه وجد الله معه في كل أحواله حيث توجه، يحوطه، وينصره، ويحفظه، ويوفقه، ويسدده: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

قال قتادة: من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل.

فهذه المعية الخاصة تقتضي النصر، والتأييد، والحفظ، والإعانة، بخلاف المعية العامة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا﴾ فإنها تقتضي علمه واطلاعه ومراقبته لأعمالهم، فهي مقتضية لتخويف العباد منه".(١)

صور من المعية الخاصة في القرآن:

والقرآن العظيم يبين لنا أن هذه "المعية الإلهية الخاصة" تكون في أخص أحوالها وفي أجل جلالها، حين تتعلق برسول كريم من رسل الله، في مواقف الخطر أو مواطن الشدة والفزع.

---

(١) انظر كتاب: جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص١٢٨.

فحين أحيط بموسى عليه السلام وصار البحر أمامه، والعدو وراءه، والهلع يغشى قومه تجلت له المعية الإلهية المنقذة قال تعالى:

﴿فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ • قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ • فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ • وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٦].

وحين أحيط برسول الله صلى الله عليه وسلم وبكى أبو بكر صاحبه في الغار وقال: لو نظر الكفار تحت أقدامهم لرأونا، حينئذ استعصم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعية الإلهية المنقذة فكان ما قاله الله تعالى:

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

والقرآن الكريم يرتب - في الموضعين - معونة الله (بالفاء) بعد ذكر المعية مباشرة فيقول: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيه﴾ ويقول: ﴿فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ وهذا إيذان بسرعة حياطته وحفظه سبحانه وتعالى لعباده المرسلين، حين يلوذون بسلطانه ويعتصمون بمعيته، وفي هذه بشرى للمتقين، وذكرى للمؤمنين العابدين، وإن الله على نصرهم لقدير.

النوع الثاني: معية العباد لله تعالى:

وقد وردت في القرآن الكريم على وجه وقصد واحد هو **إبطال الشرك** والشركاء، ومنع أي لون من ألوان هذه المعية الشركية لله تعالى.

وقد جاءت كلمة (مع) مضافة إلى لفظ الجلالة (الله)[1] ثماني عشرة مرة في القرآن الكريم، وكلها تستنكر اتخاذ (إله مع الله) تعالى بأساليب متعددة منها:

١- أسلوب النفي الصريح:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

و قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

٢- أسلوب النهي الصريح:

قال تعالى: ﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ اللَّهِ إِلَـهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾ [الإسراء: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

٣- أسلوب الاستفهام الإنكاري:

قال تعالى: بعد أن عدد نعمه الباهرة على عباده في السموات والأرض:

﴿أإله مع الله [النمل: ٦٠-٦٤].

وقال تعالى: ﴿قل أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الأنعام: ١٩].

٤- أسلوب الخبر التهديدي:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلـهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:٩٦].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٦].

(١) أو الضمير العائد إلى لفظ الجلالة كما هو واضح من الأمثلة القرآنية.

ومضمون هذا النوع من الأخبار هو النهي الجازم عن الفعل الذي ورد عليه التهديد والإنذار والاستنكار.

٥- أسلوب الشرط:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٢].

والمعنى: لو كان مع الله تعالى آلهة أخرى كما يزعم المشركون، لترتب على ذلك أن تطلب هذه الآلهة طريقاً إلى الله تعالى بالمغالبة والقهر، ليستولوا على ملكه كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض[1] ولا وجود لهذه المغالبة إطلاقاً بالمشاهدة، فبطل ما أدى إليها وهو افتراض التعدد، وثبت نقيضه وهو الوحدانية، فوجب التوحيد.

والخلاصة:

أن القرآن الكريم يمنع منعاً جازماً أي معية من العباد لله تعالى، لذلك تفنن في أساليب هذا المنع وأكثر منها، حتى لا يدع شائبة شك أو شرك في قلوب الناس.

ذلك لأن (المعية) معناها - كما قلنا - الاجتماع، والاشتراك، والمصاحبة، فإذا استعملت في جانب العباد مع الله كانت موهمة - ولو بأدنى شيء - للشركة مع الله عز وجل بوجه من الوجوه المحتملة.

ولهذا لم يرد في القرآن الكريم استعمال هذا الأسلوب مثبتاً قط، حماية لجانب الوحدانية، وتأكيدا لوجوب التوحيد، وسدًّا لذرائع الشرك ولو كانت واهية.

(١) هذا المعنى هو الذي رجحه الإمامان البغوي والخازن في تفسيريهما، وهناك معنى آخر هو أن هذه الآلهة لو وجدت لتقربت إلى ربها ذي العرش، وكلا المعنيين مبطل للشرك، مثبت للوحدانية، موجب للتوحيد.

وفي هذا دليل بالغ على إعجاز القرآن الكريم، وحكمته البالغة في اختيار الألفاظ والأساليب التي تؤدي المعاني المطلوبة، على غاية من السلامة والاستقامة.

ومن هنا ينشأ سؤال:

هل يجوز أن يؤتى في غير القرآن بمثل هذا الأسلوب فيقال مثلاً:

"كن مع الله يكن معك"؟

والجواب:

أن هذا أسلوب لم يرد في القرآن الكريم كما قلنا، فالأولى عدم استعماله موافقة للقرآن من جهة، وتحقيقاً لمقصده وحكمته التي ذكرناها، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

لكن هذا الأسلوب، من ناحية المعنى صحيح على تقدير:

كن مع الله تعالى بالانقياد والطاعة، يكن معك بالتوفيق والمغفرة والتأييد ونحو ذلك، ولهذا المعنى نظائر كثيرة في الكتاب والسنة مثل:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. **﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾** [محمد: ٧].

"احْفَظ الله يَحفَظْك"(١)، وفي رواية: "تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة".

وكل هذه الألفاظ متقاربة المعنى والغاية، وتثبت ما قلناه من صحة المعنى، ولا يترتب عليها ما لحظ في منع استعمال المعية، والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

النوع الثالث: معية الناس لما حولهم من الأحياء والأشياء:

وهي تنقسم بحسب مراتبها وأطرافها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: معية الناس لغيرهم من الخلائق.

وهي قليلة الورود في القرآن الكريم بلفظ (مع) ومنها قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

والمراد مصاحبتها له في التسبيح، والتعظيم لله تعالى، وهذا على سبيل الحقيقة ولا وجه لحمله على المجاز بلا ضرورة، لأنها (ذوات) مدركة.

ومن معية (المعاني) قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس: ١٩].

والمراد بالطائر هنا: العمل، أو سبب التطيّر وهو التشاؤم، لأن الكفار تطيروا برسلهم، فردّوا عليهم أن عملكم مصاحب لكم، وهو سبب ما أنتم فيه من بلاء الدنيا، وأصله أن الناس كانوا يعتقدون في حركة الطير الحقيقي تفاؤلا أو تشاؤما، ثم أطلق التطير على كل تشاؤم ولو من غير رؤية طيْر أصلا.

القسم الثاني: معية الناس بعضهم لبعض:

وقد وردت في القرآن الكريم بصيغ شتى على سبيل المدح أو الذم، وعلى طريق الإثبات أو النفي، والأمر أو النهي ونحو ذلك.

ومن أمثلتها قوله تعالى في المدح: ﴿فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

وفي الذم يقص كلام المنافقين لأئمة النفاق وهم اليهود فيقول: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ ﴾ [البقرة: ١٤].

ومن النهي قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: ١٤٠].

القسم الثالث: المعية بين الرسل والناس:

وهي وجهان:

الوجه الأول: معية الرسل للناس:

والأصل أن يكون الناس في معية الرسل عليهم السلام، لكن جاء القرآن الكريم بصيغ عديدة تجعل للرسل ضرباً من المعية مع غيرهم من الناس ومن ذلك:

١- معية التربص والانتظار:

وتكون في مواقف التحدي، ومواطن الخلاف بين الأمم ورسلهم قال تعالى على لسان هود عليه السلام :

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١].

وعلى لسان شعيب يقول تعالى:

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود: ٩٣].

ويأمر الله تعالى (محمداً) صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢]

والقرآن الكريم مستفيض بهذا النوع، والمراد بالمعية فيه مطلق المشاركة، في

الفعل: (التربص، أو الانتظار، أو الارتقاب، وكلها متقاربة) والمعنى: انتظروا وأنا شريك لكم في الانتظار حتى يفتح الله بيني الحق والباطل.

٢- معية الصبر والالتزام:

وتكون بحمل النفس على التزام جانب الضعفاء والمساكين من المؤمنين، الذين جرت سنة الله تعالى بأن يكون عامة أتباع الرسل منهم، وأن يكون نصر الله لدعوته على أيديهم.

ولذلك أمر الله الرسل أن يلزموا معية هؤلاء، وألا تخدعهم وعود المستكبرين المترفين. قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

٣- معية الصحبة والمخالطة:

كقول الخضر لموسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾

[الكهف: ٦٧، ٧٣، ٧٥].

والنفي واقع على الاستطاعة لا على المعية، لأن موسى صحب الخضر فعلا وخالطه ومشيا معا ليتعلم منه موسى عليه السلام، ولما لم يصبر على ما رأى من العجائب قال له العبد الصالح: (**هذا فراق بيني وبينك**) أي فراق المصاحبة والمخالطة.

٤- المعية الممنوعة المحرمة:

ولا تقع إلا بصيغة النهي، والمقصود بها مفارقة المبطلين ومفاصلتهم حتى يتميز الحق من المبطل، والخبيث من الطيب.

قال تعالى: ﴿فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَـذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]

والمراد النهي عن مشاركة الضالين، أو الاجتماع بهم في أحوالهم الباطلة، بل ينبغي مهاجرتهم، ومتاركة أماكن باطلهم، وعدم إعطائهم كلمة يحتجون بها لباطلهم، والمقصود تهييج نفس النبي صلى الله عليه وسلم ليظل دائماً متجدد النفور من الباطل وأهله، لا أن ذلك المنهي عنه قد وقع منه عليه السلام.(١)

الوجه الثاني: معية الناس للرسل عليهم السلام:

وهي على ضربين:

الضرب الأول: معية في غير أمور الدين:

قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ﴾

[يوسف: ٣٦].

أي شاركاه في زمان الدخول أو مكانه، لا أنهما كانا من أصحابه وأتباعه. وقال تعالى عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾

[الصافات: ١٠٢].

أي بلغ إسماعيل السعي مع أبيه، وهو المشي معه إلى الجبل كما قال ابن عباس رضى الله عنهما، أو بلغ أن يتصرف مع أبيه، ويعينه في عمله.(٢)

ولم يكن إسماعيل نبياً حينئذ كما هو معلوم.

---

(١) الراجح أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في الآيتين، وهو من باب التهييج والإلهاب أو تعليم لأمته، كما يقول المفسرون.

(٢) انظر تفسير الخازن والبغوي وغيرهما في تفسير هذه الآية الكريمة.

الضرب الثاني: المعية الدينية:

وهي التي تكون في شأن الرسالة والدين، والتي قامت عليها دعوة الرسل أجمعين، وكانت طريقهم المتفرد لتحقيق الحق في أرض الله، وإقامة حكمه بين عباده، ومقارعة الجاهليات وطواغيتها العتاة.

فالمراد بالمعية هنا:

إيمان الناس بالرسل عليهم السلام، وصحبتهم لهم، وانقيادهم لأمرهم. وقد استفاض القرآن العظيم استفاضة بالغة في الحديث عن هذه "المعية" بيانا لحقائق الدين، وتعليما للمؤمنين، وإلزاما للعاملين المجاهدين، وإرشاداً لمن يبحث عن الطريق الأقوم لنصرة دين الله تعالى على نهج المرسلين، وفق ما علموه من الوحي الإلهي الحكيم.

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل نوجزه فيما يأتي :

أولاً: الإسلام دين الله تعالى:

وقد شرعه تعالى للناس منذ خلقهم، وحين علّم آدم الأسماء كلها، وأمره ونهاه بما يناسب حياته يومئذ. ثم لما أهبط إلى الأرض زوده بمنهاج الهدي الإلهي، وحذره من عواقب مخالفته فقال تعالى: **﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى • وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾** [طه: ١٢٣، ١٢٤].

ثانياً: الجاهلية الطارئة:

ولما انتشرت ذرية آدم في الأرض، وتطاولت عليهم المدة، أخذت المعاصي تزحف عليهم، واختلفت عقائدهم وأخلاقهم، وضلوا في عبادتهم ومعاملاتهم التي جلاها لهم الوحي الإلهي، وقد عبر القرآن عن هذا الضلال بكلمته الجامعة:

(الجاهلية) وهي كل انحراف عن دين الله تعالى في الأصول أو الفروع من الأفراد أو المجتمعات.

(فالجاهلية) إذن هي وضع طارئ على الأصل السابق عليها وهو (الإسلام). والجاهلية هي وضع معتدٍ، جائر، مصادم للحق الأصيل الذي نزل به الوحي الإلهي من قديم.

ثالثاً: رسالات الله تعالى:

وحين تبلغ الجاهلية مداها، وتنحي الإسلام، وتحل مكانه في عامة شئون الحياة. حينئذ يتدارك الله تعالى عباده برحمته، فيرسل لهم رسولا هادياً، يدعو الناس إلى التوحيد، وإسلام الوجه لله رب العالمين، ونبذ ما هم عليه من أباطيل الجاهلية، والكفر بطواغيتها، الذين يشرعون للناس ما لم يأذن به الله.

رابعاً: الصراع بين الحق والباطل:

ولقد كان هؤلاء يقفون في وجه رسالات الله تعالى حَجَر عَثْرة، ويؤلبون الناس عليها ويصدون عن سبيل الله بكل سبيل، ويتذرعون بشتى الحيل، والحجج الباطلة، ليدحضوا بها الحق. وكان المال، والسلطان، وقيادة الناس، ومصالحهم، بأيدي هؤلاء الطواغيت الذين يقومون على تجمع وترابط ما، ابتداء من القبيلة، وانتهاء إلى الدول المنظمة، والممالك الواسعة، ذات الحكومات والجيوش، والشرط والأعوان.. الخ.

وكان على رسل الله عليهم السلام أن يقفوا أمام هذا كله، وأن يبلغوا رسالات ربهم، وأن يعملوا عملاً دائباً لرد الناس إلى دين الله تعالى، عبر صراع طويل ومرير مع طواغيت الجاهلية، وسادتها وكبرائها، أو "أكابر مجرميها" كما وصفهم القرآن الكريم [الأنعام: ١٢٣].

خامساً: الأمة الجديدة:

ومن هنا اتجه الرسل عليهم السلام إلى تكوين أمّة جديدة في قلب مجتمعات الجاهلية، تكُون تحت قيادة رسولها، أمة واحدة من دون الناس، متميزة بدينها، وولائها، ومعيتها، حتى يفتح الله بينهم وبين الجاهلية بالحق، فيعود الإسلام جديداً كما بدأ أول مرة، بعد أن كان غريباً مطارداً من الجاهلية الجهلاء وطواغيتها المترفين المفسدين.

ولذلك لم يقتصر الرسل عليهم السلام على دعوة الناس إلى الإيمان بهم فقط، وإنما سلكوهم معاً في أمة واحدة، وجعلوهم في معيتهم، وطالبوهم بالانقياد التام لما جاءوا به من عند الله، من خلال وجودهم في هذه الأمة الجديدة.

سادساً: صيغ جامعة:

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه العلاقة المترابطة بين المؤمنين ورسلهم بصيغ كثيرة مثل: الطاعة، والاستجابة، والنصرة.

ومن أجمع هذه الصيغ ما جعلناه عنواناً لهذا الموضوع أعني صيغة: "المعية" وصيغة: "التبعية" كما سنبينها في موضوعها إن شاء الله تعالى.

سابعاً: تفصيل القرآن لهذه المعية:

يورد القرآن العظيم لفظ "مع" بياناً لعلاقة المؤمنين برسلهم في مختلف العصور الجاهلية، والتي تتطلب "**أمة جديدة**" من المؤمنين، يناط بها مسئولية الجهاد الدائب لإقامة حكم الله في الأرض، وتنحية الجاهلية من الهيمنة على شئون الحياة، أو بعبارة أدق لإعادة الناس إلى الإسلام دينهم الأصلي الذي خلقوا عليه، ثم طمرته الأهواء والشهوات والضلالات.

وإيراد "المعية" بلفظها أو بمعناها في العديد من قصص الرسل تعني: تقرير أصل جامع في دعوة الإسلام وهو: وجوب إقامة هذه الأمة المترابطة، التي يتحقق من

خلالها إقامة دين الله، في أرض الله.

ذلك لأن العلاقة بين المؤمنين ورسلهم لم تكن بجرد رابطة الإيمان بدين واحد فقط، وإنما هي تجمع مترابط الأصول والفروع، والرأس والأعضاء، يُشدّ بعضه إلى بعض برباط الإيمان أولاً، ثم المعية والصحبة المستقرة ثانياً، مع ما يعنيه ذلك من انقياد وولاء، وتوحد في الوجهة والسلوك، والمواقف، والعمل لنصرة دين الله، وتنحية الجاهلية عن السيطرة والاستعلاء، ثم الاستمرار على ذلك حتى يأتي وعد الله الحق، أو يموت الرسول والمؤمنون وهم على محجّة الطريق، ونور اليقين.

وحين نتابع الآيات الكريمة التي قررت المعية مع الرسل عليهم السلام نجد أننا أمام موقف محدد، ومتحد، ومتكرر مع الرسل عليهم السلام ويتلخص في أن المؤمنين:

(١) أمة جديدة مترابطة.

(٢) تتبع قائداً وإماما.

(٣) ويحكمها منهاج رباني مبين (بمقاصده ووسائله).

والآيات الكريمة تتحدث عن هذه المعية بطريقين:

الأول: الطريق الإجمالي:

وهو الذي تذكر فيه (المعية) بلا تحديد لاسم نبي بعينه، فتعطي معنى العموم أو القاعدة المطردة مع الجميع، لأن ذلك خطة الرسل طوال التاريخ.

قال تعالى: **﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ﴾** [آل عمران: ١٤٦].

والمعنى: كم من نبي – أي كثير من الأنبياء – قاتل معه جموع كثيرة فصبرت على ما أصابها في سبيل الله تعالى، وثبتوا على ذلك.

فالآية الكريمة تثبت (معية) المؤمنين لأنبيائهم ليس في الصحبة العامة فقط، وإنما

في أبلغ شعبها، وهو الجهاد تحت قيادتهم، والصبر والثبات على ذلك بلا ضعف ولا استكانة.

وذكر الكثير من الأنبياء هنا لا يعني استثناء غيرهم من حكم المعية، لأن المراد هنا معية الجهاد والقتال، وليس كل نبي توفرت له الجماعة التي يقاتل بها أعداء الله، وليس كل نبي أمر بالقتال كعيسى عليه السلام الذي رفع قبل التمكين. الخ.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فالآية الكريمة تصف أتباع الرسول - أي رسول - **(بالإيمان والمعية)** أي (آمنوا معه)، وهي معية قامت وسط المحن والشدائد المتطاولة، ولم يرخص القرآن للمؤمنين في تركها أو تأجيلها، وإنما اعتبر (المعية) سنة الله الماضية المطردة، ولذلك دعا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إلى مثلها، وحثهم على الثبات في معية نبيه صلى الله عليه وسلم، مقررا أنهم سيصيبهم في هذه المعية ما أصاب إخوانهم المؤمنين من قبل.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٧].

والمعنى أن كل ظالم سيعض على يديه من شدة الندم يوم القيامة، لأنه فرط في (معية) الرسول،[1] وهذه المعية حقيقة مقررة حتى لدى الكفار لكثرة ما دعاهم الرسل إليها، ولأنهم رأوها تطبيقاً واقعاً في "جماعة" المؤمنين الذين عاصروهم، وشهدوا أحوالهم مع الرسول في زمانهم.

(١) ألفاظ الآية الكريمة عامة، والمراد (بالرسول) الجنس العام، وحتى لو أريد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي قيل إن الآية نزلت عليه وهو قصة عقبة بن أبي معيط..الخ. والراجح العموم ويدخل فيه محمد صلى الله عليه وسلم دخولاً أولياً.

الثاني: الطريق التفصيلي:

وهو الذي يتتبع القرآن الكريم فيه النبي باسمه، ويسجل معية المؤمنين له من خلال ذكر قصته مع قومه، أو من خلال حديثه عنه بوجه ما، وهذه أمثلة قرآنية متتابعة:

(١) معية نوح عليه السلام :

يكثر القرآن الكريم من ذكر معية المؤمنين لنوح عليه السلام، وفي هذا تقرير بليغ بأن قيام الجماعة المؤمنة هو أصل قديم في دعوة الأنبياء عليهم السلام، لأن نوحاً هو أول رسول إلى أهل الأرض (كما ثبت في الصحيح من حديث الشفاعة العظمى).(١)

قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

والآية الكريمة تثبت لأتباعه أمرين متلازمين شرعاً هما:

"الإيمان". "والمعية".(٢)

ولذلك لما اشتد الأمر وتطاول الكفر، دعا نوح ربه لنجاته هو ومن اتصف بالأمرين جميعاً:

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ۞ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨].

بل لما كانت "المعية" هنا تدل على الصحبة والإيمان السابق عليها، جعلها الله

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٠٦) كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى: "إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه".

(٢) التلازم بينهما حكم شرعي، وإلا فيمكن انفكاك الأمرين واقعاً، فيؤمنون به من غير معية له، ولذلك نص القرآن الكريم على الأمرين جميعاً، أو ينص على المعية فقط لأنها تستلزم سبق الإيمان عليها، خاصة في أوقات المحن التي لا يتصور معها نفاق والله أعلم.

سبحانه وتعالى سبباً في النجاة من الطوفان الرهيب واقتصر على ذكرها:

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩].

لقد كان نوح عليه السلام يصارع طواغيت الجاهلية في قومه، لذلك كان لا بد أن يتميز كل من آمن به عن "معية" الكفار بالدخول في "معية" نوح عليه السلام، فلم يستحقوا النجاة بسبب إيمانهم فقط، وإنما به وبمعيتهم لنبيهم عليه السلام في جماعة واحدة، متميزة منفصلة، يمكن أن تجمع على هيئة مستقلة عن قومها، فتكون "معه" في الفلك، كما كانت "معه" في الصراع الرهيب بين الحق والباطل.

وهذا المعنى قد قرره نوح عليه السلام صراحة لابنه حين فار الطوفان بموج كالجبال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

فها هنا جماعتان متمايزتان تماماً، كل منهما له "معية" مستقلة:

أ- نوح والمؤمنون معه: ﴿ارْكَب مَّعَنَا﴾

ب- طواغيت الجاهلية وأتباعهم: ﴿مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾

وقد هلك ابنه مع الهالكين لأنه رفض "معية" المؤمنين وإمامهم نوح عليه السلام (على القول بأن الولد كان مسلما) وهو ما رجحه المحققون والله أعلم، أو هلك لرفضه الأمرين جميعاً: الإيمان والمعية، (على القول بكفره).

٢- معية هود عليه السلام:

وقد جعل الله قومه خلفاء من بعد قوم نوح، وأمدهم بالقوة البدنية، والوفرة المادية، ولكنهم كفروا فجاء هود عليه السلام لنفس المهمة: أي ليعيد الناس إلى

الإسلام، وينحي الجاهلية عنهم.

لذلك كانت "معية" المؤمنين له فريضة، وضرورة قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨].

فالذين أنجاهم الله تعالى كانوا متصفين بالأمرين جميعاً: "**الإيمان، والمعية**".

وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [الأعراف: ٧٢].

وكما قلنا من قبل: إن إثبات المعية يدل على إثبات الإيمان، لأنه في عهود التأسيس والاضطهاد لا تكون معية مع الرسول إلا بعد إيمان راسخ مكين، إذ لا يتصور نفاق في هذه المراحل الغاصة بالأذى والفتنة.

٣- معية صالح عليه السلام:

وقومه خلفاء من بعد عاد قوم هود، وقد سار على سنة الأنبياء المتكررة في طلب "**الإيمان، والمعية**" أو إقامة الأمة الجديدة، والتي يقول فيها القرآن متحدثاً عن النتائج الدالة على مقدماتها:

﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٦٦].

بل كانت هذه المعية واضحة لقومه الكفار تماماً حتى قالوا له:

﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧].

٤- معية شعيب عليه السلام:

وعلى هذه الطريقة سار شعيب عليه السلام مع أهل مدين، لأنها طريقة الأنبياء جميعاً، رغم اختلاف الأزمنة والأمكنة.

ولقد انقسم قومه كشأن الأمم جميعاً، وكان واضحاً لديهم ما يدعو إليه شعيب عليه السلام ، وما يفعله من إنشاء أمة جديدة بين أظهرهم، حتى قالوا له ما

قصه القرآن الكريم:

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

فالمستكبرون من زعماء مدين يهددون شعيباً بالنفي هو وجماعته، وقد وصفوا هذه الجماعة بوصفها الجامع: "**الإيمان** ، **والمعية**" وجعلوا غاية هذا الصراع والوعيد: أن يعود شعيب وجماعته إلى ملة الكفر بعد إذ نجاهم الله منها ، وإلى معّية الكفار إذا أراد البقاء في قريتهم.

٥- معية إبراهيم عليه السلام:

وهو ثاني أولى العزم من الرسل عليهم جميعاً السلام، وقد بعث أيضاً في جاهلية مطبقة، وكان لا بد من صراع وصدام، وبالتالي لا بد من أمة جديدة تكون "مع" رسولها بإيمانها، وولائها، وصحبتها، وعملها ومصادمتها للكفار، وتميزها عنهم.

وهذا ما سجله القرآن الكريم بأبلغ بيان، وجعله نموذجاً، وأسوة للمؤمنين إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

والآية الكريمة تثبت "المعية" لإبراهيم عليه السلام، المستلزمة حصول الإيمان قبلها حتماً، والذي تجلى عملاً وتطبيقاً في مصادمة الكفر وأهله.

وبذلك تثبت الآية الكريمة أمراً ثالثاً لهذه الجماعة الجديدة بعد الإيمان والصحبة هو: "البراءة" من الكفار ولو كانوا قومهم، والبراءة من كل شرك ولو كان صميم العقائد في مجتمعهم، وترك المداهنة أو المجاملة إذا تعلق الأمر بالدين والاعتقاد، إذ لا بد من المصارحة ولو أدّت إلى العداوة بينهم وبين قومهم.

ولأمر حكيم صُدّرت الآية بندب المؤمنين إلى التأسي بهذه الصفات، والتي لا بد منها في مقارعة الجاهليات، ثم كرر القرآن لفت أنظار المؤمنين إلى هذه الأسوة العظيمة بعد آية واحدة فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦].

٦- معية موسى وهارون عليهما السلام:

وموسى هو ثالث أولي العزم من الرسل، وقد كرر القرآن الكريم ذكر "المعية" له ولأخيه هارون في مواطن عديدة:

فمنذ بداية الوحي جاء الأمر بهذه المعية من الله تعالى :

﴿فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ • أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦، ١٧].

﴿فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه: ٤٧].

ولذلك كانت هذه "المعية" في صدر مطالب موسى عليه السلام من فرعون: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

فالإرسال مقيد "بالمعية" في الآيات جميعاً، وليس مجرد إرسال مطلق يتحرر به بنو إسرائيل من بطش فرعون فقط، وإنما هو دخول في "معية" الجماعة المسلمة الجديدة، التي تتميز بها عن "معية" فرعون وقومه.

وقد دخل بنو إسرائيل في "معية" موسى وأخيه فعلاً، وأصبح هذا واضحاً في نظرة الكفار لهم. ﴿فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ﴾ [غافر: ٢٥].

فوصفوهم "بالإيمان والمعية " معا.

٧- معية داود وسليمان عليهما السلام:

كان داود وسليمان ملكين على بني إسرائيل مع النبوة، فلم تكن "معية" الناس لهم محل منازعة ومصادمة، ولم يكونا بحاجة إلى دعوة الناس إلى "معيتهم" بالمعنى الذي ذكرناه سابقاً.

ولذلك لم يرد في القرآن الكريم ذكر المعية لهما، لتقررها لهما فعلا بسبب الملك والسلطان اللذين منحهما الله تعالى.

ولكن أورد القرآن الكريم، ذكر "المعية" لهما في المواطن التي تقتضي ذلك، والتي يظن امتناعها عن معيتهما.

فالجبال والطير مما يمتنع في العادة أن تكون في معية أحد ما، وقد أثبت الله تعالى معيتهما لداود عليه السلام ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

وملكة سبأ كانت ذات قوة وجيش، وملك عريض، وبأس شديد، ودولة وافرة الغنى والسلطان، وهي وقومها كفار يعبدون الشمس، فكانوا مظنة امتناعهم عن معية سليمان عليه السلام حين دعاهم إلى الإسلام، ولكن القرآن الكريم يثبت له هذه المعية على لسان الملكة نفسها حين قالت:

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

٨- معية عيسى عليه السلام:

كان عليه السلام مبعوثاً إلى قومه من بني إسرائيل، مصدقاً لما بين يديه من التوراة، وداعيا إلى الالتزام، بأحكام دين موسى عليه السلام بعد ما حرفه بنو إسرائيل.

فلم يكن عليه السلام داعياً إلى إنشاء الإسلام في أمته كشأن نوح، وإبراهيم، وشعيب مثلاً، وإنما كان مصححا لما حرف وبدل من دين الإسلام الذي جاء به موسى عليه السلام.

ولعله لذلك - والله أعلم - لم يرد في القرآن ذكر المعية معه إلا على لسان الحواريين حين قالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

فهم يعلنون إيمانهم، وتبعيتهم[١] لعيسى عليه السلام، ويسألون الله أن يكتبهم في "معية" من يشهد بصدق عيسى، أو فاكتبنا في معية الأنبياء، وتدخل معيتهم لعيسى عليه السلام دخولاً أولياً. وفي كلٍّ دليل على حصول "المعية" له عليه السلام من بعض قومه، حين كذبه وكفر به الباقون، فصاروا بذلك كأهل الجاهليات السابقة مع أنبيائهم عليهم السلام.

٩- معية محمد صلى الله عليه وسلم:

وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم على غاية التأصيل والتفصيل، والتأكيد والشمول، لأن القرآن نزل مؤيداً له، ومعجزة دالة على صدق رسالته للناس، ولأن المقصود هداية الناس على يديه صلى الله عليه وسلم، وما ذكرت معية السابقين إلا توسلاً لإقامة الحجة على المعاصرين له صلى الله عليه وسلم، ثم من بعدهم إلى يوم القيامة، باعتباره خاتم النبيين وقدوة العاملين، والقرآن أحفظ سجل لها، وأنقى وأبقى وعاء يضمنها، ويجليها لطلاب الحق والهدى.

(١) سيأتي - إن شاء الله - بيان أن "التبعية" أبلغ من "المعية" في الدلالة على الانقياد، فإثباتها لعيسى عليه السلام إثبات للمعية من باب أولى، كما أن إثبات "المعية" هو دلالة على إثبات "الإيمان" على ما بينا مراراً، والله أعلم.

والآيات الكريمة تسجل له نوعين من المعية:

النوع الأول: المعية المطلقة:

وهي التي تكون في أمور الدين والرسالة جملة، حيث بعث عليه السلام في أعتى الجاهليات، وظل يجمع المؤمنين في "معيته" عليه السلام سنين متطاولة، وألف منهم أمة جديدة متميزة عن الجاهلية من حولهم في عقائدها، وأخلاقها، وولائها، وقيادتها في العهدين المكي والمدني جميعاً، حتى جاء وعد الله الحق، وقوض به وبمن معه من المؤمنين قواعد الجاهلية.

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ [الأنبياء: ٢٤].

والمراد استنكار اتخاذهم آلهة مع الله تعالى لا يملكون برهاناً عليها، فأمر صلى الله عليه وسلم أن يقول : هذا القرآن الذي هو ذكر أمتي ، وهذه الكتب التي كانت ذكراً لمن قبلي، كلها منكرة لاتخاذ آلهة مع الله تعالى، وموضع الاستدلال هنا قوله "من معي" هو إثبات "معية" المؤمنين له عليه السلام.

وهو نفس المعنى الذي أمره الله تعالى أن يقوله في مقام محاجة المشركين:
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨].

ويقول تعالى: ﴿لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [التوبة: ٨٨].

ويقول تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومن أجمع الآيات في هذا الباب قوله تعالى:
﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١٢].
وسنعود إن شاء الله إلى تفصيل عناصر هذه الآية الجامعة.

ومن العجب أن هذه المعية كانت مقررة واضحة لدى الكفار أنفسهم حتى قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧].

النوع الثاني: المعية الخاصة:

وهي معية المؤمنين له صلى الله عليه وسلم في أمر مخصوص من أمور الدعوة والرسالة، أو في حكم بعينه من أحكام الشريعة، أو في أمر جامع من أمور الحياة والدين.

وفي هذا وأمثاله نزلت آيات كثيرة تتحدث عن معية المؤمنين للنبي صلى الله عليه وسلم، وتثني على المؤمنين بسببها، أو ترشدهم إلى آداب هذه المعية العالية، أو تبشرهم بما ينتظرهم من ثواب الله عليها، ونحو ذلك مما فصله القرآن الكريم عن المعية المحمدية التي كانت يومئذ واقعاً معاشاً يدعى إليه الناس، وتوضح معالمه للمؤمنين تعليماً وتأديباً، ويجرد من شرفه المنافقون زجراً وتأنيباً.

ثم ينصب هذا كله للمؤمنين إلى يوم القيامة أسوة حسنة، أو عبرة رادعة.

ومن هذا النوع قوله تعالى في "معية الجهاد" بذاته:
﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦].
فالمقصود هنا معية الجهاد، وهي فرع الإيمان، وفرع المعية العامة المطلقة.
وقال تعالى في معية الهجرة:
﴿وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].
وقال عز شأنه في "معية الصلاة": ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢].
والآية الكريمة نزلت لبيان صلاة الخوف، فالمعية في خصوص حكم هذه

الصلاة، وهي أيضاً فرع الإيمان، والمعية العامة.

ومن أجمع الآيات في هذه المعية الخاصة قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

والمراد هنا: تعليم المؤمنين آداب "المعية" لرسولهم وقائدهم صلى الله عليه وسلم في شئونهم الهامة، وهو تعليم وتأديب للمؤمنين جميعاً في معيتهم لأئمة الخير منهم.

قال الإمام البغوي رحمه الله:

"(وإذا كانوا معه) أي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (على أمر جامع) يجمعهم من حرب حضرت، أو صلاة، أو جمعة، أو عيد، أو جماعة، أو تشاور في أمر نزل (لم يذهبوا) لم يتفرقوا عنه، ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر، (حتى يستأذنوه) قال المفسرون: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يراه فيعرف أنه إنما قام يستأذن فيأذن لمن شاء منهم، قال مجاهد: وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده، قال أهل العلم: وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلاّ بالإذن".[1]

وقال الخازن رحمه الله متمما هذا الكلام:

"(واستغفر لهم الله) أي إن رأيت لهم عذراً في الخروج عن الجماعة" لذلك لما تلاعب المنافقون بحقوق هذه المعية وآدابها، وتثاقلوا عن الخروج معه لقتال الروم في

(١) انظر تفسير البغوي في تفسير الآية الكريمة (٥/ ٧٥).

غزوة تبوك، وانتحلوا أعذاراً كاذبة، لما فعلوا ذلك جردهم القرآن شرف هذه "المعية" وأنزلهم منازل الدون التي اختاروها، وألزمهم "المعية" التي ارتضوها هم لأنفسهم فقال تعالى:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

وهذه المعية المنفية على وجه التأبيد والتأكيد هي معية الخروج للجهاد، والقتال في صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي "معية" خاصة كما هو واضح من النص، إذ ليس المراد نفي "المعية" العامة عن المنافقين، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأخذ ظواهرهم، ويدع بواطنهم، ولا يجردهم من ظاهر الإسلام الذي ادعوه، وصاروا "معه" فيه ولو بألسنتهم، وإلا لم يقبل منهم إلا ما يقبل من الكفار: الجزية أو القتال.

رابعاً: نتائج حديث القرآن عن المعية:

وإلى هنا يكون قد وضح لنا موقف القرآن الشامل من "المعية" بكل ألوانها وأبعادها، خاصة "معية" التكليف التي دعي الناس إليها ، وأمروا بها، وكانت خطة المرسلين في كل العصور، والتي تتلخص نتائجها فيما يأتي:

أولاً: لم يأت الرسل عليهم السلام بدعوات مجردة، يلقونها في الناس ثم يمضون إلى بيوتهم مطمئنين، وكأنهم قد أدوا كل ما عليهم من أمر الرسالة، والدعوة، والبلاغ.

وإنما الذي يقرره القرآن العظيم هنا أن الرسل عليهم السلام كانوا يجمعون الناس على أمرين: "**الإيمان، و المعية**"، ويجعلون من المؤمنين أمة واحدة، وجماعة جديدة، مترابطة الوجهة والحركة، ذات قيادة متميزة، وولاء متفرد، في مقابل

مجتمعات الجاهلية التي كان لها ترابط وقيادة.

ابتداء من المجتمعات القبلية، القوية المنظمة، كعاد، وثمود، ومدين، وقريش.

وانتهاء بالحكومات والممالك والدول الكبيرة مثل: النمرود وحكومته التي واجهها إبراهيم عليه السلام، ومثل: فرعون وهامان وقارون الذين واجههم موسى عليه السلام، بكل ما كانوا يمثلونه من استعلاء في الأرض، وطغيان بالمال والسلطان.

ثانياً: هذه الجماعة المؤمنة الجديدة تكون "مع" الرسول من أول الدعوة بلا نظر إلى عددها ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. وبلا انتظار لأمنها أو تمكينها، لأنها تنشأ دائماً في مواطن المحن ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ﴾

[البقرة: ٢١٤].

ولذلك كانت المعية التي قررها القرآن للرسل عليهم السلام هي معية لهم رغم في طور التأسيس، والخوف، والأذى، وأوضح مثال لذلك الآيات المكية التي تقرر معية المؤمنين لمحمد صلى الله عليه وسلم رغم الفتنة، والعذاب من طواغيت قريش.

ثالثاً: فصّل القرآن الكريم معية المؤمنين لمحمد صلى الله عليه وسلم، باعتباره خاتم الرسل حتى يكون تعليماً للمؤمنين إلى يوم القيامة، وإلزاماً لهم بالسير على نهجه ونهج إخوانه المرسلين من قبله، في الدعوة، والتجمع، والترابط، والتضام كلما استعلى الباطل في أرض الله، أو استعلى الضلال والإلحاد والفساد بين أهل الإسلام، حتى يتمكن المؤمنون من إزاحة الجاهلية المظلمة.

رابعاً: مهمة هذه الأمة الجديدة هي مقارعة الجاهلية، وإعادة الناس إلى الإسلام دينا وشرعة، ومنهاجاً.

وقد يأتي يوم تمكن فيه هذه الجماعة فتقيم دولة الإسلام كما حدث لمحمد

صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه، وكما حدث لنوح، وهود، وصالح، بعد إهلاك الله لكفارهم.

وقد ينتهي أجل الرسول و لم يمكن بعد لأصحابه في الأرض - لحكمة يعلمها الله - وهذا يجعل الجماعة المؤمنة مسئولة عن متابعة طريقه ومنهجه، ولا يحل لها أن ينفرط عقد تجمعها، بل تعمل لإقامة الدين الحق، أو تموت على نيتها الصالحة.

وقد قال الله تعالى للمسلمين يوم أن أشيع قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أُحد:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ثم يقول تعالى بعدها بآية واحدة:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وفي قراءة (قُتِل) معه ربيون كثير، وقال المفسرون: "قتل" النبي وكثير من أصحابه فما وهن الباقون.

وقد وعى المسلمون هذا الدرس بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، فتابعوا طريقه رغم الردة العارمة، ووقوف المسلمين يومئذ: (كالشاة في الليلة المطيرة)، كما قال ابن مسعود رضى الله عنه.

خامساً: قد يأتي الرسول حاكما في أمة مسلمة فتكون كلها هي معيته، يطبق عليها شريعة الله تعالى كداود، وسليمان عليهما السلام.

وعلى هذا النمط يكون خلفاء الرسل، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون رضى

الله عنهم أجمعين، فقد كانوا خير خلف لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت معيتهم هي الأمة جميعاً، بعد أن ثاب الناس إلى الإسلام عقب فتنة الردة.

سادساً: قيام "الجماعة المسلمة" التي تسعى لإقامة دين الله في الأرض هو فريضة لازمة، وأصل التزمه الرسل المذكورون جميعاً، كما رأينا في عهود التأسيس والتكوين، ولم يكتفوا بالإيمان المجرد، لأنه إيمان فردي، أو سلبي منعزل ومغلوب على أمره من الكفار!

وقد سجل القرآن الكريم أن عامة أصحاب الرسل كانوا من الضعفاء،[1] ولم يمنعهم ذلك من التجمع والترابط لإقامة الإسلام.

ولذلك ندد القرآن بالذين يقبلون الاستضعاف فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾

ولم يعذر إلا ذوي العجز الحقيقي:

﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ، فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

اللهم أحينا في معية المؤمنين الصادقين، واحشرنا في معية نبيك الكريم صلى الله

(١) يقول قوم نوح: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ سورة هود: ٢٧، ويقول تعالى عن قوم صالح: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ الأعراف: ٧٥.
وقال تعالى: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون﴾ يونس: ٨٣.
وقال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ الكهف: ٢٨.

عليه وسلم : ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[التحريم: ٨].

أسئلة التقويم الذاتي

س١: عرف المعية لغة؟

س٢: اذكر الأنواع الثلاثة للمعية في القرآن الكريم؟

س٣: اذكر صورة من صور المعية الخاصة لله تعالى لعباده في القرآن الكريم؟

س٤: اذكر ثلاثة من نتائج حديث القرآن عن المعية؟

س٥: ضع علامة (✓) أو علامة (×).

( ) معية العباد لله تعالى تحدث عنها القرآن بأساليب منها أسلوب النفي الصريح.

( ) معية الله تعالى لعباده جميعاً هي إحدى صور معية الله لعباده.

( ) "كن مع الله يكن الله معك" أسلوب لم يرد في القرآن ولكنه معنى صحيح.

( ) معية الناس بعضهم لبعض هي أحد أقسام معية الناس لما حولهم من الأحياء.

( ) معية الصحبة والمخالطة هي إحدى صور معية الرسل للناس.

( ) المعية في غير أمور الدين هي أحد ضروب معية الناس للرسل عليهم السلام.

( ) معية المؤمنين للرسل تحدث عنها القرآن تفصيلاً وإجمالاً.

( ) تمتد معية الله الخاصة لعباده لتشمل ذوات معينة غير الملائكة والرسل.

( ) إيراد لفظ (المعية) أو معناها في قصص الرسل تعني وجوب إقامة هذه الأمة المترابطة.

س٦: يقول تعالى: "ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون". ما نوع الأسلوب الوارد في الآية والذي يقرر معية العباد لله تعالى؟

س٧: يقول تعالى: "فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين" على أي صور المعية تدل الآية الكريمة فيما يتعلق بمعية الرسل للناس؟

الموضوع الثالث

التبعية في ضوء القرآن الكريم

أولاً: المعنى اللغوي:

التبعية مصدر صناعي من تبع - بكسر الباء- تَبَعًا، قال صاحب القاموس المحيط رحمه الله: "تبعه: كفرح تَبعاً وتباعه مشى خلفه، ومر به فمضى معه، وكفرحة".[1]

ويقول الجوهري رحمه الله: "والتبع يكون واحداً وجماعة وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾ [إبراهيم: ٢١]. ويجمع على أتباع".[2]

ويقول الراغب الأصفهاني رحمه الله: "يقال تبعه واتبعه قفا أثره. وذلك تارة بالارتسام والائتمار، وعلى ذلك

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٣٨] ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠] وتبّع كانوا رؤساء، سموا بذلك لاتباع بعضهم بعضاً في الرياسة والسياسة.[3]

ثانيا: ورود (تبع) في القرآن الكريم:

وقد ورد لفظ (التبع) وما تفرع منه في القرآن الكريم (مائة وثلاثا وسبعين مرة)، أغلبها في التبعية بالمعنى الذي ذكرناه وهو: اقتفاء الأثر، وانقياد الإنسان لغيره انقياداً تاماً، وقد جاءت في القرآن بهذا المعنى نحو (مائة وأربعين مرة)، والباقي في مطلق الاقتفاء والإدراك.

---

(١) القاموس المحيط، (٣/ ٨) (باب العين فصل التاء)، ومعنى كفرحة أي للمصدر يأتي على وزنها أيضاً فيقال: (تَبِعَة).

(٢) الصحاح (٣/ ١١٩٠).

(٣) المفردات في غريب القرآن مادة (تبع) ص٧٢.

ثالثا: أنواع التبعية في القرآن الكريم:

وقد تحدث القرآن الكريم حديثاً شاملاً مستفيضاً عن (التبعية) في أحوالها المختلفة، ومقاصدها المتعددة، وبالنظر والتأمل في آيات القرآن الكريم الواردة في هذا يمكننا أن نقسم التبعية إلى نوعين جامعين:

- النوع الأول: التبعية المحمودة:

وهي التي يكون الاتباع فيها لأمر الله تعالى، وكتبه، ورسله، والصالحين من عباده ولذلك أمر الله تعالى بها، وحث عليها، ومدح التابع والمتبوع من أهلها.

- النوع الثاني: التبعية المذمومة:

وهي التي يكون الاتباع فيها لغير الحق، كاتباع الهوى، والشيطان، ومناهج الجاهلية الضالة، أو الشرائع التي ابتدعها طواغيتها، أو تقاليد الآباء الضالين..الخ.

وهذا النوع قد ذمه القرآن ذماً بالغاً، وحرمه تحريماً، وتناول أصحابه بالتهديد والتنديد في كل موطن.

وقد جمع القرآن الكريم بين هذين النوعين في آيات كثيرة منها قولة تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾ [البقرة: ١٧٠].

﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء﴾ [الأعراف: ٣].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٩].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣].

رابعا: تفصيل القرآن وبيانه الشامل للتبعية:

والقرآن قد تناول كلا منهما بالتفصيل والبيان الشامل على ما نوجزه فيما يلي:

أولاً: موقف القرآن التفصيلي من التبعية المحمودة :

نوّع القرآن الكريم حديثه عن هذه التبعية، وفصل أنواعها، وعدّد أساليبه في طلبها والحث عليها بين الأمر بها، والثناء على أهلها، وبيان تفردها بالحقيقة والصحة ونحو ذلك، وتنحصر هذه التبعية في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: اتباع الوحي الإلهي:

وهذا واجب على الناس جميعاً، وعلى رأسهم الأنبياء عليهم السلام، لأنهم جميعاً عبيد الله، وأولاهم بالاتباع أعلمهم وأتقاهم.

وسواء كان هذا الاتباع لدين الله تعالى جملة كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

أو كان هذا الاتباع لشيء بعينه من وحي الله تعالى، كالكتب التي أنزلها:

﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوه﴾ [الأنعام: ١٥٥].

أو بعض الأحكام: كعزائم الدين، وفضائله العليا مثل العفو والإحسان قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وقد قرر القرآن الكريم أن هذا الوحي الإلهي هو وحده الخليق بالاتباع، لأنه هو وحده الحق، وما عداه باطل، وهو وحده الهدى وما عداه ضلال وظنون.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ

يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ • وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٥، ٣٦]

لذلك يعلن الرسل دائماً عجزهم عن الإتيان بهذا الحق من عند أنفسهم، وينسبونه صراحة إلى مصدره الأعلى، ويقرون تبعيتهم له قبل غيرهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

القسم الثاني: اتباع الرسل عليهم السلام:

معنى اتباع الرسل ودلالة التبعية لهم :

وهو اتباع مطلق، غير مشروط، ولا محدود، لأنهم كما قلنا متبعون لوحي الله، ومبلغون عن الله تعالى، وداعون إلى دينه القيم، لا ينطقون عن الهوى، ولا يتقوّلون على الله أدنى الأقاويل.

وقد وضحنا في "المعية" أنه لم يأت الرسل عليهم السلام إلا ليؤمن بهم الناس، ثم يكونوا في "معيتهم" وإلا قامت عليهم الحجة، وحقت عليهم كلمة العذاب.

ونقول هنا: إن هذه (**المعية**) لا تقبل إلا إذا كانت على وجه "التبعية" لهم، والانقياد التام لأمرهم وحكمهم، الذي هو في الحقيقة أمر الله تعالى الحكيم، وحكمه الكريم.

ذلك لأن المعية تعني الاجتماع والمشاركة، أو مطلق الصحبة، ولكنها لا تستلزم بذاتها التماثل أو التفاوت، فقد يكون الصاحبان ندّين، أو متفاوتين، وقد يتقدم أحدهما صاحبه في أمر دون آخر وهكذا.

ولكن (معية) الناس للرسل لا تحتمل التماثل، أو سبق أحد لرسل الله تعالى،

لأنهم صفوته من خلقه، وأمناؤه على وحيه، والمبلغون عنه سبحانه وتعالى، لذلك كان الرسل هم أئمة الناس، والمقدمين عليهم، وكل معية لهم هي معية التابع للمتبوع، والمتأخر للمتقدم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ١، ٢].

ومن هنا: جاء القرآن العظيم بالمعنى الجامع – حين يصف علاقة المؤمنين بالرسل عليهم السلام – وهو: "التبعية" التي تدل على ثلاثة أمور:

(١) الإيمان الذي هو المدخل والأساس.

(٢) الصحبة "المعية" التي هي فريضة وضرورة كما بينا سابقاً.

(٣) الانقياد التام في هذه الصحبة، حتى تكون معية مخصوصة، بالغة غاية الطاعة، والتوقير، والاقتداء برسل الله تعالى.

ولذلك سجل القرآن الكريم هذه التبعية لرسل الله في كل العصور والأقوام، وجعلها وصفاً ثابتاً للمؤمنين، مع كل دعوة جاء بها رسول كريم.

طريقة القرآن في تسجيل التبعية للرسل:

وقد سلك القرآن الكريم طريقين في تسجيل هذه التبعية كما فعل في تسجيل المعية عل ما بيناه من قبل.(١)

الأول: الطريق الإجمالي العام:

حيث يذكر التبعية لرسل الله تعالى على سبيل العموم والإطلاق، من غير تحديد لاسم الرسول، فتعطي بذلك معنى القاعدة المطردة في شأن الرسل جميعاً، من

---

(١) انظر صفحة ١٤٤ وما بعدها من هذا الكتاب.

ذُكر منهم، ومن لم يذكر، لأنهم جميعاً ملّة واحدة، وأمة واحدة، وطريقة ثابتة عبر التاريخ كله، في وجوب التبعية والانقياد لهم عليهم وعلى نبينا أتم الصلاة والسلام.

ومن أمثلة هذا قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

فالظالمون حين يرون عذاب القيامة يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليجيبوا دعوة الله التي رفضوها، ويحددون هذه الإجابة في إطارها الوحيد المقبول وهو "اتباع الرسل" لأنهم هم الدعاة إلى الله تعالى، والمبلغون عنه رسالاته.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه: ١٣٤].

والمعنى: أن الله تعالى لو أهلك الناس قبل الرسل لاحتجوا يوم القيامة بأنهم لو أرسل الله تعالى إليهم رسولاً لاتبعوا آيات الله التي جاء بها.

وهكذا نرى التلازم بين تعاليم الله وبين الرسل عليهم السلام، لأن حكمة الله تعالى اقتضت أن يبلغ تعاليمه للناس عن طريق الرسل، فكل تبعية لهم هي في الحقيقة تبعية لكلمات الله، وكل تبعية لدعوة الله هي من البدء تبعية للرسل عليهم السلام، لأنهم هم طريقها ومبلغوها للعالمين.

الثاني: الطريق التفصيلي:

وهو الذي تذكر فيه "التبعية" مقرونة باسم رسول بعينه، فتكون نموذجاً تطبيقياً للقاعدة العامة، وإثباتاً متكرراً لها من خلال قصص الأنبياء عليهم السلام، وهو القصص الحق الذي نصبه الله تعالى قدوة للمؤمنين وزاجراً للظالمين.

وهذه طريقة قرآنية معجزة، ولها أثر بالغ في الدعوة والتربية، لأنها تربط المبادئ العامة بتطبيقها العملي، وتثبت معانيها بالقصص التاريخي الوثيق، الذي

ترادفت عليه كلمة الرسل، دعوة وطريقة ومنهاجاً، وقد رأينا نماذج متكررة لذلك في (التوحيد)[1] و(المعية)[2] وبذلك ترسخ المبادئ، وتستقر في النفوس والقلوب والعقول.

وهذه أمثلة تفصيلية متتابعة:

(١) تبعية نوح عليه السلام :

يثبت القرآن الكريم (التبعية) لنوح عليه السلام على لسان الكفار أنفسهم، وهو تسجيل بأن الكفار كانوا يعلمون نوع العلاقة بين نوح والمؤمنين به، وأنها علاقة انقياد وطاعة تامة، ولذلك استكبر الكفار عنها ظلماً وعلوّا بغير الحق، وقد قال تعالى مسجلاً هذه القاعدة من خلال ردهم على رسولهم الكريم:

﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧].

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

ومن المقرر أن الإنسان لا يعيش في فراغ، فإذا لم يتّبع في الحق فلا بد أن يتبع في الباطل، وقد سجل نوح على قومه هذه التبعية الباطلة حين رفضوا اتّباعه في الحق.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

(٢) تبعية هود عليه السلام :

يقرر القرآن الكريم أن (عاداً) قوم (هود) استحقوا العذاب لأنهم عصوا الله ورسله ، ورفضوا تبعية الحق على حين اتبعوا أمر الجبابرة المعاندين مـن زعمائهم

---

(١) انظر ص ١٠٧ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ص ١٤٥ وما بعدها من هذا الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

(٣) تبعية صالح عليه السلام:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ • فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٣، ٢٤].

فقوم صالح يستنكرون ويستكبرون أن يكونوا أتباعاً لصالح عليه السلام، وهذا تقرير لمعرفتهم هذه الحقيقة البدهية، لأنها معنى الرسالة أولاً، ولأن الرسل دعوا قومهم إليها صراحة ثانياً . و لم يكن في هذا تفضيل ذاتي للرسل عليهم السلام، وإنما يطالبون الناس بالتبعية باعتبارهم مبلغين عن الله تعالى وحيه ودينه، كما بينا سابقاً، لذلك كانت ثمود مجادلة بالباطل حين زعمت أنه بشر مجرد، وإنما هو بشر يوحى إليه من الله، فالتبعية في حقيقتها هي لله رب العالمين.

(٤) تبعية شعيب عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠].

وهذا تسجيل أيضاً بأن الكفار كانوا يعرفون نوع الإيمان المطلوب منهم، وأنه يقتضي التبعية والانقياد فرفضوهما استكباراً وعناداً ، في الوقت الذي يتبعون فيه أمر زعمائهم الضالين، وهذه سمة متكررة في أهل الجاهليات جميعاً.

(٥) تبعية إبراهيم عليه السلام:

وفي هذا المقام أيضاً يمضي القرآن الكريم على طريقته في تفصيل تبعية إبراهيم عليه السلام توصلاً إلى إقامة الحجة على اليهود والنصارى ومشركي العرب، كما قلنا سابقاً.[1]

---

(١) انظر ١٠٧ وما بعدها. وصفحة ١٤٥ وما بعدها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ . رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

فهو عليه السلام يقسم الناس إلى فريقين:

أ- من تبعه فهو منه، وأولى الناس به، وله ولايته ومحبته.

ب- من عصاه فأمره إلى الله، وهو سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، إن إبراهيم عليه السلام هو رسول من عند الله، وليس مجرد أب لقبيل من الناس، ولذلك فنسبه الحقيقي هو دينه، وأولى الناس به في الدنيا والآخرة هم الذين اتبعوه في دينه وملته وفي ذلك يقول تعالى:

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

بل يقرر القرآن الكريم أمراً دقيقاً وجديراً بغاية التأمل حين قص علينا أنه عليه السلام طالب أباه ذاته أن يتبعه في دعوته.

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]

إن العادة الجارية أن يتبع الابن أباه، ولكن الابن هنا هو الرسول، والرسول ينبغي أن يطاع ويتبع بإطلاق، لأنه يوحى إليه، ﴿جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾، ولا كبير على أمر الله تعالى، ولا هداية إلا عن طريقه سبحانه، ولذلك كان الابن على غاية الحزم في دعوته لأبيه: (فاتبعني أهدك صراطاً سوياً).

بل أراد القرآن العظيم أن يلزم الناس جميعاً تبعية الحق الذي جاء به إبراهيم عليه السلام على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فواجههم بالأمر المباشر: ﴿قُلْ

صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

بل أمر محمداً صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم، مع أنه رسول يوحى إليه مثله، بل هو خاتم النبيين، وفي ذلك حجة على الناس أجمعين: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

(٦) تبعية موسى وهارون عليهما السلام:

يقرر الله تعالى التبعية لهما من أول الطريق فيقول: ﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

ويندد أشد التنديد بمن رفض هذه التبعية الصحيحة، ورضي بتبعية الطغيان الباطل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ • إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٦، ٩٧].

وحين سقط بنو إسرائيل في عبادة العجل طالبهم هارون بتبعيته في الحق والتوحيد: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠].

وحتى يتقرر أن تبعية الرسل إنما وجبت لهم باعتبارهم مبلغين عن الله تعالى، لا لذواتهم، حتى يتقرر ذلك أمر الله تعالى رسوليه: موسى وهارون بالاستقامة على أمره، ونهاهما عن اتباع سبيل غير سبيله سبحانه وتعالى فقال جل شأنه: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩].

(٧) تبعية عيسى عليه السلام:

يقرر القرآن الكريم تبعية أصحاب عيسى له على لسان الحواريين فيقول: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

ويسجل القرآن الكريم وعد الله تعالى لأتباعه: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ

﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

ويسجل أيضاً بعض نعم الله عليهم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

(٨) تبعية محمد صلى الله عليه وسلم:

يستفيض القرآن الكريم في بيان (تبعيته) عليه السلام، كما استفاض في بيان معيته للأسباب التي ذكرناها سابقاً.[١]

وهي أيضاً مثل أختها ضربان:

الضرب الأول: التبعية المطلقة:

وهي التي تكون في شأن الدين والرسالة جملة، لذلك يقررها القرآن الكريم له صلى الله عليه وسلم مطلقة، غير محددة، ولا مقيدة، ويكررها القرآن كثيراً في المكي والمدني منه حتى تستقر في نفوس أمته: (دعوة وإجابة) فتقوم بذلك الحجة على الكافرين، وتصل إلى ذروة اليقين عند المؤمنين ، فلا تكون محلاً لشبهة أو ارتياب.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقد ذكرت التبعية له صلى الله عليه وسلم مرتين في هذه الآية الكريمة: في أولها، وفي آخرها، دلالة على تأكد أمرها، وأنها أصل أصيل في علاقة الناس بالرسول عليه السلام.

---

(١) انظر ص ١٥٠ من هذا الكتاب.

وقال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]

وفي هذا تسجيل لنوعية العلاقة بين الرسول وأتباعه المؤمنين، وأنها علاقة مودة غامرة، ورأفة ورحمة.

وقال عز شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]

أي إن الله تعالى هو الكافي والناصر لك وللمؤمنين الذين اتبعوك، وفي هذا تسجيل برعاية الله تعالى للتابع والمتبوع جميعاً إذا كانا على الحق والهدى الذي كان عليه رسول الله وأصحابه.

ويقول تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠]. وفي هذا إيذان بأن المؤمنين أمة واحدة، يعرب الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه وعن أتباعه في مقام التوحيد، لأن المؤمنين جميعاً قد أسلموا وجوههم لله رب العالمين بمقتضى "الإيمان، والمعية، والتبعية" التي تدل دلالة صادقة على حب الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١].

أي إن ادعيتم محبة الله تعالى فاتباع الرسول هو دليل صدق هذه الدعوى، وإذا فعلتم ذلك أحبكم الله تعالى جزاء لكم على صدق محبتكم له تعالى، حين دعمتموها بدليلها العملي وهو التبعية للرسول عليه السلام، لا من حيث ذاته المجردة – ما قلنا- وإنما لأنه هو نفسه تابع لوحي الله تعالى، كما قال جل شأنه لرسوله قطعاً للجاجة الكفار: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

الضرب الثاني: التبعية الخاصة:

وهي التي تكون في أمر خاص من أمور الدين أو الدنيا، كما فصلنا ذلك في "المعية" والأمثلة على هذه التبعية الجزئية في القرآن الكريم كثيرة منها:

١- التبعية في تحويل القبلة إلى الكعبة:

فقد صلى المسلمون إلى بيت المقدس، ثم أمر الله تعالى بالصلاة إلى الكعبة المشرفة في مكة، فأرجف اليهود بهذا التحويل، وأثاروا حوله غباراً كثيفاً من الشبهات والجدل، فرد عليهم القرآن الكريم منددا بسفاهتهم، ومبيناً أن المشرق والمغرب لله يتفرد فيهما بالحكم والتشريع، وأن هذا التحويل اختبار تتقرر به مدى تبعية الرسول، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالمؤمنون الصادقون تحولوا إلى حيث أمروا، فكانت تبعيتهم راسخة وانقيادهم تماماً، وثقتهم بالوحي الإلهي مطلقة، حتى لقد تحول أهل قباء وهم في الصلاة إلى الكعبة، بمجرد أن أخبرهم أحد المسلمين بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزل عليه تحويل القبلة".[1]

أما المنافقون فقد استخفهم اليهود، فانقلبوا على أعقابهم معترضين ومتحيرين، لأن إيمانهم فاسد، وتبعيتهم للرسول معدومة في الحقيقة أو يغشاها الشك والريبة فلا تثبت أمام اختبار ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

٢- التبعية في الجهاد:

قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧].

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث البراء بن عازب، وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم أجمعين.

والآية الكريمة أبلغ شهادة وأزكاها للمهاجرين والأنصار رضى الله عنهم، لأنهم تبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحرج الأحوال، وفي غزوة تبوك التي سميت بغزوة العسرة، لما كان فيها من شدة الحر، وبعد الطريق، وجدب العيش، وقلة الثمار، وكثرة المنافقين والمرجفين، وضخامة العدو (الروم ومن والاهم من قبائل العرب).

أما المنافقون فيسجل عليهم القرآن التبعية النفعية، التي تفيض عند الطمع، وتغيض عند الفزع كما قال تعالى عنهم: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].

والمعنى : لو كانت غنيمة سهلة وسفراً قريباً لاتبعك المنافقون طمعاً وشراهة، ولكن بعدت عليهم المسافة، وخافوا العدو ذا العدد والعدّة، لذلك فروا من الاتباع، ثم لجأوا إلى الحلف الكاذب يبررون به موقفهم المخزي، بعد أن رجع النبي ومن اتبعه من المؤمنين سالمين غانمين.

مثالان جامعان عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه:

وضح مما سبق أن (المعية) و(التبعية) ليستا من القضايا الفرعية التي تتفاوت فيها الشرائع على ألسنة الرسل عليهم السلام، وإنما هما من المسائل الأصولية، لأنهما يعنيان "التجمع" لإقامة الدين، بواسطة الأمة المسلمة الجديدة، التي تقابل "تجمع" الجاهلية وطواغيتها، وقد قرر القرآن ذلك في الآية الجامعة عن الرسالة والرسل عليهم السلام قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فالأمر بإقامة الدين والنهي عن التفرق فيه موجهان لكل نبي وأتباعه تنفيذا

لوحي الله تعالى ومجاهدة للمشركين لتكون أمة في مواجهة أمة، وجهد عملي في مقابل جهود المشركين لمنع دعوة الله عز وجل.

وقد جاء القرآن الكريم على غاية التفصيل في الآيات المكية التي خوطب بها محمد صلى الله عليه وسلم - فضلا عن الآيات المدنية - لبيان أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن بدعاً من الرسل، بل إنه مضى على نهج أسلافه المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وليكن حجة على الناس إلى يوم القيامة.

ومع دلالة الآيات التي أوردنا بعضها في المعية أو التبعية فقد جاءت آيات كريمة جامعة لكل معاني المعية، ولكل معاني التبعية في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم وابتداء من العهد المكي قبل مرحلة الدولة ذاتها.

وسنورد هنا مثالين جامعين منها:

المثال الأول: عن المعية:

قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٢، ١١٣].

يأمر الله تعالى النبي ومن معه بالتزام شريعة الله تعالى على الوجه الصحيح الذي أمرهم الله تعالى به، قال عمر رضى الله عنه في تفسيرها: "أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ منه روغان الثعلب".(١)

والطغيان: مجاوزة الحد في كل شيء، والمعنى هنا لا تجاوزوا حدود ما أمرتم به أو نهيتم عنه، فلن "يشادّ الدين أحد إلى غلبه"(٢) بمعنى أنه متين قوي يغلب من

(١) انظر تفسير البغوي والخازن (٣/ ٢٠٩).

(٢) في حديث أبي هريرة: "إن الدين يسر ولا يشاد الدين أحد إلا غلبه" رواه البخاري والنسائي.

طغى وتجاوز حدوده".[1]

والركون: هو الميل، والمحبة، أي لا تميلوا أدنى الميل إلى الظالمين فتفرطوا في دينكم. أي أنهم نهوا عن الإفراط، والتفريط في دينهم.

وقد اشتملت الآية على أربعة أصول لا بد منها لتحقيق "إقامة الدين":

١- **"المنهاج"**: وهو المبادئ والتعاليم التي ينبغي التزامها والسير عليها، أعني دين الله وشريعته، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي: الصراط المستقيم الذي أمر الله تعالى به.

٢- **"الإمام"**: أو القائد الذي ينبغي أن يكون على رأس الدعاة والعاملين لدين الله، وهذا مأخوذ من المخاطب في قوله ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾.

٣- **"الجماعة"**: التي ينبغي أن تكون في صحبته، وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿**ومن تاب معك**﴾ أي آمن إيماناً مرتبطاً بمعيتك، ولذلك نص القرآن الكريم هنا على المعية إيذاناً بأنها أصل للرجوع من معية الكفار إلى معية المؤمنين، وعلى رأسهم إمامهم وقائدهم.

٤- **"الطريقة الصحيحة"** للاستقامة على أمر الله: دعوة، وتطبيقاً، وهي طريقة الاعتدال والتوسط التي لا غلو فيها ولا ترخص، أو لا إفراط فيها ولا تفريط، وهي طريقة الإسلام في كل شأنه، وقد عبر القرآن الكريم عنها بأساليب شتى.[2]

وهذا المعنى مأخوذ هنا من قوله تعالى: ﴿**ولا تطغوا**﴾، ﴿**ولا تركنوا**﴾ والآيتان

---

(١) في الحديث : "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى" وفي هذا بيان لمنع التجاوز، حتى في العبادة، رواه البزار عن جابر وروى أوله أحمد عن أنس.

(٢) من ذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقوله تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾ [الفرقان: ٦٧].

الكريمتان نزلتا في سورة هود المكية، والتي ذكرت التبعية في قصص الأنبياء اثنتى عشرة مرة.

ثم الآيتان الكريمتان مكيتان تلزمان المؤمنين (بالمعية) في العهد المكي رغم الفتنة والعذاب والبلاء، ولهذا دلالته البالغة في أن المعية هي أصل من الأصول، ترادفت عليه كلمة الرسل جميعاً، ودعا الله تعالى المؤمنين إلى التزامه في عهد التأسيس والتأصيل، و لم يأذن لهم في تأجيله إلى عهد الدولة والتمكين.

المثال الثاني: عن التبعية:

قال تعالى مخاطباً رسوله بصيغة الأمر أيضاً: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والآية الكريمة مكية أيضاً وفي سورة مكية وهي تتفق تماماً مع آيتي سورة هود في الاشتمال على الأصول الأربعة:

١- المنهاج: وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي﴾ أي "سنتي منهاجي".[١]

٢- الإمام: وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ .... أَنَاْ﴾ .

٣- الجماعة: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ والتبعية كما قلنا تدل على ثلاثة أمور: (الإيمان، والمعية، والانقياد التام) ولذلك قال ابن زيد رحمه الله: "حق على من اتبعه وآمن به أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكر بالقرآن".[٢]

٤- الطريقة الصحيحة: وهي قوله تعالى ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾.

أي على بصر بالأمور، ومعرفة للحلال والحرام، وتمييز بين الحد الوسط

---

(١) تفسير البغوي (٣/ ٢٦٢).

(٢) تفسير الخازن (٣/ ٢٦٢) المطبوع على هامشه البغوي.

وطرفيه الممنوعين (الإفراط والتفريط)، فمن كان على بصيرة في الدين تجنب الطغيان، والركون إلى الظالمين، ومقارفة الظلم والعصيان من باب أولى.

وبذلك يتجلى لنا بعض أسرار التفصيل القرآني في شأن محمد صلى الله عليه وسلم ومن كان معه، (واتبع) خطاه، لأن القرآن هو صوت النبوة الممدود إلى يوم الدين ، فجاء بالبيان الأوفى تعليماً للمؤمنين، وإلزاماً لهم حتى يسلكوا مسلك نبيهم صلى الله عليه وسلم.

وبذلك يكون الدليل أظهر وأوضح، والحجة أقطع وألزم، والقدوة أقوى وأقرب، والنقل أحق وأوثق: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

القسم الثالث:[1] اتباع الصالحين:

وهو اتباع مقيد بحدود الله تعالى وشرعه، لأنهم غير معصومين من الخطأ والذنوب، لذلك لم تذكر في القرآن تبعيتهم إلا مقيدة بقيد شرعي، بخلاف الرسل عليهم السلام الذين اصطفاهم ربهم وارتضاهم وعصمهم، ولذلك أطلق اتباعهم، والتأسي بهم، دون غيرهم من الصالحين.

ومن الأمثلة على ذلك:

(١) ما جاء في اتباع الآباء الصالحين:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

فقيد التابع والمتبوع بقيد الإيمان صراحة، وبقيد العمل الصالح المفهوم من السياق لأن الكلام في أهل الجنة.

(١) القسم الأول ص ٢٠١ والقسم الثاني ص ٢٠٢ ، وهذه الثلاثة هي أقسام التبعية المحمودة.

ولذلك أطلقت التبعية عن التقييد إذا كان الأب نبياً كما قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِـي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]

(٢) ما جاء في اتباع الدعاة العاملين:

قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨].

وتبعيته هنا مقيدة بقيد الإيمان، وبقيد الهداية إلى سبيل الرشاد، وهو الدين الحق الذي جاء به موسى عليه السلام.

(٣) ما جاء في اتباع أهل السبق بالخيرات:

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فالقيد في (المتبوع) هو السبق، وأولية الإيمان، والهجرة والنصرة وكلها أوصاف تجعلهم في ذروة الطاعة لله، ولرسوله، ولدينه الحق.

والقيد في (التابع) هو الإحسان، الذي هو غاية الإتقان في العبودية، ومراقبة الله تعالى وإنما جاء القيد في التابع أيضاً ليترتب عليه ما بعده من جزاء عظيم: (رضى الله عنهم..الخ).

ثانياً: موقف القرآن التفصيلي من التبعية المذمومة.[1]

تحدث القرآن العظيم حديثاً شاملاً عن هذه التبعية تحذيراً منها، واستنقاذا للناس من شرها، وأخذا بأيديهم إلى طريق الحق والهدى.

(١) مرت الفقرة أولاً ص ٢٠٠، ٢٠١.

وبتأمل الآيات الكثيرة في هذا نجدها تدور حول قسمين:

القسم الأول: اتباع الذات في الباطل:

وهي تبعة داخلية، تأتي من انقياد الإنسان لأهواء نفسه، وإيثاره شهواتها الدنيئة، والاستسلام لرغباتها الخسيسة ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ [يوسف: ٥٣]

ومن هذا اللون اتباع الظنون الفاسدة في العقائد خاصة شأن الجاهليات كلها، كقوله تعالى عن الأصنام وعبّادها: ﴿إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

واتباع "ما تهوى الأنفس" هو أثقل غشاوة يصاب بها الإنسان، ولا تزال تنحدر به في أودية الضلال حتى يجعل هذا الهوى إلهاً يعبده من دون الله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

كذلك لا مخرج للناس إذا غلبت عليهم الشهوات إلا هدى الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

والآية الكريمة تحذر من الذين يتبعون شهواتهم الدنيئة، ثم يخرجون على الناس بالخديعة فيصورونها لهم: مذهباً، وفلسفةً، وفكرةً، ويدعون إلى اعتناقها واتباعها، فتصبح الشهوات والنزوات عقيدةً ودعوة، يجادل عنها فريق من البشر، ويموت آخرون في سبيلها، وتسخر أمم وشعوب لنصرتها، وبذلك يميل البشر عن الطريق الصحيح ميلاً عظيماً، لا مخرج لهم منه إلا باتباع الهداية الربانية.

القسم الثاني: اتباع الإنسان غيره في الباطل:

وهي تبعية خارجية، يكون المتبوع فيها ذاتاً أخرى، تزين للناس الضلالة، وتحملهم عليها بالحيلة والخديعة تارة، أو بالعسف والطغيان تارة أخرى.

وقد ندد القرآن العظيم بكل ألوانها وصورها، وتتبعها بالتحذير والإبطال، وأنذر أهلها تابعين ومتبوعين، وأقام عليهم الحجة البالغة، ورد عليهم دعاوى السوء التي زوروها على ما نوجزه فيما يلي:

(أ) اتباع الشيطان:

وقد حذر القرآن طويلاً من عداوته للإنسان منذ خلق، وأنذر الذين يتبعونه بالخسارة والبوار في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

والمعنى: ادخلوا في الإسلام جميعاً، (أي جميع الناس، أو جميع شرائع الدين) ولا تتبعوا طريق الشيطان ومذاهبه بديلاً عن الإسلام، أو معه بعد اعتناقه، فإن الشيطان لعداوته لكم لا يأمركم بخير أبداً، كما قال تعالى صراحة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

(ب) اتباع الأسلاف والآباء:

وهو عقبة عاتية كانت تقف في وجه الرسل عليهم السلام، لأن الأمم اتخذتها وسيلة للتصلب والجمود، بحجة المحافظة على تراث الأولين، ويجعلون من مجرد التراث دليلاً على صحة ما هم عليه، ولو قامت على نقضه الحجج والبراهين، وقد قص القرآن موقعهم هذا في عبارات جامعة قالتها كل أمة لرسولها: ﴿وَكَذَلِكَ مَا

أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ • قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

والأمة هنا: بمعنى الطريقة التي تُؤَم وتتبع.

ولذلك أبطل القرآن العظيم أمر هذه التبعية إبطالاً، وندد بأهلها تابعين ومتبوعين تنديداً بالغاً، وكشف ضلالهم وجهلهم أجمعين.

وعلى حين يعتزون هم بهذه التبعية، يأتي القرآن موضحاً لهم الحقيقة في عبارات قارعة تصمهم بأنهم شر خلف لأحمق سلف، تواصلت بهم سلسلة الضلال عبر القرون: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ • فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ويورد القرآن الكريم هذه المعاني من خلال قصص الأنبياء عليهم السلام خاصة إبراهيم عليه السلام وهو يجابه عقيدة الجمود من قومه: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ • قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٣، ٥٤].

(جـ) اتباع الطواغيت من سادتهم وكبرائهم:

وقد بلغ القرآن الغاية في ذم هذا الجانب لأثره الفاحش على الأفراد والمجتمعات، ولنتائجه المريرة الخطيرة في صرف الناس عن دعوة الحق.

وهذا باب واسع جداً في القرآن الكريم، ولكننا نتناول منه ما جاء بلفظ (الاتباع) ونحوه مما يتصل ببحثنا.

وفي البداية نجد القرآن الكريم يسجل على الأمم في كل العصور أنهم بلغتهم

دعوة الرسل، وعلى وجهها الصحيح، وأنهم علموا تماماً ما دعوا إليه من تبعية الهدى الإلهي الذي جاءهم على ألسنة الرسل عليهم السلام.

ولكن الكفار دائماً كانوا يسلكون سبيل الغي والضلال، واتبعوا طواغيتهم ورؤساءهم الضالين، ولذلك جاء القرآن بالنهي القاطع عن تبعيتهم سواء كانت في: الشرائع والمذاهب التي يضعونها للناس، أو في الأوامر والنواهي الجائرة، القائمة على الطغيان، والتي اعتاد الناس أن يتبعوا فيها الطواغيت رغبا ورهبا مع علمهم بجورها وبطلانها، كحروب البغي والعدوان، وأوامر مصادرة أموال الناس واغتصابها، وفتنة المؤمنين وسفك دماء الناس أو جلد أبشارهم بغير الحق.

قال تعالى على لسان نوح: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧].

وفي الآيات الكريمة وأمثالها نجد أوصاف الذم والتنديد واضحة عقب ذكر المتبوعين من طواغيت الجاهلية، في عصور شتى.

خامسا: موقف الطواغيت من تبعية الرسل

وقد تحدث القرآن هنا طويلاً وبين موقف طواغيت الجاهليات من تبعية الرسل، وأنهم يستكبرون عليها ابتداء، وينفرون قومهم منها بكل الطرق والأساليب، ويحاولون خداع المؤمنين لصرفهم عنها، ويقيمون من أنفسهم حراساً على **"سبيل الجاهلية"** يدافعون عنه، ويشرعون لأهله المذاهب والشرائع، يعارضون بها **"سبيل الله تعالى"** ويقعدون بكل صراط يتوعدون ويقطعون هذا السبيل على المؤمنين حتى لا يقوم في الأرض جماعة مؤمنة على أساس الإسلام .

وقد جلى القرآن هذه الأمور وغيرها، حتى يحق الحق للناس فيتبعوه، ويبطل الباطل فيجتنبه الباحثون عن الهدى، وهذا إيجاز لبعض ما فصله القرآن الكريم:

(١) الاستكبار التام عن تبعية الرسل:

وكان هذا الاستكبار عقدة وحقداً في نفوسهم، حاولوا أن يظهروه للناس في أسلوب مخادع، فزعموا أن الرسل لا تكون من البشر، واستنكروا أن يهديهم رجل منهم، وكانوا جميعاً على ما قالته ثمود لنبيها صالح: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤].

والمعنى: أنهم لو اتبعوا الرسل لكانوا على غاية الخطأ والجنون، وهذا قلب للموضوع وعكس للحقائق، وجدل بالباطل المحض.

(٢) تنفير الناس من الرسول ذاته:

فجعلوا يصفون الرسول بالسحر، والجنون، والكهانة، وحب الاستعلاء والتفضل على الناس حتى يصرفوهم عن تبعيته: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

(٣) الظهور بمظهر الحريص على مصالح الأمة والقوم:

وهذه إحدى أكاذيب الطواغيت من قديم، ينصبون للناس هدفاً ما، قومياً أو وطنياً، أو اجتماعيا، أو دينيا، ويزعمون أنهم يعادون الرسل من أجل هذا، وبذلك يستثيرون حمية الناس ضد الرسل، ومن ذلك ما زعمه طواغيت العرب:

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧].[1] وقد رد عليهم القرآن بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

---

(١) هذا شبيه في المعنى بقول فرعون عن موسى عليه السلام ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ غافر: ٢٦.

(٤) خداع المؤمنين بالوعود الكاذبة:

فالكفار يعلمون أن المؤمنين قد اتخذوا سبيلاً جديداً غير سبيلهم، وأنهم ناقضوا الجاهلية في عقائدها وعوائدها الضالة، واتبعوا سبيل المرسلين، فقال الكفار للمؤمنين محاولين صرفهم عن الطريق الذي اتبعوه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢]. والمراد: اتّبعوا ديننا وملة آبائنا، وسنحمل عنكم كل التبعات.

(٥) وضع الشرائع والأحكام للناس:

وهذا أفحش وأخبث ما يصنعه طواغيت الجاهلية، حين يجعلون لأنفسهم سلطاناً في وضع المذاهب، والشرائع، والأحكام، ويخطون للناس "سبيلاً"، آخر غير سبيل الله، ثم يدعون الناس إلى اتباعه بالحيلة أو بالقوة.

وقد حذر القرآن الكريم من هذا السبيل الباطل:

أولاً: من حيث (وضعه) باعتباره افتراءً على الله تعالى صاحب الحق المطلق في الحكم والتشريع.

ثانياً: من حيث (اتّباعه) باعتباره تأليها لغير الله تعالى، وتفضيلا لحكم الجاهلية على حكمه جل شأنه.

قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٩].

والمراد بأهوائهم: آراء الجهال التابعة للشهوات، وهم رؤساء قريش قالوا له ارجع إلى دين آبائك، كما قال البيضاوي في تفسيره.

وقال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال تعالى مخاطباً المؤمنين جميعاً: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ثم ينذر سبحانه أصحاب التبعية الباطلة، ويحذرهم من سوء المصير: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والآية الكريمة صريحة في أن الرسول جاء بالهدى، وأقام عليه جماعة المؤمنين، واصبح سبيلهم واضحاً، من حيث المبادئ، ومن حيث الواقع العملي المتمثل في الجماعة المسلمة، ومن ثم فلا عذر لأحد في اتباع غير سبيل المؤمنين ، وإلا كان جزاؤه التخبط: "نوله ما تولى" والنار: و"نصله جهنم".

سادسا : جزاء التابع والمتبوع في القرآن :

(أ) جزاء التابع والمتبوع بالباطل :

عرض القرآن الكريم الجزاء الحق الذي يلقاه الطرفان:

في الدنيا: كان جزاؤهم البوار والخسار والدمار - كما قص الله علينا في قصص الأنبياء مع أممهم، وما هو من الظالمين ببعيد.

في الآخرة: أخبر القرآن أنهم تتقطع بينهم فيها الصلات، ويتنابذون بالعداوة والبغضاء، ولعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ كل من صاحبه، ويتخاصمون في النار حيث لا ينفع شيء قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ • قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

ويقول جل شأنه في نذير صارم للتابع والمتبوع: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ • وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا

كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

(ب) أما أتباع الحق والهدى فجزاؤهم من جنس العمل:

في الدنيا: توفيق من الله ورحمة، ومعونة ونصره، وسكينة وطمأنينة: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

في الآخرة: رضوان الله تعالى، وجنته، وفوزه العظيم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]

أسئلة التقويم الذاتي

س١: عرف التبعية لغة؟

س٢: اذكر نوعي التبعية في القرآن الكريم؟

س٣: تكلم القرآن الكريم إجمالاً عن التبعية للرسل، اشرح ذلك بإيجاز؟

س٤: يقول الله تعالى : ﴿فمن اتبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ على أي قسم من أقسام التبعية المحمودة تشير هذه الآية الكريمة ؟

س٥: الإيمان والصحبة والانقياد التام. تدل هذه الأمور الثلاثة على تبعية من لمن؟

س٦: سلك القرآن الطريق التفصيلي في الحديث عن تبعية الناس للرسل فإلى أي الأنبياء تشير هذه الآية: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾؟

س٧: أذكر مثالاً للتبعية الخاصة للرسول صلى الله عليه وسلم من جانب المؤمنين في أحد الأمور الخاصة المتعلقة بالدين أو الدنيا؟

س٨: الآية الكريمة، ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ اشتملت على أصول أربعة لا بد منها لتحقيق إقامة الدين، اذكر هذه الأصول والتدليل على كل أصل من الآية الكريمة؟

س٩: اذكر من القرآن الكريم آية تدل على اتباع الآباء الصالحين؟

س١٠: اتباع أهل السبق بالخيرات تدخل في أي قسم من أقسام التبعية المحمودة؟

س١١: اذكر أقسام التبعية المذمومة؟

س١٢: اتباع الشيطان وإتباع الأسلاف والآباء واتباع الطواغيت كلها صور تدخل ضمن أي قسم من أقسام التبعية المذمومة؟

الموضوع الرابع

العلم والعلماء في ضوء القرآن

أولاً: معنى العلم:

• العلم لغة: مصدر بمعنى الفهم، والمعرفة، وقال الراغب رحمه الله: "العلم: إدراك الشيء بحقيقته، وذلك ضربان:

أحدهما: إدراك ذات الشيء.

والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه، فالأول هو المتعدي إلى مفعول واحد نحو: ﴿لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:٦٠] والثاني المتعدي إلى مفعولين نحو: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠]."(١)

اصطلاحاً: تعرفه كل طائفة من العلماء بما يناسب تخصصها:

فأصحاب العلوم الشرعية يعرفونه بأنه: "معرفة الله تعالى، وما يليق به من صفات وأفعال، ومعرفة حلاله وحرامه".

وعرفه المتكلمون بأنه: "صفة تنكشف بها الأشياء لمن قامت به".

وعرفه الفلاسفة بأنه: "صورة الشيء الحاصلة في العقل".

وهذا كله اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد، لأن العلم هو هذه المعاني وغيرها، مثل (المَلَكَة) التي تتربى لدى العلماء، ويستطيعون بها الفهم، واستنباط المسائل والنتائج.(٢)

---

(١) المفردات للراغب مادة : (علم) ص ٣٤٣.

(٢) راجع تفصيلات هذا في كتاب: (المدخل لدراسة القرآن الكريم)، ص١٣ للشيخ محمد أبي شهبة رحمه الله.

ثانياً: ورود الموضوع في القرآن الكريم:

وقد ورد لفظ: (العلم) وما تفرع منه في القرآن الكريم نحو (٨٦٥) مرة، وهو أجمع ألفاظ الموضوع، وأكثرها دوراناً في القرآن الكريم، ولذلك اخترناه عنواناً جامعاً للمعاني المقصودة هنا.

أما الألفاظ المقاربة له فهي كثيرة منها:-

(الفقه - المعرفة - الهدى - العقل - الفكر - التدبر - التذكر - النظر - البصيرة) وكلها وردت في القرآن الكريم مراراً.

أما الألفاظ المقابلة للفظ العلم وما يليه فهي أيضاً كثيرة جداً في القرآن الكريم ومنها:

(الجهل - السَّفه - الضلال- الْعَمَه[1] - الظن الباطل - الإفك)[2].

وكل هذه الألفاظ (المقاربة، والمقابلة) ذات اتصال وثيق بمعرفة الموقف الكلي الشامل للقرآن الكريم من موضوع (العلم)، ومكانها - كما قلنا سابقاً - التفسير الموضوعي المبسوط، مثل الرسائل العلمية، والتآليف الخاصة بهذا الموضوع وحده.

ولذلك نتناول الموضوع هنا من جانبه الوسيط، الذي يقوم على جوامع الآيات الكريمة، الواردة بلفظ العلم قصداً، وما يليه تبعاً.

صلة هذه الألفاظ بموضوع العلم:

وسنذكر بعض معاني الكلمات السابقة حتى يتضح ارتباطها الوثيق بموضع العلم في القرآن الكريم:

(١) العمه: التحير والتردد.

(٢) من أراد التوسع فليراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم في مادة كل كلمة.

(أ) الألفاظ المقاربة:

"الفقه": هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، هو أخص من العلم.

"المعرفة": إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره، وهو أيضاً أخص من العلم، ويقال: فلان يعرف الله، ولا يقال يعلم الله متعدياً لمفعول واحد، لأن معرفة البشر لله هي بتدبر آثاره، دون إدراك ذاته، ويقال الله يعلم كذا، ولا يقال يعرف كذا، لأن المعرفة تستعمل في العلم المتوصل له بتفكر.

"الهدى" : الدلالة بلطف إلى المطلوب، وهو ضرب مخصوص من العلم أيضاً.

"العقل": هو القوة المتهيئة لقبول العلم، أو العلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة.

"الفكر": قوة مؤدية إلى العلم، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، ولهذا روى: "تفكروا في آلاء الله، ولا تَفَكَّروا في الله" لأنه منزه أن يوصف بصورة.

(ب) الألفاظ المقابلة[1] للعلم منها:

"الجهل": وهو خلو النفس من العلم، أو اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه أو فعله بخلاف ما حقه أن يفعل.

"السفه": خفة في البدن، واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل.[2]

ثالثاً: سعة هذا الموضوع في القرآن الكريم:

ومن هذا العرض الموجز يتضح لنا سعة موضوع العلم في القرآن الكريم سعة بالغة، وتنوع ألفاظه وأساليبه، وامتداده إلى آفاق شاملة لكل قضايا الكون والحياة،

(١) راجع ما قلناه سابقاً في (المبحث السادس)، حول معرفة ما يتعلق بالموضوع، من الأحكام التي يثبتها القرآن للنقائض والأضداد، فإن ذم الجهل هو حث على العلم وهكذا.

(٢) انظر مفردات الراغب في مادة كل لفظ، وقد أخذنا عنه بتصرف يسير.

والدين والدنيا، وما ينفع الإنسان في معاشه ومعادة، وما يبصره بكل نافعة وضارة ليكون على بينة ونور.

وحين ننظر في الآيات الكريمة مجتمعة تتجلى لنا عناية القرآن الكريم بهذا الموضوع، واستفاضة القرآن في كل عنصر من عناصره، ومعالجته في شتى الاعتبارات، والاتجاهات على ما نوجز بعضه فيما يلي:

شرف العلم في القرآن الكريم:

العلم من حيث هو نور وهداية، ولذلك يصل به القرآن إلى ذروة التشريف والتكريم، ويبلغ به أسمى المراتب والغايات، ويعلق به كل خير واستقامة، ويجعله مفتاح كل صلاح وفلاح، ومرقاة إلى الدرجات العلا في الدنيا والآخرة، وبيان ذلك بإيجاز أيضاً:

١- العلم صفة الله تعالى:

وهذا أول تكريم، وأعظم تشريف للعلم، وكفى به شرفاً أن جعله الله تعالى صفة من صفاته العلا، واشتق منه أسماءه الحسنى "العالم، والعلام، والعليم" وأسنده إلى ذاته العظمى بأساليب شتى، وطرائق عدداً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الملك: ٢٦]، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ١٢].

وسيأتي لذلك مزيد من التفاصيل إن شاء الله تعالى.

٢- والعلم قرين نعمة الخلق:

فقد أنعم الله تعالى على الكائنات كلها بالخلق بعد العدم، وزودها بنعمة أخرى - مع الخلق - لتحقيق غاية الوجود وفائدته، وهي (العلم).

ولذلك يقرن القرآن هاتين النعمتين كثيراً مثل قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ • عَلَّمَ

الْقُرْآنَ • خَلَقَ الإِنسَانَ • عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١-٤]. فالرب المتصف بغاية الرحمة، قرن خلق الإنسان بنعمة العلم ولولا ذلك لما انتفع بنعمة الخلق أحد.

وقال تعالى في شأن الخلائق عامة:

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]

أي أعطى كل شيء صورة خلقه، ثم زوده بالهدى والإدراك الذي يقيم عليه حياته، ويؤدي به وظيفته، جبلّةً أو اختياراً.

ولولا ذلك النور الإلهي الذي اقترن بالخلق، لصارت نعمة الوجود عدما وضياعاً ومواتا، لأن الجهل قرين العدم، والموت، والخراب.

وهذا من أعظم ألوان تشريف القرآن الكريم للعلم.

٣- وأبرز امتياز لآدم على الملائكة:

فقد سجدت له الملائكة امتثالاً لأمر ربها، ولم يدركوا أسرار هذا التكريم حتى أظهر الله تعالى لهم شرف آدم (بالعلم)، الذي أعطاه له الله تعالى:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ • قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ • قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

٤- وأول القرآن نزولاً:

فعلى حين فترة طويلة من الرسل، وانقطاع من الوحي، جدد الله تعالى فضله على عباده بنور القرآن العظيم، ومن العجيب أن يكون أول نجوم القرآن احتفالاً بالغا بالعلم ووسائله كما قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ • خَلَقَ الإِنسَانَ

مِنْ عَلَقٍ • اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ • الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

فأي شرف للعلم أجل من هذا التشريف المبين:

فقد أسنده الله تعالى إلى نفسه، واستهل به معجزة القرون وخارقة الدهور وجعله أول قطرة من غيثه للناس من بعد ما قنطوا، ثم يكرر الحديث عنه في خمس آيات قصار لا تبلغ سطرين، فيأمر بالقراءة مرتين، ويمتن بالعلم مرتين، ويذكر (القلم) الذي هو أداة العلم في كل العصور ، ثم يُذكِّر الإنسان بنعمة رفع الجهل عنه ﴿.. ما لم يعلم﴾ وقد اقترن ذلك كله بنعمه الخلق، إيذانا بأن العلم هو روح الوجود، والحياة بعد الإحياء.

ومن المفيد هنا في فهم شرف العلم أن نتأمل لفظ (الأكرم)، والذي يدل على غاية الفضل والامتنان، فإنه لم يرد وصفاً لله في القرآن كله إلا في هذا الموضع، وهذا بيان لشرف العلم على سائر النعم، حين قرن بغاية الكرم.

٥- والعلم وصف لأكرم الخلق:

فقد مدح الله تعالى بالعلم ملائكته المقربين، ورسله الأكرمين، وأولياءه الصالحين، وجعل العلم - في مواطن الامتنان عليهم - من أجلّ عطاياه، وأبلغ فيضه وفضله، قال تعالى في شأن الملائكة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ • كِرَامًا كَاتِبِينَ • يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقال عن أسباب ترشيح طالوت للملك: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

٦- غاية التشريف لأهله:

ومن أجلّ أساليب التشريف، ثناء القرآن الدائم على أهل العلم الصالح، وبلوغه بهم ذروة شاهقة من التكريم، لنسبهم العلمي، وفضلهم في القيام بحقه حفظاً وضبطاً، وانقياداً وعملاً.

وقد تنوعت أساليب القرآن الكريم في ذلك تنوعاً كثيراً، ومنها:

(أ) ارتضاء شهادتهم على أعظم عقائد الدين:

ففي شهادتهم على (الوحدانية) يقول تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِماً بِالْقِسْطِ**﴾ [آل عمران: ١٨].

وفي شهادتهم على القرآن يقول: ﴿**أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ [الشعراء: ١٩٧].

والمراد الصالحون منهم، كعبد الله بن سلام وأضرابه ممن أسلموا عن معرفة للحق، وشهدوا أن القرآن حق وصدق، ومطابق لصحيح كتبهم.

(ب) حصر كمال الصفات الطيبة فيهم:

فهم أهل (الفهم) الكامل دون غيره: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**﴾ [الشعراء: ١٩٧].

وهم أهل الخشية الكاملة دون سواهم من الناس: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**﴾ [فاطر: ٢٨].

العلم تكليف قرآني:

فلم يكتف القرآن الكريم بتقرير شرف العلم والعلماء، أو بيان منزلته ومنزلتهم من الفضل، وإنما كلفنا بالعلم، وحثنا على طلبه وتحصيله، تارة على سبيل الأمر والإلزام، وتارة على سبيل الندب والاختيار، حسب نوع العلم وموضوعه، ونهانا

عن بعض ضروب العلم الضارة، ورسم لنا أصول ذلك وطرائقه على ما نوجز بعضه فيما يلي:

١- العلم المطلوب شرعاً:

وهو الذي كلفنا به القرآن على سبيل الوجوب العيني كعلم العقائد جميعاً، أو على سبيل (الوجوب الكفائي)، كعلم الفروع، وتفصيلات الأدلة، وما يحتاج إليه المسلمون في صلاح دنياهم.

وقد ورد فعل الأمر من عَلِمَ مسندا للمفرد والجماعة في القرآن الكريم (إحدى وثلاثين مرة)، كلها تقريباً في التكاليف الشرعية:

ففي العقائد يقول تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

ويقول: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

فهذان أمران بوجوب معرفة واعتقاد صفة (الوحدانية) وصفة (العلم) لله تعالى.

وفي الأحكام الفرعية: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾ [الأنفال: ٤١].

ولكن أكثر استعمال فعل الأمر هنا يكون في جانب العقائد، تأكيداً وإيجاباً لها، ولا يوجد في الفروع إلا في هذا المثال السابق فقط.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]. ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِه وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

٢- العلم المنهي عنه شرعاً:

وهذا تكليف للمسلمين أيضاً بالكف عن تطلب هذا النوع أو تكلف البحث عنه، أو الاشتغال به، سوءا كان هذا العلم صحيحاً في ذاته، أو باطلاً.

فالصحيح الذي نهينا عنه هو ما استأثر الله تعالى به ولا سبيل لنا إلى معرفته بالبحث والاجتهاد كحقيقة ذات الله تعالى، وكيفيات الصفات، وغير ذلك مما سماه القرآن الكريم: (المتشابهات)، وأخبر أنه لا يعلمه إلا الله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

فسمى الله تعالى هذا النوع متشابهات ووصف من يتطلب علمها بزيغ القلوب، ورد علمها الحقيقي إلى الله وحده، وبين أن الراسخين في العلم يؤمنون بها كما جاءت، بلا بحث عن حقائقها، وهذا هو جانب التكليف فيها: الإيمان بها لا البحث عنها. والله تعالى أعلم.

والعلم الباطل الذي نهينا عنه كالسحر: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾

[البقرة: ١٠٢].

فهذا بيان لكون السحر علما يتعلم، وذم له بنسبته إلى الشياطين، والحكم بكفرهم.

وكالجدل الباطل فإنه أيضاً علم مؤسس على قواعد كاذبة خداعة وقد ذمه الله تعالى ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

ولا يجوز تعلم هذين وأمثالهما، إلا بقصد إبطالهما، ودفع شرهما عن الإسلام أو المسلمين.

وسيأتي لهذا مزيد بحث إن شاء الله تعالى في موضعه عند الكلام عن العلم المذموم.

أقسام العلم في ضوء القرآن:

العلم مشترك (لفظي) يطلق على علم (الخالق) جل شأنه، ويطلق على علم المخلوقين، مع الفارق التام بين العلمين، والمعنى الذي يليق بكل موصوف فيهما، وخصائص كل علم، على ما هو مقرر ومفروغ منه في كل مشترك لفظي بين الرب وعبيده.

ويدرك كل قارئ على الفور: الفرق الهائل، والخصائص العظمى، والكمال المطلق، والاتساع المحيط في علم الله تعالى، لأن القرآن الكريم يسوق ذلك بشتى الأساليب، وأكثرها استيعاباً وبياناً بحيث يقع التميز المطلق بين العلم الإلهي وغيره بادي الرأي، بلا كدّ ولا إعمال فكر، ولذلك نجد العلم الذي تحدث عنه القرآن ينقسم قسمين متمايزين هما:

القسم الأول: العلم المطلق المحيط:

وهو علم الله تبارك وتعالى، المحيط بكل شيء، والذي قرره القرآن مطلقاً من كل قيد، وأرسله غير محدد بحدود، ولا تقف دونه حواجز المكان والزمان، ولا يختلف باختلاف الظروف والأحوال ولا يطرأ عليه التغير أو النسيان، وإنما الغيب عنده تعالى شهادة، والسر عنده علانية، وأبعاد الزمان لديه واحدة على سواء.

وقد تنوعت أساليب القرآن الكريم في إثبات هذه الصفة الإلهية غاية التنوع، واستوعبت الكليات والجزئيات وعددت طرائق البيان والإثبات، على ما نوجزه فيما يلي:

١- القاعدة الكلية الجامعة:

وهي التي يثبت فيها القرآن هذه الصفة عن طريق ألفاظ العموم والشمول مثل: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩]. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بكل شيء عَليما﴾ [النساء: ٣٢]، فلفظ: كل أداة من أدوات العموم، وقد أضيف إلى لفظ عموم آخر وهو النكرة: (شيء) لإثبات العموم المطلق للعلم الإلهي الجليل.

وقد تكررت هذه العبارة في القرآن الكريم وتنوعت مثل:

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ [فصلت: ٥٤].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

ونلاحظ تكرار عبارة: ﴿كل شيء﴾ مع ألفاظ عموم أخرى تؤكد عمومها وهي: **السعة، والشهادة، والإحاطة**، مما يعطي **"قاعدة كلية"** تفيد شمول العلم الإلهي لجميع الأمور الكلية والجزئية.

٢- تأكيد العلم بالجزئيات:

ولم يكتف القرآن العظيم بدخول "علم الله للجزئيات" تحت عموم هذه القاعدة، وإنما أفرد ذلك بنصوص بالغة غاية الكثرة، والتنوع، تثبت علم الله تعالى للجزئيات بأجناسها، وأنواعها، وذواتها، ودقائق أسرارها وأخفى خفياتها، حتى يقطع الطريق على أضاليل الجدل البشري، وأوهام الفلاسفة التي تحصر علم الله تعالى في الكليات دون الجزئيات،[1] وهي ظنون وتخرصات تسربت إلى الفكر، من استعمال العقل في غير مجاله، وميدانه، وصدق الله العظيم:﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى

(١) انظر كتاب تهافت الفلاسفة للغزالي حيث يرد على هذه الضلالة الفلسفية.

الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

ومن جوامع هذا الهدي الرباني قوله تعالى:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

فالآية الكريمة تثبت علم الله تعالى بكل حالة أو صفة يكون عليها المخاطب:- النبي صلى الله عليه وسلم وغيره - مثل قراءة القرآن أو القيام بعمل ما.

وهذا العلم الإلهي هو - كله - علم حُضور (وشهود) مباشر، لا علم (حُصول) بواسطة مّا، كما هو شأن الخلائق في أحد فرعي العلم عندها: (الحضور أو الحصول).

والآية الكريمة تثبت علم الله تعالى بما هو (أصغر) من الذرة، وهو ما يسمى الآن (بالجزيء)، وهذا ضرب من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، لأن علوم البشر قديماً كانت تجمع على أن (الذَّرَّة) هي الجزء الذي لا يتجزأ، ولا يقبل الانقسام أصلاً، ثم جاءت العلوم الحديثة فأثبت أن للذرة جزئيات تنقسم إليها، وأن انشطارها يحدث قوة هائلة لا عهد للناس بها، وهذا تصديق بالغ الدلالة للقرآن ، ولما أثبته من إحاطة علم الله تعالى بالجزئيات وما دونها، والتي تقع وفق ما قال الله عز شأنه.(١)

ثم تثبت الآية الكريمة في ختامها أمراً بالغ الأهمية في شأن العلم الإلهي، وهو أنه لا يحدث من شهود الواقع، وإنما هو علم قديم انكشفت به الأشياء قبل وقوعها، ولذلك سطرت في ﴿كتاب مبين﴾ وهو اللوح المحفوظ الذي ورد ذكره في آيات أخرى كثيرة.

(١) ينبغي هنا تأمل قوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ فصلت: ٥٣.

٣- المجالات التي ينفرد بها العلم الإلهي:

وقد أبرز القرآن العظيم المجالات الواسعة التي يختص بها العلم الإلهي، لا يشاركه ولا يقاربه فيها أحد من الخلائق، ولا يحوم حول حماها عقل عاقل، إلا إذا جُنَّ أو لجّ في الهذيان، واستطال في الأوهام، ومن ذلك:

(أ) علم الغيب جملة:

فلا يعلمه في ماضيه، وحاضره، وقابله، إلا الله تعالى ، وهو الذي يأذن لمن شاء فيطلعه على أجزاء وتفاريق من الغيوب، لا تصلح أن تكون علماً ذاتياً لصاحبها، ولا مطلقاً، ولا دائماً.

﴿قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا • إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقد نص القرآن على بطلان علم الغيب عن كل من توهم الناس قدرتهم على ذلك (كالملائكة، والرسل، والجن، والكهان، والشياطين) وسيأتي ذلك تفصيلاً إن شاء الله بعد قليل.

(ب) مفاتيح الغيب خاصة:

وهي أمور من غيب المستقبل، وخصت بالذكر لانقطاع كل سبب إليها، وانطماس المعالم التي يمكن أن تدل عليها، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقد جاء تفصيلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ

وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفي الحديث الشريف: "في خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله"[1] ثم تلا هذه الآية.

(جـ) أخفى الخفيات:

مثل دخائل الصدور، وخواطر النفوس، وخفيات الوجدان الباطني، وسحائب الأفكار الهائمة في الشعور، وما وراء الشعور، كل ذلك لا يعلمه علماً كلياً كاملاً إلا الله رب العالمين، بل إن الإنسان الذي تدور في أعماقه هذه الأمور، لا يستطيع أن يحصيها ، أو يحيط بها، ولذلك يتابع القرآن تقرير هذه القضية، وتأكيدها في مواطن عديدة مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

فهذه ثلاث مراتب: (الجهر، والسر، وأخفى منه)، وكلها سواء في علمه تعالى، بل يقرر القرآن أنها أمر سهل يسير على الله عز وجل:

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ • أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣، ١٤].

وهذا أيضاً إثبات للمراتب الثلاثة، وتعليل ليسر علمه تعالى بها، لأن الخالق يعلم أسرار مخلوقه، وهو بذاته اللطيف أي: "العارف بدقائق الأمور"، الخبير أي: العالم ببواطن الأمور، أو المخبر بها عن علم محيط بها.

ومن هذا النوع قوله تعالى:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ

(١) صحيح مسلم (١/ ٣٩) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً (في حديث جبريل عليه السلام).

مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

(د) حقائق الأشياء وكُنه الذوات:

فالبشر يعلمون ظواهر الأشياء، أو يكتشفون خصائص المادة بالتجارب، أو يصفون ما يتبدى لهم من أسرار الحقائق.

أما الحقائق نفسها، أو كنه الذوات، فلا يستطيع علم الخلائق أن يحيط بها خبراً، أو يعرف لها أصلاً، وإنما علمها عند الله تعالى وحده.

فنحن نعلم بعض ظواهر (الروح) من إعطاء الحركة، والحس، والنماء أي (ما به الحياة)، أما حقيقة الروح فمجهولة لنا تماماً.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

٤- عجائب القرآن في تصريف ألفاظ العلم الإلهي:

وقد تبين لي من النظر في الآيات الكريمة مجتمعة، حقائق قرآنية في تصريف الألفاظ، تبدي لوناً عجيباً من أسرار الإعجاز القرآني، وكيف رتب الألفاظ وفق تخطيط باهر، ووضع كل لفظ منها في نظام مطرد، ليترتب عليه قيام (الموضوع) متناسقاً مترابطاً، كأن كل عنصر منه قد جمع على حدة، ومرة واحدة، مع ما نعلم من تباعد الزمان بين نجوم القرآن، وهذا دليل جلي على أنه لا يمكن أن يكون إلا من عند الله تعالى، تماماً كما قرر القرآن في هذا الشأن:

﴿وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

وهذه بعض الحقائق التي استخلصتها من النظر الموضوعي في الآيات الكريمة:

(أ) لفظ (عالم) المفرد ورد في القرآن (ثلاث عشرة مرة)، ولم يرد إلا وصفاً لله تعالى في جميعها، وكأنه تنبيه على أن لفظ (عالم) لا يليق بإطلاقه إلا على الله تعالى، فهو متفرد بالعلم لفظاً ومعنى.

وقد أضيف هذا اللفظ في (ثلاثة) مواضع إلى (الغيب) فقط، وإلى (الغيب والشهادة) في الباقي، وهذا أيضاً تنبيه إلى سبب آخر في إفراد اللفظ، وهو تفرد موصوفة بما أضيف إليه، والله أعلم.

ومثال ذلك: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ [سبأ: ٣].

وقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [التغابن: ١٨].

(ب) لفظ "علام" بصيغة التكثير ورد في القرآن (أربع مرات)، كلها وصف لله تعالى، لأنه لا تليق هذه الصيغة إلا به سبحانه وتعالى، وقد وردت كلها مضافة إلى "الغيوب" بالجمع لتتناسب الكثرتان، وليتآكد اللفظان: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلامُ الْغُيُوبِ﴾ [سبأ ٤٨].

(جـ) لفظ "العليم" معرفة ورد في القرآن (ثنتين وثلاثين مرة) كلها وصف لله تعالى .

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

لأنه لا يليق بغيره أن يوصف بصيغة التكثير المعرّفة، لأنها هنا اسم من أسمائه الحسنى.

(د) لفظ "عليما" نكرة منصوبة، ورد في القرآن الكريم (ثنتين وعشرين مرة)، كلها أيضاً وصف لله تعالى مثل: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الفتح: ٤].

ويلاحظ اقتران كان به، وهي تفيد الاستمرار في جنب الله تعالى، وهذا معنى لا يليق بغيره سبحانه.

(هـ) لفظ "عليم" نكرة (مرفوعة ومجرورة) ورد في القرآن الكريم ١٠٨ مرة

كلها وصف لله تعالى أيضاً، إلا في ثلاثة مواضع وردت وصفاً ليوسف عليه السلام ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، ولإسحاق عليه السلام: ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣، والذاريات: ٢٨].

وهذا الوصف راجع في الحقيقة إلى الله تعالى ، لأن علم الأنبياء كله هو منه جل شأنه، لأنهم بشر يوحى إليهم وهذا وجه التميز.

وقد ورد هذا اللفظ أيضاً وصفاً لسحرة فرعون في أربعة مواضع، مثل ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧].

وهذا اللفظ أورده القرآن الكريم على لسان فرعون وملئه، وهو من غلوّهم في استعمال الألفاظ، وذِكْرُ القرآن له لا يدل على صحة الاستعمال، فقد قصّ على لسان فرعون ادعاء الألوهية، والربوبية، وهذا أبطل الباطل بلا خلاف، هذا فضلا عن أن "عليم" وصف مُنَكَّر، لا يدل على الاختصاص.

فتحرر من هذا أن القرآن الكريم لا يقر استعمال اللفظ إلا في جانب علم الله تعالى ذاته، وهذا هو الأكثر: (١٥٥ موضعاً).

أو في تعليم أنبيائه وهذا قليل جداً، (ثلاثة مواضع) أما أوصاف السحرة فهو ما قصه القرآن عن أقوال الكفار، والله أعلم بأسرار كتابه.

(و) لفظ "أَعْلَمُ" الذي هو أفعل تفضيل، والذي يدل على كمال العلم، وامتيازه في ذاته، أو بالنسبة لغيره.

هذا اللفظ ورد في القرآن (٤٩ مرة) كلها راجعة أو مسندة إلى الله تعالى وحده لأن له الكمال الأعلى في العلم، وسائر الصفات، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقد جاء (مرة واحدة) مسنداً إلى الملائكة الذين أرسلهم الله إلى إبراهيم عليه

السلام بالبشرى، ولإهلاك قوم لوط:

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ [العنكبوت: ٣٢].

وبداهة فإن هذا علم راجع إلى الله تعالى، والمعنى نحن أعلم بمن فيها، بما علمنا تعالى، كما قال تعالى عنهم: ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢].

(ز) لفظ "اعْلَمْ" الذي هو فعل أمر، ورد في القرآن الكريم (إحدى وثلاثين مرة)، مسنداً للمفرد ، أو واو الجماعة، وكلها تقريباً أمر بشيء في الاعتقاد ﴿فاعْلَمْ أنّه لا إله إلا الله﴾ [محمد: ١٩].

﴿واتَّقوا الله واعْلَموا أنَّكمُ إليه تُحْشَرُون﴾ [البقرة: ٢٠٣]

﴿فاعْلموا أنما عَلَى رَسُولِنا البلاغ المُبِين﴾ [المائدة: ٩٣].

ذلك لأن الاعتقاد يقوم على الإيجاب والإلزام، فأولى الأساليب به هو صيغة فعل "الأمر" لأن الأصل فيه الوجوب.

(حـ) لفظ "عَلَّمْناه" المسند إلى ضمير العظمة (نا) ورد في القرآن (أربع مرات)، كلها مسندة إلى الله تعالى إيجاباً أو نفياً، لأن هذه الصيغة لا تليق على الحقيقة إلا به سبحانه وتعالى، ومن أمثلتها:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُم﴾ [الأنبياء: ٨٠].

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩].

فتحصل من هذا كله:

أن القرآن الكريم يدير الألفاظ، ويصرّف مواقعها في الموضوع الكلي، من خلال خطة، ونظام، وترتيب بالغ:

١- فكل مقام ينبغي فيه إفراد الله تعالى، لا يطلق القرآن اللفظ على غيره أبداً

مثل: (العالِمُ – العلام – العليم).

٢- وكل مقام يتسع فيه الإطلاق، يطلق اللفظ على أصله في وصف العلم الإلهي غَرَضاً، ويطلقه على غيره عَرَضًا وتبعا، مثل (عليم) المجرد من (أل).

٣- وكل مقام يقتضي التعظيم يسند اللفظ لله وحده مثل (اعْلَمُ – علمناه).

٤- وكل مقام يقتضي التأكيد جاء فيه بلفظ الأمر مثل : (اعْلَم – اعْلموا) والله تعالى أعلم بأسرار كتابه العظيم.

٥- النتائج التي يرتبها القرآن على العلم المطلق:

والقرآن الكريم لا يقصد بهذا التقرير الأوفى عن العلم الإلهي مجرد البيان والمعرفة، وإنما لتكون عقيدة راسخة في القلوب، ووجهة عملية في السلوك، وإجلالاً وتقديراً لصفات الله تعالى، وما بنى عليها من شرائع الحق.

ولذلك رتب القرآن جملة من النتائج على ما قرره من علم مطلق لله رب العالمين، ومن هذه النتائج بإيجاز شديد:

١- وجوب مراقبة الله وخشيته، والتوكل عليه وتفويض الأمر إليه:

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

٢- تقرير قدرته تعالى على البعث والإعادة:

إذا كانت قضية البعث إحدى معضلات العقل البشري، التي تصيبه بالحيرة البالغة والشك، القاتل، من حيث جمع الأجزاء، بعد تفرقها، واختلاف ذراتها بالتراب، وتداخل العناصر فيما لا يحصى من الأجساد، ولذلك استغرب الكفار في كل العصور قضية البعث، واستبعدوها، بل وأنكروها جملة، لأنهم قاسوا علم الله

تعالى المطلق، بعلم الإنسان المحدود،[1] لذلك ربط القرآن الكريم بين البعث . وبين كمال علمه جل شأنه، ليبين للناس سهولة البعث عليه، لإحاطة علمه بالأحياء والأشياء إحاطة دائمة تامة.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ • أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ • قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٢-٤] والمعنى والله أعلم:

أن الكفار تعجبوا من البعث واستنكروا الإعادة بعد تفرق الأجزاء في التراب، وزعموا أن ذلك رجع في غاية البعد عن الوهن، أو العادة، أو الإمكان.

وقد ردّ الله تعالى عليهم استبعادهم بشمول علمه، وبحفظ كل شيء في كتاب وثيق، فيكف تستغرب الإعادة حينئذ؟

"فإن مَنْ عمّ علمه ولطفه حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى، وتأكل من لحومهم، وعظامهم، كيف يستبعد أن يرجعهم أحياء كما كانوا".[2]

وحين استنكر العاص بن وائل أمر البعث، وأخذ عظما من البطحاء فَفَتَّه بيده، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيحيى الله هذا بعد ما أرم؟ نزلت الآيات من آخر سورة ياسين[3] بجواب شامل عن قدرته تعالى، وسعة علمه، فقال تعالى:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ • قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

(١) اقتصرنا في الكلام عن العلم فقط لأنه موضوعنا وإن كانت القضية متعلقة بالعلم، والقدرة وغيرهما من صفات الله تعالى.

(٢) انظر تفسر أبي السعود في أول سورة "ق".

(٣) رواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين (انظر كتاب: الصحيح المسند من أسباب النزول ص١٢٩).

٣- تفردهُ تعالى بالتشريع وسَنّ الأحكام:

لأن الذي يتولى وضع المناهج والشرائع لا بد أن يتصف بما يؤهله لذلك، وأوّله كمال العلم، حتى يشرع للناس على سلامة واستقامة، وإلا ضَلّ وأضل، وأهلك نفسه وغيره بجهله وهواه.

لذلك يذكرنا الله تعالى بعلمه المحيط كلما امْتَنّ على الناس بشرعه، أو كلما استنكر عليهم أن يشرعوا ما لم يأذن به الله، فيقول تعالى:

﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ويقول تعالى تعقيبا على النهي عن عضْل المطلقات:[1] ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ • شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٢، ١٣].

ويقول تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٩].

وهذا تنبيه على أن شرائع الكفار قائمة على الجهل، ولذلك سمى مذهبهم وملتهم باسم: (الجاهلية)، وهو أجمع وصف اختاره الله تعالى لمناهج البشر. إيذاناً بأن علة ضلالها الكبرى هي جهل واضعيها بحقائق الحياة، وخصائص الإنسان، كما أن فضيلة الإسلام الكبرى هي صدوره عن "عالم الغيب والشهادة"، على ما قرره

(١) العضل: التضييق، والمراد النهي عن منع المطلقة من العودة إلى زوجها إذا أرادت.

القرآن العظيم في تلك المقارنة البالغة: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

القسم الثاني: العلم المحدود:

أنواع المخلوقات وعلمها:

وهو علم المخلوقات جميعاً، فقد أعطى الله لكل خلق علماً أو إدراكاً يتدرج به في مراتب متفاوتة، وكلها بجانب علم الله تعالى على غاية القلة، وإن تفاوتت فيما بينها تفاوتاً كبيراً، كما قال تعالى في آية جامعة:

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٦٧].

والمعنى: أن فوق كل صاحب علم من الخلائق، من هو أعلم منه، أو فوق كل ذوي علم منهم "عليم" وهو الله تعالى.

وقد تحدث القرآن الكريم عن أصناف الخلائق، وأثبت لكل منها علماً يناسبها، وإدراكاً يلائم فطرها، وقد قدمنا أن العلم قرين الخلق، ولصيق به لصوق الروح بالجسد، وأن هذا أمر عام في كل الخلائق على ما نوجزه فيما يلي:

١- علم الملائكة:

وهو علم خير وبر، علموه من الله تعالى، فهو علم مقيد محدود بجانب علم الله المطلق، وليس لهم استقلال بالعلم،، أو اطلاع على الغيب إلا بما شاء الله تعالى. وفي هذا رد على من عبدوهم، وزعموهم بنات الله، وأن لهم علماً شاملاً، وقدرة نافذة، وهذه كلها أباطيل يدحضها القرآن الكريم كما قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ • قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢].

٢- علم الرسل بالوحي والدين:

وهو علم عظيم جليل، وقد تلقوه من الله تعالى، فهو علم محدود بجانب علم الله، وهو علم مستمد من وحي الله، ولا مدخل للرسل عليهم السلام فيه إلا بالبلاغ، والتطبيق، لذلك كان كل ما جاءوا به هو حق وصدق، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ [النحل: ٤٣].

و القرآن الكريم يورد على ألسنة الرسل نسبة علمهم إلى الله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

ويقول يعقوب عليه السلام لأولاده: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُون﴾

[يوسف: ٩٦].

﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

٣- علم بقية الخلائق:

و القرآن الكريم يثبته - كما قلنا - لأصناف شتى من الخلائق مثل:

أ- البشر عامة: قال تعالى: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

ب- الجن: وعلمهم أيضاً محدود قاصر: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ ١٤].

جـ- الشياطين: وهم مردة الجن وعتاقم، ولهم علوم في الشر والضلال كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وعلمهم أيضاً محدود قاصر: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ • وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ • إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١٢].

د- الحيوانات والطيور ونحوهما: وقد أثبت القرآن الكريم لبعضها بذاته علما وإدراكاً، فوق النوع الفطري الجبلّي الموجود عند الجميع، قال تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤].

والمراد: بالجوارح: الكواسب من الكلاب، والسباع، والطير".[1]

ومعنى "مُكَلِّبين": مأخوذ من كلّب الكلب ونحوه من الجوارح، علّمه أن يصيد، أو يأتي بما يصاد.

والآية الكريمة تثبت أن هذه الجوارح قابلة للتدريب، ولتعلّم الصيد، وفق الشروط الشرعية التي علمها الله للإنسان، كما هو مفصل في التفسير.

وقال تعالى عن هدهد سليمان، الذي هدى الله به أمة إلى الإسلام: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

والإحاطة هي العلم الشامل لجوانب الموضوع.

وقد أثبت القرآن أن للطير منطقاً: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

وأن لها عبادة: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].

وأثبت للحشرات كلاماً وفهماً: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

وأثبت للجميع نظام التجمع والارتباط كل على نمط يليق به: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

(١) تفسير الجلالين، وحاشية الجمل.

وهذه حقائق وتقريرات سبق بها القرآن، وأثبتها، قبل أن تقوم بعض الدراسات العلمية المعاصرة لإثبات أجزاء وتفاريق منها، وتستخدمها في ترويض الوحوش، والحيوانات البرية والبحرية، وتعليمها القيام بمهام عجيبة في السلم والحرب، وهذا مصداق واقعي بليغ لحقائق القرآن العظيم.

هـ- الأشياء المسماة (بالجمادات): والقرآن الكريم يثبت لهذه الأشياء إدراكاً ما، والإنسان هو الذي أطلق عليها هذا الوصف بلا دليل، ومعياره في هذا معيار تحكمي باطل، لأنه يريد أن يخضع الكائنات لمقاييسه، أو لمعارفه المحددة، ولذلك يلجأ إلى الإنكار أو التأويل، ولو أنصف لرد العلم إلى الله ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

وبالاختصار:

أثبت القرآن العظيم للجبال، والشمس، والقمر، ومادة الكون في السموات والأرض، (ولكل شيء) مما نسميه جمادات - أثبت لها إدراكاً لا يعلم حقيقته إلا الله ومن ذلك:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والآية الكريمة تثبت التسبيح لمادة السموات والأرض، ثم لمن يسمون اصطلاحاً بالعقلاء: "ومن فيهن" ثم تثبت ذلك لكل شيء بَعْدُ على سبيل الإطلاق التام ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ لأن (شيء) نكرة وقعت في سياق النفي، وسبقت بلفظ (مِنْ) الذي يدل على تمام الاستغراق للأفراد.

وتثبت الآية الكريمة أن هذا تسبيح حقيقي، وليس مجرد تسخير، أو بلسان الحال (كما يقول بعض المفسرين) لأن ذلك يفقهه كل مسلم، ولا يصح نفيه عنه،

فتبين أن المراد إثبات الحقيقة التي تستغربها العقول، والله أعلم.

ومن أجمع الآيات في ذلك أيضاً قوله تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والآية الكريمة صريحة في أن الله تعالى عرض على أعيان هذه المذكورات أمانة التكليف الاختياري، الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، فأدركن العرض، وكنَّ على غاية الحكمة حين أبين خوفاً من الله تعالى.

وما أحسن قول الفخر الرازي رحمه الله: "لم يكن إباؤهن كإباء إبليس في قوله تعالى: ﴿أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، من وجهين:

أحدهما: أن هناك السجود كان فَرْضاً وها هنا الأمانة كانت عَرْضا.

وثانيهما: أن الإباء كان هناك استكبارا، وها هنا كان استصغاراً، استصغرن أنفسهن بدليل قوله تعالى: ﴿وأشفقهن منها﴾".(١)

والحمل على الحقيقة في هذه الآيات – وأمثالها – هو المذهب الراجح، بل هو مذهب السلف جميعاً رضي الله عنهم، بلا خوض في الكيفيات، ويردّ علمها إلى الله تعالى.

ومن العلماء من يحملها على المجاز والكلام بلسان الحال، لا بلسان المقال، وهذا عدول عن الحقيقة بلا ضرورة، وصرف لظاهر القرآن بلا مقتض، ولذلك لجأ أصحاب هذا المذهب إلى التكلف والاعتساف أحياناً في تأويل النصوص الظاهرة، والتي لا تحتمل التمثيل والمجاز، كآيتي الإسراء والأحزاب السابقتين، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

(١) تفسير الفخر الرازي: (مفاتيح الغيب) في آخر سورة الأحزاب.

علم المخلوقات ضربان:

وبالنظر في آيات هذا الموضوع مجتمعة، نجدها تتحدث عن العلم بمعناه الشامل لعوم الدين والدنيا، المعاش والمعاد، وللعلوم للنظرية والعملية، ونستطيع رد هذا كله إلى ضربين جامعين:

الأول: العلوم الوهبية:

وهي العلوم التي أعطاها الله تعالى لخلقه هبة منه، بلا كدّ ولا تعب منهم، لأنها في الحقيقة خارجة تماماً عن حدود قدرتهم واستطاعتهم وهذا القسم ضربان:

أ- العلم الجبلّي الفطري: الذي زود الله تعالى به كل كائن، ليقوم بوظيفته في الوجود، وهو علم مقترن بالخلق كما قلنا سابقاً، وقد قرره القرآن في آيات كثيرة من أجمعها قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

وتفصيلات ذلك في القرآن الكريم كثيرة جداً مثل قوله تعالى:

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ • ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

[النحل: ٦٨، ٦٩].

وبالنسبة إلى الإنسان يقول تعالى عن هذا العلم الفطري الذي زوّدنا به: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨].

أي أن أدوات العلم ووسائله كانت كامنة في أصل الخلق، ثم تظهر تباعاً: فيسمع، ويبصر، ويفقه الأمور، هبة من الله تعالى.

ب- **العلم الشرعي الديني**: وهو العلم الذي يعلمه الناس عن طريق الوحي الإلهي لرسله، وهو أيضاً محض هبة منه تعالى، وليس بمقدور الخلق جميعاً الوصول إليه بجهدهم، لأن النبوة هبة لا اكتساب، والرسالة اصطفاء من الله تعالى واجتباء، فلا تنال قط بالاجتهاد أو الاشتهاء، وقد قرر القرآن الكريم ذلك في آيات كثيرة مثل قوله تعالى:

﴿الرَّحْمَنُ • عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١، ٢].

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١].

الثاني: العلوم الكسبية:

أ - مفهوم العلم الكسبي وإثباته في القرآن :

وهي التي يستفيدها الأحياء - وخاصة الإنسان - بواسطة بذل الجهد المستطاع مثل: التفكر، واستعمال الحواس الظاهرة والباطنة، والنظر وملاحظة الأشياء، والتجارب، واستنباط المجهولات من مقدماتها المعلومة، واستخلاص القوانين المبثوثة في الكون والحياة، ونحو ذلك، قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

[يونس: ٥].

فقد تعلم الإنسان الحساب، والفلك، ومعرفة الفصول من ملاحظة ومتابعة هذه الأجرام الكونية، القائمة على غاية الضبط والحسبان من الله العزيز العليم.

وقد نبه القرآن إلى كثير من هذه العلوم النظرية والعملية من خلال دعوته إلى التوحيد، والاستدلال على قدرة الله الباهرة، لأنه ليس كتاباً خاصاً بهذه العلوم، وإنما هو كتاب دعوة وهداية في المقام الأول.

ومن هذا الباب ما جاء فيه عن حقائق علم الطب والصحة العامة، وقواعد العلوم الاقتصادية، والاجتماعية، ونحو ذلك.

ب- الأصل الرباني لعلوم الاكتساب:

وهو أصل قرره القرآن الكريم، ونبه عليه في كل المواطن، وأكده بشتى الصيغ والأساليب، حتى يتقرر ويتمكن في النفوس أن العلوم المكتسبة لا تقوم وحدها، وإنما هي تابعة دائماً للجانب الوهبي الرباني، في نشأتها، وامتدادها، ومقوماتها.

فكل علم يكتسبه الإنسان ويتفوق فيه إنما مرجعه دائماً إلى قواعد العطاء الرباني متمثلاً في: العمل الذي يفكر، والحواس التي استعملت، والجوارح التي استخدمت، وذوات المواد، وخصائصها، وقوانين الكون والحياة التي يعمل من خلالها، وغير ذلك من ضروب الفضل الإلهي المحض.

فإذا حرث الأرض، وبذرها وتعهدها حتى آتت ثمرها فهذا مبلغه من العلم والعمل، أما عقله وقواه، وذات البذر، وتربة الأرض، والماء، وخاصية الإنبات، والمناخ المصاحب من حرارة الشمس، وضوء القمر،وتصريف الرياح، فهذا كله من الجانب الوهبي.

وإذا صنع طائرة - مثلا - فرح الملحدون بما لديهم من العلم، مع أنه علم لا يقوم لحظة واحدة بغير المواهب الربانية الشاملة.

فوجود الإنسان ابتداء، ثم عقله وحواسه، ثم وجود المادة ذاتها، وخصائصها التي هيأتها للتسخير والانتفاع، كالحديد وما فيه من الصلابة الشديدة، والمطاوعة للطرق والتشكيل، والوقود وما فيه من السيولة، وقابلية الاشتعال، والمطاط وما فيه من القوة والمرونة، والنار، والماء وما فيهما من خواص الإذابة والتبريد، ثم قوانين الفضاء والهواء، ثم المعالم التي تنتصب في مجاهل الآفاق: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

كل هذه المنح الإلهية هي التي مكنت الإنسان من الوصول إلى العلم الذي يصنع به طائرته، ثم يمضي بها آمنا إلى وجهته.

ولو أمسك الله شيئاً منها لمسخت علوم الناس على مكانتها، فما استطاع مضياً ولا قياماً ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ [الشورى: ٣٣].

فجهد الإنسان إذن هو جهد وصفي أو تحويلي، لا إبداعي إنشائي، لذلك أكثر القرآن الكريم من تذكيره بهذا الأصل الأصيل، حتى لا يطيش صوابه، ويدمر نفسه بغرور العلم الجزئي التبعي، قال تعالى:

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤، ٥].

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ • عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ٣، ٤].

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

والمراد أن الله تعالى علم داود عليه السلام صناعة الحديد، والدروع.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ • أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ • لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ • إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٦].

ومن أجمع الآيات في ذلك قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

فالآية الكريمة تسند إلى أن الله تعالى جعل هذه الأشياء للناس ومن المعلوم أن الناس هم الذين يقيمون البيوت، أو يصنعونها من الجلود، أو يحولون الصوف ونحوه فيجعلون منه أثاثاً ومتاعاً.

وإنما صح الإسناد إلى الله تعالى، لأنه هو الذي أوجد مواد هذه الأشياء ابتداء،

ثم هو الذي اعطاها خواصها من الصلابة، وعزل الحر والبرد، ونحو ذلك مما يجعل البيت سكنا، وكذلك أعطى الجلود خواص الامتداد، والانثناء، والقوة، وقابلية الفصل والوصل.. وهكذا.

فكل علم كسبي في هذه الأشياء، إنما هو امتداد، واستخدام، وتحويل لما خلقه الله تعالى، وجعله قابلا للتحويل، والتشكيل، والانتفاع به على المدى الطويل (أثاثا)، أو على المدى القريب الذي يتمتع به ثم يبلى بعد حين قصير (ومتاعاً إلى حين).

ومثال الأول: البساط الذي قد يعمر عشرات السنين.

ومثال الثاني: الثوب الذي يبلى بعد قليل.

وهذا المعنى هو الذي قرره القرآن الكريم حين قرن السفن (وهي من صنع الناس) بالأنعام (وهي خلق الله تعالى)، وأسندهما معاً إلى الله تعالى:

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

جـ - المحمود والمذموم من علوم الاكتساب:

لذلك كان الأصل الثابت في العلوم أنها نور، وخير، ورحمة للخلائق.

وقد يطرأ على هذا الأصل ما يحوله، ويجعل العلم الكسبي شراً وبلاء، وهذا ما نجده واضحاً خلال الآيات الكثيرة التي تحدثت عن العلم، وهو الذي يفسر لنا معنى الذم، والتنديد القرآني لبعض ضروب العلم وأحواله، ومن هنا كانت العلوم الكسبية في القرآن الكريم على ضربين:

الأول: العلم الكسبي المحمود:

وهو الذي يحقق المصالح المعتبرة شرعاً، ويجلب النفع الصحيح للخلائق، ويدفع عنهم الضرر، ويبرز ما أودعه الله في الكون من قوانين وأسرار، تدل على أنه الواحد المقتدر، ذو الفضل الدائم على عباده.

وهذا الضرب هو الغالب، ولذلك مدحه الله تعالى، وحث عليه، بل علّم سبحانه وتعالى الناس بعض أسراره إلهاماً، أو وحيا، وكان قد علّمه أيضاً لأبيهم آدم من قبل.

ويدخل في هذا الضرب كل ما يحتاجه الناس في شئون دنياهم ومعاشهم، وما يحقق لهم عمارة الأرض مثل: علوم الزراعة، والصناعة، وعلوم اللسان والبيان، وعلوم الطبقات الأرضية، والأفلاك السماوية، والطب، والكيمياء، ونحو ذلك مما جاء في آيات كثيرة منها:

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ • الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق:٣، ٤].

فقد أمر الله تعالى بالقراءة، وأسند التعليم بالقلم إلى نفسه سبحانه، والقلم والقراءة هما أداة العلوم في كل العصور.

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ • عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤].

والبيان كلمة جامعة لكل ما يكشف المعنى المقصود، فتشمل اللغات البشرية، والوسائل التعليمية، وما قام على ذلك من علوم ومعارف لا تحصى.

وقال تعالى عن نبيه داود عليه السلام:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

والمراد: ما علّمه الله له من صناعة الدروع السابغة، ذات الحلق الدقيق الصنع، والذي يقوم على علم وتقدير، لحماية الناس من الأخطار والحروب.

وقد جاء ذلك بتفصيل في قوله تعالى:

﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ • أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١].

وهذا بداهة تعليم لأمر دنيوي، وهو غير تعليم الشرع والدين.

وعن نوح عليه السلام يقول تعالى:

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧].

والمفسرون يجمعون على أن صناعة السفن كانت وحياً إلهياً بهذه الآية الكريمة، "فإن الله أرسل إليه جبريل فعلمه صنعتها".[1]

ولعل هذا هو معنى قرْن الفُلْك بالأنعام في قوله تعالى:

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]

فهو سبحانه الذي علّم الناس أصل صنعتها، كما أعطاهم خصائص مادتها.

الثاني: العلم الكسبي المذموم:

وهو الذي لا يحقق مصلحة معتبرة أو مباحة شرعاً، بل يقوم على الضر والأذي، أو يجلب الشر والمفسدة، ويودي إلى الهلاك والدمار.

وهذا الضرب يلحقه الذم والشناعة لأحد اعتبارين:

(أ) **ما يلحقه الذم لذاته**: فيكون باطلاً من أصله، وهذا النوع قليل ونادر جداً، ولا أعلم له أمثلة في القرآن الكريم[2] إلا مثلين:

الأول: السّحر:

ولذلك نسبه القرآن الكريم إلى الشياطين، وذمه وأصحابه، ووصفهما بالفتنة، والضرر المحض الذي لا نفع فيه، والسوء البالغ، كما قال تعالى:

﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا

(١) انظر حاشية الجمل، والخازن، وحاشية الصاوي على الجلالين في تفسير الآية الكريمة.

(٢) هذا مبلغ علمي والله أعلم، فقد يكون في القرآن غير هذين عند البحث والتنقيب.

مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال تعالى: عن سحرة فرعون قبل إسلامهم:

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩].

والمثل الثاني: الحكم والتشريع الوضعي :

والأصل فيه أن شرع الأحكام، وسنّ القوانين خصوصية إلهية، لا تباح لغيره تعالى على سبيل الإنشاء والابتداء، وإنما يباح الاستنباط من نصوص الشرع الإلهي وقواعده.

لكن الأمم قديماً وحديثاً افترت على الله الكذب، وشرعت للناس ما لم يأذن بـه الله، وتطاولـت في ذلـك حتى صار عند أمم الحضارة "علماً" وفنا، ومذاهب ومدارس واسعة النطاق.

وقـد ذم القـرآن هـذا العلم وأهله ذماً بالغاً، ووصفهما بالكفر، والشرك، والجهل، والسفه، والافتراء، والكذب، وغيرها من صفات السوء.

وليس ذلك لما تؤدي إليه هذه الشرائع المبتدعة من إفساد فقط، وإنما قبل ذلك لأنها افتراء على صاحب الخلق والأمر، ورب الحكم والشرع، ولذلك سماها القرآن: "حُكْـم الجاهلية"،، في مقابل "حُكْم الله" وهو الإسلام والذي يعني في أول معانيه: الاستسـلام لأمـر الله ونهـيه، ورفض كل ما عداه من مذاهب البشر، وقوانينهم الوضـعية الـتي ابتلى بها المسلمون، والتي قامت عليها سلطات مبتدعة، تحت اسم مبتدع في الإسلام هو "السلطة التشريعية".(١)

(١) من أراد التوسع في هذا فليراجع رسالتي بكلية أصول الدين وعنوانها "المنهاج القرآني في التشريع" خاصة ص١١٢، وما بعدها وص١٨٠ وما بعدها.

ومن أجمع الآيات في ذلك قوله تعالى:

﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

(ب) ما يلحقه الذم باعتبار ما يلابسه من الظروف والأحوال، لا لذاته:

وهذا هو الكثير الغالب في المذموم، ومنه:

١- فصل العلم الكسبي عن وجهته الدينية، والتعلق بظواهره المادية الصحيحة، قال تعالى:

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ، يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].

فالعلم الكسبي هنا لا يذم لذاته، وإنما لأن أصحابه اقتصروا على ظاهره، و لم يصلوا به إلى لبابه من الإيمان بالله تعالى ودينه.

٢- فصل العلم عن أصوله الوهبية، وجحود فضل الله تعالى فيه، قال تعالى:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ، قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٦٧-٦٨].

فقارون لم ينكر الله، ولا الآخرة، وإنما جحد فضل الله في ماله، وادّعى أن "كنوزه" حصّلها بعلمه هو، وسعيه فقط، وبالتالي لا حق لأحد فيها، وها هنا الفتنة، التي أدت إلى تدميره.

ذلك لأن مدار الذّم ليس دعواه أنه ثمّر أمواله بعمله وتخطيطه، فقد يكون هذا صحيحاً، ومحموداً، ولكن دعوى الانفراد بهذا ثم منع الحقوق بناء على هذا الوهم، هو الذي أنكره الله تعالى عليه.

٣- استخدام العلم الصحيح استخداماً فاسداً، وذلك بأن يجعل وسيلة وأداة للمحرمات، فتذم الوسيلة بسبب ما تؤدي إليه من المفاسد، لا لذاتها، كالذي يستخدم علمه بالحساب في الربا، وعلمه بالكيمياء في تقطير الخمر، وعلمه بالآلات في التحسس المنهي عنه، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ [القصص : ٣٨].

فحرق الآجرّ والبناء صنعة مباحة محمودة، وبناء الصرح يقوم على علم محمود، ولكن المذموم استخدام هذا العلم في الباطل أو الحرام.

وقال تعالى عن قوم هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

والريع المكان المرتفع، يجعلون عليه مناراً عالياً، أو قصراً منيفاً، أسماه "آية" وهو لفظ مشعر بالمدح، لكن استخدامه في العبث والسفه، هو الذي جعله مدار استنكار نبيهم عليه السلام.

٤- الإعجاب بالعلم إلى حد الغرور، المودي إلى الكبر والبطر، بدل الشكر، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾ [غافر: ٨٢، ٨٣].

فلم يذمهم القرآن بسبب الكثرة، والقوة، والآثار النافعة، فهذه كلها نعم وهبية، أو كسبية محمودة، ولكنهم ذموا لأنهم (فَرِحوا بما عندهم من العلم)، فرح

تمرد واستكبار على الحق،[1] وهذا دَيْدن الأمم الضالة جميعاً، لا يستفيقون منه إلا إذا نزل بهم العذاب الإلهي، الذي كانوا يستهزئون به، وربما تحدوه بهذا العلم الكسبي المحدود، (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون).

٥- وضع العلم في غير موضعه: وذلك بادعاء "الكلية" لحقائق العلم الناقصة، أو بجعل الحقائق العقلية، والتجارب المادية حَكَما على (الغيوب)، فيأتيها الفساد من وضعها في غير موضعها، أو من تطبيقها في غير ميدانها، لأن الغيب لا تعرف حقيقته بفكر مجرد، أو حس مقيد، أو تجربة مادية، وهذا هو وجه الذم والعيب هنا، لأن ذلك يوقع الإنسان حتماً في الخلط والخبط على غير هدى، ولقد كان هذا هو داء الجاهلية في كل العصور، ولذلك سماه القرآن الكريم "ظن الجاهلية"،[2] ونعاه على أهلها، وذمهم به ذماً شديداً، قال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾

[آل عمران: ١٥٤]

﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا • فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا • ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٨-٣٠].

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

وقد وصف القرآن الكريم هذه الضلالات بوصفها الجامع، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ

(١) هذا الوجه معناه أن الكفار بطروا بعلمهم، واستكبروا به على الرسل، وهذا أرجح الوجوه في تفسير الآية الكريمة والله اعلم.

(٢) هو الذي يكون في العقائد والحقائق القطعية، وهذا هو الذي ذمه القرآن، أما الظن بمعنى ادراك الطرف الراجح في الأحكام الفرعية ونحوها فليس بمذموم.

فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ • قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ • فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٤٩-٥١]. فهذه هي فتنة الإنسان دائماً، حين ينسب نعم الله إلى مجرد الجهد البشري، والعلم الكسبي، وهذا ما يجعله في الحقيقة جهلاً بل سيئات تدمر أصحابها، ولا تغني عنهم شيئاً.

ولم نعلم في تاريخ البشرية (فتنة) أنكى وأشنع من فتة الحضارة المعاصرة بعلومها المادية، التي ألحدت بها في الله تعالى، وأنكرته جملة، وجعلت الفضل والسيادة للإنسان بزعمها، وقصرت العلم علي ما يتصل بظواهر المادة، وهذا (مبلغهم من العلم)، بل هذا ليس علماً، وإنما هو ظن عقيم، مال بالحضارة وأهلها - والبشر من ورائها - ميلاً عظيماً، وتوشك أن يحل عليها النذير الصارم:

﴿حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

آداب العلم والرحلة في طلبه:

وقد وردت في القرآن الكريم جملة وافية من الوصايا والآداب العلمية، ترشد إلى جوامع الأخلاق والصفات المطلوبة في المعلم، والمتعلم جميعاً، وتحث على بذل الجهد في طلب العلم، ولو بعدت الشقة، وطالت الرحلة، وهذا موضوع متعدد الجوانب في الآيات الكريمة، يتسع لبحث مفرد مستقل، ولكنا نوجز بعض أطرافه فيما يلي:

(١) آداب المُعَلِّم:

فقد جعل الله تعالى العلماء قدوة الناس، وأسوة الصالحين، ولذلك حثهم على التزام معالي الأمور، والتخلق بما يليق بالعلم من أخلاق وصفات، لأنه "لا يستوي

الذين يعلمون والذين لا يعلمون"، ومن هذه الآداب:

(أ) **التطبيق العملي**: فليس العلم حلية شكلية، وإنما هو التزام بالحق، وتطبيق له على النفس أولاً، قال تعالى على سبيل العموم:

﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وجعل العلماء أولى الناس بهذا العمل ظاهراً وباطناً فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

(ب) **البلاغ والبيان**: فإن ثمرة العلم ينبغي أن تكون عامة، لأنه نور وهداية، ولذلك أوجب الله تعالى على العلماء بيان العلم، وحذرهم من كتمانه، وألزمهم إلزاما أن يصدعوا بكلمة الحق فقال تعالى: ﴿وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

ولذلك جعل ذلك البيان مهمة العالم، وغاية التعلم فقال تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

(جـ) **لزوم الصبر والحلم**: لأن العالم لا بد أن يلقى عنتا ومشقة حين يتصدى لتعليم الجاهل، وتنبيه الغافل، وإمساك الشارد، وما تموج به نفوس هؤلاء وغيرهم من مقاومة، وصدود، ونفور، ولذلك أكد القرآن طويلاً على هذا الجانب فقال تعالى:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥].

(د) **التواضع ولين الجانب**: فلا يتكبر بعلمه، ولا يتعالى على الناس به، فإن

العلم الحقيقي يقتضي غاية التواضع واللين، عرفانا بعظمة صاحب العلم المحيط، ويقينا بضآلة علم الإنسان مهما بلغ، وتخلقاً بأخلاق الأنبياء عليهم السلام، وهم أعلم الخلق، بما يأتيهم من الوحي، ولذلك شدّد القرآن على العلماء في هذا الجانب فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وفي قوله تعالى: (خاطبهم الجاهلون) إيذان بأن عباد الرحمن علماء حكماء، فينبغي أن يتحلوا بفضيلة التواضع (يمشون على أرض هونا)(١).

(هـ) الترفع عن مجالس اللهو واللغو: فإن العالم قدوة الناس، فينبغي ألا يتلبس بمجالس الباطل، ولا أماكن اللهو مهما كان قليلاً، لأنه يفتح بذلك للناس أبواب الكثير، قال تعالى:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وقد نزلت في مدح بعض علماء أهل الكتاب، ممن آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم. وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

والزور: هو مطلق الكذب والباطل.

والمعنى: لا يحضرون مشاهد الباطل، أو لا يشهدون شهادة الزور.

واللغو: كل كلام قبيح من شتم، وعيب، ولمز، وسخرية، ونحو ذلك.

(و) الاستزادة من العلم: فإن العالم الصحيح يطلب العلم دائماً، ويستزيد منه أبداً، ولا يظن بنفسه الكمال والتمام، فإن ذلك جهل ينافي العلم، ولذلك علم الله رسوله – وهو أعلم الناس بربه ودينه– أن يطلب زيادة العلم فقال تعالى:

(١) الهون: التواضع والسكينة، من غير ذلة ولا مداهنة.

وحـــين كان المنافقون يسمعون العلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يدّعـــون عدم فهمه، ويسألون علماء الصحابة عما قاله استهزاء، بيّن الله تعالى فضل الصحابة وعلمائهم في الاستزادة من العلم فقال تعالى:

﴿وَمِـــنْهُم مَّـــن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْـــمَ مَـــاذَا قَـــالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ ۝ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ [محمد: ١٦، ١٧].

والمعنى: أن المؤمنين أقبلوا على التعلم، فزادهم الله علماً على علمهم، ووفقهم للعمل به، أو آتاهم ثوابه، وهذا أكمل أحوال العلماء.

(٢) آداب المتعلم:

فقـــد أرشد الله تعالى طلاب العلم إلى آداب طلبه، وفضائل أخذه، ومكارم تلقيه وتعلمه ومن ذلك:

(أ) الاستعانة بالله في طلب العلم: فلا بد أن يكون البدء في العلم هو وضعه تحـــت رعاية الله تعالى، والاستعانة به على تحقيقه، فإن كان علما دينيا فهو منه وبه سبحانه وتعالى، وإن كان علماً دنيوياً فهو تحت مظلة الإيمان والتوحيد، فلا يضل به صـــاحبه ولا يشقى، ولذلك كان أول آية نزلت من القرآن هي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

(ب) الرجوع إلى العلماء في أخذ العلم: فهم المرجع في تلقي العلم، وعنهم تؤخذ المفاهيم الصحيحة، لا من مجرد الكتب، أو السماع من غير أهل الاختصاص العلمي، قال تعالى:

﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

﴿وَإِذَا جَـــاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ

﴿وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

والآية الكريمة نزلت في شأن الحروب والسرايا والنبوية، وحديث المنافقين عنها، ولكنها عامة في وجوب الرد إلى (أولى الأمر منهم) وهم "ذوو العقول، والرأي والبصيرة، وهم العلماء الذين علموا ما ينبغي أن يكتم من الأمور، وما ينبغي أن يذاع منها".(١)

وهكذا ينبغي تلقي العلم من أهله وأربابه، بل على العالم أن يتلقى العلم ممن هو فوقه من العلماء، كما سنذكر في قصة موسى عليه السلام، وكما نبه القرآن على هذا الأصل في قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

(جـ) **التزام آداب المجالس العلمية:** مثل التفسح في المجالس لبعضهم البعض، ومثل الانصراف من المجالس بعد انتهائها، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ومثل التعود على غض الصوت في مجالس العلم، خاصة بين يدي المعلم، حتى لا تصبح مجالس جدل وضجيج يضيع فيها صوت العقل والفكر، والحجة والدليل، والفهم السليم، والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢]. وهذه خصوصية لرسول الله صلى الله

(١) تفسير الخازن في الآية الكريمة (١/ ٤٧٠).

عليه وسلم باعتبار الرسالة، ولما كان "العلماء هم ورثة الأنبياء".[1] كان لهم من هذا الأدب نصيب، مع الفارق بينهم وبينه صلى الله عليه وسلم: "فهو معصوم، يوحى إليه، وإهانته كفر أو محبطة للعمل، والعلماء ليسوا كذلك"، لكن لهم ما يليق بهم، "وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع، وتجاوزوا به شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كل أستاذ وعالم، لا يزعجونه حتى يخرج إليهم، ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم".[2]

(د) تخير الألفاظ الحسنة، وترك الموهمات: فعلى المتعلم أن يرعى حق أستاذه، وإخوانه، باختيار أحسن الألفاظ، وترك كل ما يوهم السوء ولو كان صحيحاً في ذاته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

فقد كان المسلمون في مجالس العلم يستمهلون النبي صلى الله عليه وسلم بقولهم (راعنا) يا رسول الله، أي انظر إلينا، أو فرّغ سمعك لنا، وهذا لفظ عربي ذو معنى صحيح، ولكنه وافق لفظا في لغة اليهود معناه: "السب القبيح" كما قال ابن عباس رضى الله عنهما، فكانوا يقولون ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم مظهرين أنهم يريدون المعنى العربي، ومبطنين المعني الذي في لغتهم، لعنهم الله وغضب عليهم.

"وفي ذلك دليل على أنه ينبغي تجنب الألفاظ المحتملة للسب والنقص، وإن لم يقصد المتكلم بها ذلك المعنى، سدا للذريعة، وقطعاً لمادة المفسدة والتطرق إليها، ثم

(١) حديث شريف رواه ابن عدي في الكامل، وابن النجار عن أنس: انظر الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير ص٢٥١.

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٤٠)، وهو يعلق على آية ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ وهي معنى ما نقول

أمرهم الله بأن يخاطبوا النبي صلى الله عليه وسلم بما لا يتحمل النقص، ولا يصلح للتعريض فقالت ﴿وقولوا انظرنا﴾ أي أقبل علينا وانظر إلينا".[1]

(٣) مثال جامع للرحلة العلمية وآدابها:

الرحلة العلمية :

فقد حث الله المؤمنين على طلب العلم، ولو بالرحلة الطويلة، والسفر الشاق، والمتاعب الجمة، فإن ذلك قليل بجانب ما يحرزه المؤمن من شرف العلم، ونور الفهم، وثواب الدنيا والآخرة.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وللآية الكريمة معنيان أوضحهما أنها: "حكم مستقل بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم والتفقه في الدين، فيكون السفر نوعين: الأول سفر الجهاد، والثاني السفر لطلب العلم، ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفر".[2]

وقد حددت الآية الكريمة الغرض المقصود بوضوح تام وهو قوله **﴿ولينذروا قومهم﴾** وهو تعليل يشير إلى أنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم الاستقامة، وتبليغ الشريعة، لا الترفع على العباد، والبسط في البلاد، كما هو دأب أبناء الزمان".[3]

وقد أمر الله تعالى بالسير في الأرض، والنظر في أحوال العباد والبلاد، لأخذ

(١) انظر فتح القدير للشوكاني (١/ ١٢٤) عند تفسير الآية المذكورة.

(٢) السابق (٢/ ٤١٦) في تفسير الآية الكريمة.

(٣) تفسير أبي السعود في تفسير الآية الكريمة.

العظة واستخلاص قوانين الله الماضية في الأمم، وانتظام عقوبته للمكذبين، والاطلاع على عجائب القدرة الإلهية في الكون والحياة.

ولكن أجمع مثال للسفر والارتحال العلمي هو ما قصه القرآن الكريم عن موسى عليه السلام، وما ضمنه هذه القصة من آداب عالية، وفضائل بالغة، وحرص على التعلم من كليم الله ورسوله عليه السلام، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا • فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا • فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا • قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا • قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا • فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا • قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا • قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا • وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا • قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا • قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا • فَانطَلَقَا﴾ [الكهف: ٦٠-٧٤] راجع القصة بتمامها في الآيات الكريمة من سورة الكهف.

وقد روى البخاري عن ابن عباس رضى الله عنهما السبب العلمي لهذه القصة، وخلاصته: "إن قاصًا في الكوفة يقال له (نوف البكاليّ) قد زعم أنه غير موسى الرسول، فسئل ابن عباس فقال: كذب عدو الله ، حدثني أبي ابن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن موسى قام خطيباً في بنى إسرائيل فذكر الناس، حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب، ولي، فأدركه رجل فقال: أي رسول الله هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم

إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك.. الخ.[1]

الآداب العالية في القصة:

١- تقرير وتأكيد الرحلة في طلب العلم مهما كان الإنسان عالماً، فإن موسى عليه السلام كان كليم الله، وواحداً من أولي العزم، وأعطاه الله تعالى التوراة ﴿**وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء**﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ومع ذلك لما وجد فرصة لمزيد من العلم سعى إليها بهمة وقوة، وأصر على ذلك إصراراً مهما طال الوقت أو الطريق ﴿**لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**﴾ ولقد لقي في ذلك تعباً ونصباً، ورغم ذلك رجع مسرعاً حين علم أنه جاوز المكان الموعود: ﴿**قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا**﴾.

٢- التواضع البالغ من موسى عليه السلام في طلب العلم، وأخذه من الخضر عليه السلام بلا أدنى استكبار ، أو اغترار واعتداد بمنزلته العالية.

٣- الأدب الجم في مخاطبة الأستاذ، وبلوغه الغاية العليا في ذلك، حيث تقدم لطلب العلم منه عن طريق الاستفهام "**هل أتبعك**" المشعر برد الاختيار للأستاذ و لم يتقدم بذلك على وجه الإخبار المشعر بالإلزام.

٤- عبر عن هذه الصحبة العلمية بلفظ (الاتّباع)، وهو هنا أبلغ لفظ وأكمله، لأن الاتباع معناه الاقتفاء بأثر السابق، وترسم مواقع قدميه، ففيه تابع ومتبوع، ومقدم ومؤخر حتماً، بخلاف لفظ (المصاحبة) مثلا فقد يكون الصاحبان ندّين، بل قد يكون المتعلم في الصحبة أفضل من معلمه أحياناً، وهذا غاية التلطف والأدب من موسى عليه السلام في إيثار لفظ (اتبعك)

---

(١) هذه خلاصة ما في البخاري (٥/ ٢٣٠) وما بعدها في عدة روايات رواها في كتاب التفسير (عند تفسير سورة الكهف).

٥- تخفف عن كل حاجة أمام طلب العلم، و لم يلزم أستاذه بمؤونة ما ، كالإطعام، والحمل باعتباره غريباً عن المكان، وإنما جعل للاتباع هدفاً واحداً: ﴿عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

٦- لم يغضب حين صارحه الأستاذ بأنه لن يستطيع معه صبراً، لغرابة الأمور عليه، وعدم إحاطة علمه بها، وإنما رد موسى عليه السلام بغاية الأدب أنه سيجده صابراً، وقيد ذلك بالمشيئة الإلهية، ثم زاد بأن تعهد ألا يعصى أوامر معلمه، وهذا أكمل نموذج في الخطاب، فإنه لم يقل: "لا أخالفك" ، و لم يقل: "سأطيع ما تطلب" إنما عبر بنفي المعصية إيذانا بغاية الانقياد، وعبر عن الطلب بلفظ "أمراً" وهو عند الإطلاق يكون من الأعلى للأدنى، فكأنه صلى الله عليه وسلم وضع نفسه في هذا الموضع هضماً لها، وتواضعاً في طلب العلم، ولذلك قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾.

٧- موافقته التامة على شرط الأستاذ: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

ولذلك كان موسى عليه السلام يبادر بالاعتذار الصريح كلما نسى الشرط من غرابة ما يرى، ﴿قال لا تؤاخذني بما نسيت﴾، ولما سأل للمرة الثانية قال ﴿إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى﴾.

وهذا أيضاً غاية الأدب إذ لم يقل "فلا أتبعك"، وإنما رد المفارقة إلى رأي الأستاذ، والتمس له العذر في المفارقة: "قد بلغت من لدني عذرا" والقصة مليئة بالحكم والأسرار أكثر مما قلنا ، مما يجعلها أكمل نموذج لأدب العلم، وفضائل العالم والمتعلم، والله تعالى أعلم.

أسئلة التقويم الذاتي

س١: اذكر اثنتين من الآيات الكريمة توضح شرف العلم في القرآن الكريم؟

س٢: ارتضى الله تعالى شهادة العلماء على الوحدانية له سبحانه وتعالى، أذكر الآية التي تدل على ذلك؟

س٣: العلم الشرعي كلفنا الله تعالى به على سبيل الوجوب العيني والوجوب الكفائي، وضح ذلك مع ذكر أبرز مجالات العلم لنوعي التكليف؟

س٤: لمن يكون العلم المطلق المحيط كأحد أقسام العلم في ضوء القرآن؟

س٥: علم الله الكلي بالأشياء لا ينفي العلم الجزئي بها، اذكر آية واحدة تدل على علم الله بالجزئيات؟

س٦: يقول الله تعالى ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾ على أي مجال من المجالات التي ينفرد العلم الإلهي بها تدل هذه الآية؟

س٧: أكمل ما يأتي:

(١) يترتب على العلم المطلق لله تعالى وجوب مراقبة الله تعالى وخشيته والتوكل عليه وتفويض الأمر إليه .... و........

(٢) من الخلائق التي أثبت الله تعالى لها نوعاً من العلم ....و.....

س٨: هل أثبت القرآن إدراكاً للجمادات؟ وما الدليل على ما تقول؟

س٩: ينقسم علم المخلوقات إلى نوعين رئيسين أذكرهما؟

س١٠: العلم الشرعي الديني يندرج تحت أي نوع من العلم ؟

س١١: السحر والتشريع الوضعي يدخلان ضمن أي نوع من العلم الكسبي؟

س١٣: اذكر آية توضح أدب المتعلم فيما يتعلق بالرجوع للعلماء في أخذ العلم؟

الموضوع الخامس

الآخرة ومشاهدها في ضوء القرآن

أولاً: معنى الآخرة ومشاهدها:

الآخرة مؤنث الآخِر وهو "ما يقابل به الأول"[1] والآخرة تقابل الأولى، على معنى أنهما شيئان فقط، فلا ثالث لهما، ولا شيء بعد آخرهما، لأنها نهاية المطاف، ولذلك لا يقال "الدار الثانية"، بل "الدار الآخرة".

والمراد بـ "الآخرة" شرعاً:

النشأة التي تقابل الدنيا، والتي تبدأ مقدماتها من نفخة الصعق ثم نفخة القيامة، وما في يومها من مشاهد، وما يعقبه من دخول الجنة أو النار على وجه الخلود الأبدي.

والمشاهد: جمع مشهد، وأصله من الشهادة، وهي الحضور مع المشاهدة، إما بالبصر أو بالبصيرة.[2]

والمراد بها شرعاً:

ما يشاهده الناس في الآخرة من أحوال وأهوال، ومواقف وحوادث، كتصدع الكون كله، وَدَكّ الأرض والجبال، وحشر الناس والخلائق إلى الموقف وأخذ صحائف الأعمال، والميزان، والحساب، والصراط.. وغير ذلك من مشاهد الجنة أو النار بعد دخولهما.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

(١) المفردات للراغب ص١٣.

(٢) المفردات للراغب ص٢٦٧ وما بعدها بتصرف.

﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣].

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ • وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٢، ٣].

أي أنه يوم واقع لا محالة، وسيشاهده الخلائق جميعاً، ويشهدون ما فيه من أحوال وعجائب، ولظهورها، وهولها، وتعلق مصائر كل خلق بها.

ثانيا: ورود ألفاظ الموضوع في القرآن الكريم:

وقد ورد لفظ "الآخرة" في القرآن الكريم بهذا المعنى (١١٢ مرة).

١- تارة منفرداً وهو الأكثر مثل: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]

٢- وتارة وصفاً مثل: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ [القصص: ٨٣].

﴿النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

٣- وتارة مضافاً إليه مثل: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل: ٣٠].

٤- وجاء بلفظ المذكر وصفاً لليوم (٢٦) مرة، مثل: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [النساء: ٣٩].

٥- وجاء مؤنثا على وزن فُعْلَى (٣ مرات)، ﴿وأن عليه النَشْأة الأخرى﴾

[النجم: ٤٧].

٦- وجاء بصيغة الفعل عدة مرات مثل: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾

[إبراهيم: ٤١]

فجملة ورود اللفظ وما تفرع منه في القرآن الكريم نحو: (١٥٠ مرة).

ولذلك اخترناه عنواناً للموضوع، لأنه أكثر الألفاظ استعمالاً في القرآن الكريم تعبيراً عن موضوعه، ثم هو أجمعها وأوفاها دلالة على المراد، لأنه يشمل كل ما يتعلق بهذه النشأة، من ابتدائها إلى امتداد خلودها بعد دخول الجنة أو النار.

الألفاظ المقاربة:

وقد أورد القرآن الكريم ألفاظاً أخرى كثيرة في الموضوع مثل:

القيامة - الساعة - البعث - الواقعة - الحاقة - الغاشية - القارعة - الإعادة- الحشر - الآزفة - يوم الحساب - لقاء الله - الخلق الجديد - يوم النشور- الحيوان.(١)

الألفاظ المقابلة:

وهي التي يتحرر بمعرفتها أحكام ما يقابلها من الأضداد والنقائض على ما بيناه مراراً، مثل:

الدنيا - الأولى - النشأة الأولى - الخلق الأول - البدء - الموت - القبور - الأجداث - المرقد.(٢)

وهذه يحتاج إليها عند إرادة الاستقصاء الكلي للموقف القرآني من الموضوع.

ثالثاً: من أسرار الإعجاز القرآني في الألفاظ

هذا وقد آثرت اختيار عنوان "الآخرة" على غيره من الألفاظ، بعد تأمل للألفاظ الجليلة، الواردة في الموضوع، ولذلك كان أكثرها دورانا في القرآن الكريم، لأنه أوفاها جميعاً، أما بقية الألفاظ فكل منها يمثل جزءاً، أو مشهداً، أو حالة، من الهيئة الكلية "للآخرة" على ما نبينه بإيجاز:

(أ) فمثلاً لفظ: "القيامة" هو أشهر الألفاظ عند الناس، ولكن القرآن الكريم

(١) لم إلا في آية واحد "وإن الدار الآخرة لهي الحيوان" العنكبوت: ٦٤. بمعنى: الحياة الخالدة الدائمة التي لا موت فيها أبداً.

(٢) كل هذه الألفاظ السابقة بأقسامها المختلفة موجودة في القرآن الكريم، ويرجع إليها في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

أورده ٧٠ مرة فقط، وبلفظ "يقوم، وتقوم"[١] أورده تسع مرات، وبلفظ "قيام" أورده مرة واحدة[٢] فهذه جميعاً ٨٠ مرة ، أي نصف عدد مرات لفظ العنوان تقريباً.

وهذا ضرب من إعجاز القرآن البالغ، لأن "لفظ" القيامة لا يمثل "الآخرة" كلها لسببين:

الأول: من حيث الوضع اللغوي، لأن أصله القيام بمعنى الوقوف، أو النهوض، "وأدخلت (الهاء) تنبيها على وقوع القيامة دفعة واحدة".[٣]

الثاني: من حيث الحقيقة الشرعية، لأن "القيامة" عند التحقيق لا تطلق إلا على: "ما بين نفخة البعث إلى أول دخول الجنة أو النار".

أما ما قبل ذلك أو ما بعده هو من الآخرة، وليس من القيامة .

(ب) ويليه لفظ: "**الساعة**" وقد ورد في هذا الموضوع (٤٠ مرة)، أي نصف عدد ألفاظ القيامة، لأن "الساعة" في الأصل: جزء قليل من الزمان"، والمراد به شرعاً: ذلك الجزء الذي تقوم فيه القيامة، وهو وقف خاطف، بالغ السرعة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧].

ولذلك اختص بعلمه الله تعالى وحده، وجعل على رأس مفاتيح الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا

(١) مثل: "يوم يقوم الناس لرب العالمين" المطففين: ٦، "ويوم تقوم الساعة" الروم: ١٢ : ١٤..

(٢) في قوله تعالى: "فإذا هم قيام ينظرون" الزمر: ٦٨.

(٣) المفردات للراغب ص٤١٧ بتصرف.

لوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾

[الأعراف: ١٨٧]

هذا هو الأصل في معنى الساعة، وهي بهذا (جزء مخصوص) من الهيئة الكلية الشاملة التي تدل عليها "الآخرة".

وقد يطلقها القرآن الكريم على ما يقابل "القيامة" فقط: باعتبار أنها عند الله تعالى كساعة واحدة في سرعة الحساب، كما قال تعالى: ﴿وَهو أسْرعُ الحَاسبين﴾

[الأنعام: ٦٢]

أو باعتبار تقدير الكفار لمدة الدنيا كلها، أو ما بين موتهم وبعثهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

(جـ) ثم يليهما لفظ: "البعث" وقد ورد في القرآن الكريم إثباتاً للبعث بهذا اللفظ وما تفرع منه (٣٠ مرة) تقريباً.(١)

وهو أيضاً معنى "جزئي" من معاني الآخرة لأنه في الأصل: "إثارة الشيء وتوجيهه"(٢) كما قال تعالى: ﴿والمَوتى يبعثهم الله﴾ [الأنعام: ٣٦].

أي يثيرهم ويخرجهم من قبورهم ويسيرهم إلى الموقف، فهو ملحوظ فيه بيان الكيفية التي يقام بها الموتى كالنخسة التي ينبعث بها البعير للحركة، ومنه قوله تعالى:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩].

ويتلخص من هذه النظرة الموضوعية:

(١) نذكر بالتقريب لأن هناك آيات محتملة لأكثر من معنى، وأيضاً حذفنا من العد ما قاله الكفار إنكاراً للبعث، وهذا كله نحو ثماني مرات فقط.

(٢) المفردات ص٥٢.

أولاً: أنه لا يوجد لفظ قرآني يدل على المعنى الكلي للموضوع باعتبار مقدماته، ووسطه، وامتداده إلا هذا اللفظ الجامع: "الآخرة"، ولذلك كرره القرآن أكثر من غيره، حتى بلغ نحو ١٥٠ مرة.

ثانياً: أن كل لفظ من أسماء (الآخرة) وصفاتها جعل له معنى معيناً يؤديه، فليس بين الألفاظ ترادف إطلاقاً، وإنما بينها فوارق غاية في الدقة، وكل منها يبرز جانباً من المعنى الكلي، فتتكامل في أداء الموضوع من جميع جوانبه.

ثالثاً: يدير القرآن العظيم إيراد الألفاظ على نظام بالغ الإعجاز:

فاللفظ الجامع تكرر: (١٥٠) مرة تقريباً.

واللفظ الذي يليه: القيامة تكرر (٨٠) مرة.

واللفظ بعده: الساعة تكرر (٤٠) مرة.

واللفظ بعدهما: البعث تكرر (٣٠) مرة تقريباً.

ويلاحظ أن الألفاظ الثلاثة الأخيرة بلغت أيضاً: (١٥٠) مرة تقريباً، فتأكد لنا أن ها هنا تفرقة مقصودة بين الكلي والجزئي من المعاني، وأنه رتب عليها التدرج العددي في ذكر كل لفظ، ليتناسب العدد[١] مع حجم المعنى، وليتفاوت مع غيره بميزان، وكل هذا ضرب من الإعجاز البالغ، في كتاب كان يتزل لفوره سفراً وحضراً وفراغاً وشغلاً، وسلماً وحرباً، ثم تتباعد نجوم الموضوع الواحد منه خلال ذلك كله، وتتعدد وقائعه وأسبابه، وهذا أمر فوق طاقة علم العلماء جميعاً ولو أرادوه، فكيف وقد نزل على ذلك الرجل الأمي؟ وفي أمة أمية لا تكتب ولا تحسب؟

(١) ليس مرادنا هنا الحديث عما يسمى (بالإعجاز العددي)، وإنما القصد هو إبراز الإعجاز في تناسب العدد مع أهمية اللفظ، أو تناسب معنى اللفظ مع عدده، والله أعلم.

إن كل عقل منصف في الأرض ليهتف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما علمه مولاه: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

رابعاً: غاية السعة في تناول الموضوع:

لقد تحدث القرآن الكريم طويلاً في شأن (النشأة الآخرة) وفصل أمرها تفصيلاً شاملاً، وتناولها من كل أبعادها وأقطارها، وأكثر إكثاراً بالغاً من مناقشة الكفار عنها، وإقامة الأدلة عليها، وإبطال شبهاتهم الفاسدة في شأنها، واستبعادهم الجدلي لها.

ولقد اعتبرنا القرآن الكريم "الأصل الثاني" من أصول الدين بعد الإيمان بالله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ولما كان هذا الأصل شديد الإيغال في طيات الغيب، كان أكثر الأصول إنكاراً واستبعاداً من الكفار،[1] وبالتالي أكثر الأصول جميعاً تناولاً في القرآن.

والنظرة الأولى لأسماء السور القرآنية تعطيناً دلالة هذا الاهتمام القرآني البالغ بالآخرة:

فتارة تسمى السور باسم مباشر من أسمائها مثل سور:

(القيامة – الواقعة – الحاقة – الغاشية – القارعة – النبأ العظيم)

وتارة تسمى السور بشيء من المظاهر الكونية الهائلة التي تمهد لها مثل سور:

(الدخان – التكوير – الانفطار – الانشقاق – الزلزلة).

وتارة باسم ما يقع فيها مثل سور:

(١) الله عز وجل هو الغيب المطلق، لكن آثاره ظاهرة في كل شيء، فكان إنكار الكفار له أقل والله أعلم.

(الأعراف- الزمر - الجاثية - الحشر - التغابن - المعارج).[1]

فهذه أسماء سبع عشرة سورة تتعلق بالآخرة، ولم يقع مثل هذا قط لأي أصل من أصول الإيمان في القرآن الكريم.

فإذا تجاوزنا هذه الملاحظة الشكلية - مع أهمية دلالتها - فإننا نجد - من الناحية الموضوعية - معظم سور القرآن الكريم تشتمل على ذكر الآخرة، أو ما يتعلق بها، إجمالاً أو تفصيلاً، مرة واحدة في السورة القصيرة، أو مرات كثيرة متعددة في السور الأخرى، كالمثاني والمئين فضلا عن السبع الطوال.

وقد رأينا سابقاً نماذج لتكرر أسمائها عددياً خلال القرآن الكريم.

ومن هذا كله يتبين أن حديث القرآن عنها بالغ السعة والشمول، وسنوجز بعضه فيما يأتي:

حقيقة لا ريب فيها:

فحديث القرآن الكريم عن الآخرة هو حديث الجزم القاطع، واليقين البالغ، باعتبارها حقيقة مقررة في علم الله تعالى: وآتية لا ريب فيها قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

وكلما أمعن الكفار في الإنكار أمعن القرآن في تأكيدها، بشتى الأساليب والدلائل، كالتعبير عنها "بالفعل الماضي" كأنها وقعت وفُرغ منها، فلا محل للجدل فيها، قال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ الله فلا تَسْتَعْجِلوه﴾ [النحل: ١].

وكالقسم الدائم عليها، وأعظمه ما أقسم فيه بذاته العظمى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن: ٧].

(١) من هذه السور ما هو مشترك بين القيامة وغيرها، وعددناه هنا بناء على أصح الوجوه في تفسيرها، والله أعلم.

غاية الوجود وحكمته:

وقد بين القرآن العظيم أن الآخرة هي الجانب الذي يحقق حكمة الخلق، ومعنى الوجود، لأنها غاية جزاء ومصير للخلائق، تصون وجودهم عن العبث واللعب، وتحفظ مصيرهم عن البطلان والضياع، وتجعله حقاً خالصاً، وحكمة تامة. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ • مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ • إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

[الدخان: ٣٨-٤٠]

فقد نفت الآيات الكريمة اللعب عن خلق السموات والأرض وما بينهما، وربطت ذلك بالحق المؤكد على سبيل القصر والحصر، وما ذلك إلا بتقرير الله تعالى أن هناك يوماً يفصل فيه بين الجميع.
وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ﴾ [الحجر: ٨٥].

فقد ربطت الآية الكريمة بين (الخلق، والحق، وإتيان الساعة)، إذ لو تجرد الخلق عنها لضاع منه وجه الحق والحكمة بهذه النهاية الجائرة، التي يستوي فيها المحسن والمسئ.

ولقد كان هذا هو ظن الجاهلية دائماً، ووهمها الدائم الذي أبطله القرآن:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ • أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

ولذلك تنزه الله تعالى عن هذا العبث تنزها بالغاً حاسماً فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ • فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ضرورة لضبط الحياة الدنيا:

ويقرر القرآن العظيم أمراً بالغ الأهمية هو: أن الآخرة - حقيقة وتكليفا - هي الحافز والرادع الذي لا بديل له بعد التوحيد، لضبط وإصلاح الحياة الأولى، ولولا أن الله تعالى قررها وركز لواءها لتحولت الحياة الدنيا إلى غابة وحوش، وفوضى صراع لا سبيل فيه إلا انتحار المجتمعات واندحار الحضارات، وانهيار الحقائق والقيم التي تقوم عليها الحياة، وتحولها إلى سعار مدمر، وشجار رهيب.

ولذلك يربط القرآن كثيراً بين مظاهر الخلل والفساد وبين إنكار الآخرة، أو إهمال شأنها، قال تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

فعدم الإيمان بالآخرة جعل قلوبهم مفعمة بالإنكار، والاستكبار، وقد حُذف المفعولان للتعميم، فهم ينكرون الحق ويستكبرون عليه، وهم ينكرون حق الأمم والشعوب في عقيدتها وحريتها، ويستكبرون عن الاعتراف به، وهكذا دائماً كان الكفار والطواغيت، ولا يزالون.

ولعل فتنة الحضارة المعاصرة بعلومها ترجع إلى هذه العلة القاتلة، كما قال تعالى في أمثالهم: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].

وفي الجانب الآخر يربط القرآن بين ضروب البر والخير عند المؤمنين، وبين إيمانهم بالآخرة:

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى • وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا • فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى • وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى • فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

وهذه مقارنة على غاية الإيجاز والإعجاز بين الجانبين:

فكل من يفضل الدنيا على الآخرة، يطغى، ويجاوز حدود الحق والخير إلى الضلال، وكل من يخاف مقام الحساب بين يدي الله، يكف نفسه عن هواها، وشهواتها، وفجورها، وأحقادها، فيصبح رحمة وبركة في الدنيا، وتكون الجنة مأواه، وكل نفس بما كسبت رهينة.

إنكار الكفار لها بلا دليل:

لقد أوغل الكفار في إنكار الآخرة، واستبعاد وقوعها، ولم يكن لديهم أدنى دليل على ما يزعمون، ولذلك كانوا منها في أمر مريج، وتخبط ظاهر:

فتارة يعتصمون بذلك الاستبعاد السلبي الساذج:

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

وتارة يتخبطون في أودية الظنون والشكوك:

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمِونَ﴾

[النمل: ٦٦].

والمعنى: أن علمهم بالآخرة تتابع وتأكد بما قام عليها من دلائل، لكنهم تَرنَّحوا في الشك المريب، ثم عموا عن دلائلها لأن هواهم في إنكارها.

وثالثة يتعلقون بشبهات واهية يسوقونها تعجيزاً وإعْنَاتاً:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥].

أدلة القرآن على وقوعها:

لذلك أكثر القرآن الكريم من الرد على الكفار، وإقامة الأدلة على إمكانها، بل تحققها، ووقوعها ومن ذلك:

(أ) حين طلبوا إحياء آبائهم ليخبروهم عن الآخرة، لم يكونوا جادين في طلب الدليل، لذلك رد عليهم القرآن العظيم:

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾

[الجاثية: ٢٦]

والمعنى: إن الله تعالى أحيا آباءهم من قبل فدرجوا على الأرض إلى آجالهم، ثم أماتهم، وأحيا هؤلاء المنكرين ثم يميتهم، فلا يمتنع عليه أحد في الحالين، فلا معنى لإنكار الإعادة إلا المكابرة المحضة.

وهو كما نرى دليل حسي على البعث، يراه الأب في أبنائه حين يولدون، ويراه الأبناء في آبائهم حين يموتون، فما طلبوه - تعجيزاً - هو واقع مكرر بين أيديهم، لو كانوا صادقين حقاً في طلب الدليل، ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى:

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ والمراد والله أعلم - نفي العلم النافع، الذي ينقذهم من المراء والحيرة، وإلا فهم قد علموا دليل الآخرة عن يقين.

(ب) أن الله تعالى - باعترافهم - هو الخالق، وأمر الإعادة في حكم العقل السليم أهون من البدء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وهذا خطاب لهم بمقتضى ما يعقلون، وإلا فإن الله تعالى يستوي في قدرته الشاملة كل شيء، كما قال تعالى في إيجاز بالغ غاية الإعجاز ﴿ما

خلقكم وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وبذلك يتقرر أن استبعاد الكفار للآخرة، هو تناقض بيِّن، لا يملكون عليه دليلاً، بل هو على عكس البرهان والحجة.

(جـ) الاستدلال بضخامة الكون، وضآلة المنكرين، ولا شك أن خالق هذه الكائنات والأجرام الشاسعة، يقدر على إعادة المخلوقات الضعيفة كالإنسان، قال تعالى:

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

(د) الدليل الحسي في الأحياء أمام أبصارهم:

وقد قدمنا استدلال القرآن بالإحياء والإماتة لآبائهم وأبنائهم، ونذكر هنا استدلال القرآن لهم بدورة الحياة المتعاقبة في النبات، والتي يرونها جميعاً في الأرض الهامدة اليابسة، فإذا نزل عليها الماء اهتزت بالخضرة والنماء، وأنبتت من كل زوج بهيج.

لقد كانت البذور مستكنة في تربتها لا تراها العيون، فلما جاء أوانها أحيا الله هامدها، فأي فرق بين الحياتين عند العقول المنصفة؟ قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق:١١].

أي أن الماء ينزل على البذور، فتنبت وتموج بالحياة، ومثل ذلك يكون خروج الناس من قبورهم للبعث والحساب.

ومن المفيد هنا بيان أن هذا ليس تشبيها تمثيليا مجازياً، وإنما هو تشبيه حقيقي

تماماً، بدليل أن الآية الأولى إخبار لا تشبيه ﴿إن الذي أحياها لمحي الموتى﴾ وقد شرح النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآيات وأمثالها في القرآن الكريم، وبين أنها مراد بها الحقيقة، ومن ذلك قوله عليه السلام: "ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، قال وليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظما واحداً وهو عجْب الذَّنَب، ومنه يُركب الخلق يوم القيامة".[1] -

من مشاهد الآخرة :

وهي مشاهد بالغة الهول والعجب، تبدأ بمقدمات اليوم الآخر، وتتبع بمشاهد يوم القيامة حتى الفصل بين الخلائق ثم تستمر في الدار الآخرة استمراراً أبدياً بين الجنة أو النار.

وقد استفاض القرآن الكريم في عرضها، وبيانها، ومقارنتها، استفاضة بالغة، وبأساليب شتى، وسنعرض بعضها هنا في إيجاز، لكثرتها الكاثرة، وتنوعها العجيب:

١- نفخة الصعق:

وهي النفخة الأولى التي يُبَاغت بها الكون، فتختم بها النشأة الأولى، وينتهي بها كل أثر للحياة والأحياء، إلا من شاء الله، وتبدأ بها مقدمات النشأة الآخرة، فيتصدع الكون وتنقلب قوانينه بإذن ربه، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاء اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

والصّور "بُوق" عظيم، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام كما جاء في السنة، والصعق "الموت" ، ويبقى بعض الأحياء بأمر الله كجبريل وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، ثم يقبض الله تعالى كل حي بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

(١) رواه مسلم (٨/ ٢١٠) كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين. وانظر البخاري (٦/ ٣٤).

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ • وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

٢- نفخة الإحياء:

وهي النفخة الثانية، التي يردّ الله تعالى بها الحياة لكل ميت، وبينها وبين الأولى مدة ما،[1] بدليل حرف العطف ثم في قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وهذه النفخة يفزع منها كل حي حينئذ من الأولين والآخرين، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٧].

وهؤلاء الذين لا يفزعون منها بمشيئة الله هم الصالحون كما جاء بعدها" ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٩].

٣- تصدع الكون وتبديله:

وقد أخبرنا الله تعالى أن الكون كله سيصيبه تصدع هائل يشمل جوانبه جميعاً، ويبدأ ذلك من النفخة الأولى، ويستمر مع النفخة الثانية، حتى يتحول الكون ويتبدل، وتنقلب خلال ذلك نظمه، وقوانينه، ومعاييره، انقلابا بالغ العنف والعصف، شامل الفزع والروع، في السموات والأرض جميعاً.

أما الأرض فتتزلزل زلزالاً عظيماً ، وترج رجاً عنيفاً، وتتمدد وتتشقق،

---

(١) لم يذكر القرآن العظيم هذه المدة، وقد جاء في حديث أبي هريرة المتفق عليه ألها (أربعون) قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً قال: أبيت، قالوا أربعون شهراً، قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة قال: أبيت) أي نسي مقدار المدة التي قالها النبي صلى الله عليه وسلم . انظر البخاري (٦/ ٣٤)، ومسلم (٨/ ٢١٠).

وتتصدع من جوانبها جميعاً، بل تدك دكة واحدة، حتى تتبدل شيئاً آخر في نهاية الأمر.

أما ما عليها من أحياء وأشياء فيتابعها القرآن حتى يجليها للناس كأنها رأي العين، ولمس اليد، بعبارات قارعة تملأ النفس هولا ورعباً:

فالجبال تنسف نسفاً، حتى تصير كثَيباً مهيلاً، وهباء منبثاً، أو كالصوف المنفوش، يتطاير في الفضاء، ويمر مرّ السحاب.

أما البحار فتُفَجر وتُسجر وتنقلب ناراً.

أما القبور فتبعثر، وتتشقق، ويخرج منها أهلها سراعاً

أما السماء فتتشقق وتتصدع، فتصير وردة كالدهان ، وتذوب مادتها فتصير كالمهل،[1] وتصبح هشة واهية حتى تتبدل في نهاية التحول إلى شيء آخر.

أما أجرامها العظام فيصيبها التغير التام، فتعتم وتظلم شمسها، وتطمس نجومها، ويخسف قمرها، وتتناثر كواكبها.

وكل هذا وأكثر منه قد ذكره القرآن العظيم نصاً، وفصله تفصيلاً، أو أجمله إجمالاً، فمن هذا الإجمال الجامع قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

---

(١) المهل هو: عكر الزيت، أو الشيء المذاب والله أعلم، ومعنى (وردة كالدهان) قريب من هذا أي: أنها تصير حمراء، من شدة الحرارة، ثم تذوب كالدهن.

ومن التفصيل الذي يخلع القلوب قوله تعالى:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة: ٤].

﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ • وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ • وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣-٥].

﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ • وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩،٨].

وقال تعالى: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦].

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ • وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [1][التكوير: ١، ٢].

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [2][المرسلات: ٨]، ﴿وخَسَفَ القَمرُ﴾ [القيامة: ٨].

ومن يقرأ القرآن العظيم يجد ذلك مبثوثاً في معظم سوره، خاصة السور المكية التي نزلت تأسيساً للعقائد، كالواقعة، والحاقة، والقيامة، والتكوير، والانفطار، والانشقاق، والقارعة.

ولسبب حكيم سميت هذه السور بأسماء القيامة ، ومظاهرها المروعة، حتى لا تغيب دلالتها وتذكرها عن القلوب الواعية.

هذا وقد أتعب بعض المفسرين أنفسهم في ربط هذه التغيرات الهائلة بإحدى النفختين على التحديد، وهي أمور لا مجال فيها للاجتهاد والرأي، وإنما طريقها النقل

---

(١) كورت ذهب نورها، وانكدار النجوم سقوطها.

(٢) طمست : ذهب ضوؤها.

الصحيح، أو الاستنباط من مقارنة الآيات الكريمة ، بعد جمعها، ودراستها، ومراجعة ما ورد في تفسيرها من السنن الصحيحة.

والذي يظهر من تأمل الآيات الكريمة أن هذه التحولات الهائلة تتم تباعاً بإذن ربها، فتبدأ مع النفخة الأولى، وتستمر بعدها، حتى تدركها النفخة الثانية، فيرى الخلائق - بعد البعث - حقائقها، ونهاياتها، ويشاهدون أحوالها وأهوالها في مواطن هذا اليوم المشهود كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقد أشار العلامة "أبو السعود" إلى مثل هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

يقول رحمه الله :

"وهذا مما يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق، يبدّل الله عز وجل الأرض غير الأرض، ويغير هيئتها، ويسير الجبال عن مقارها، على ما ذكر من الهيئة الهائلة، ليشاهدها أهل المحشر، وهي وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى، لكن تسييرها، وتسوية الأرض إنما يكون بعد النفخة الثانية، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا • فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا • لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا • يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾(١). [طه: ١٠٥- ١٠٨]. فإن اتباع الداعي الذي هو إسرافيل عليه السلام لا يكون إلا بعد النفخة الثانية".

٤- أحوال الناس من البعث إلى الفصل:

من خلال هذه الانقلابات الكونية الرهيبة، يعرض القرآن أحوال الناس في عرصات القيامة، وما يلقونه من أهوال وشدائد، والمواقف التي يستوون فيها جميعاً، والمواقف التي يفترقون فيها على أساس الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، وذلك منذ

(١) المراد تسويتها تسوية كاملة، ومعنى قاعاً: منبسطاً، وصفصفاً: مستويا، وعوجاً: انخفاضاً، وأمتا: ارتفاعاً.

الزجرة الأولى التي بعثوا بها من القبور، إلى سوقهم زمراً إلى الجنة أو النار، وما بين ذلك من مشاهد الحساب والفصل بين يدي الملك الديان، على ما نوجزه في الفقرات التالية:[1]

أولاً: الشتات الشامل:

وهو الهيئة العامة التي تعتري الناس جميعاً للوهلة الأولى، حيث يبغتهم البعث فيبهتهم، ويخرجون من القبور سراعاً على غاية التشتت والذهول، ويُصدمون بمظاهر التصدع الكوني الهائل، فيهيمون على وجوههم حيارى، بلا وجهة ولا نظام، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦]، والمراد أنهم يرجعون إلى ربهم من قبورهم على هذه الهيئة، ويقال: "جاءوا أشتاتاً أي: متفرقي النظام"،[2] وهذا ما فصله القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]، ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ • خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ • مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[3] [القمر: ٦-٨].

يقول الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره الكبير:

"شبه الله تعالى الخلق وقت البعث هنا بالفراش المبثوث، وفي آية أخرى بالجراد المنتشر، أما وجه التشبيه بالفراش، فلأنه إذا ثار لم يتجه إلى جهة واحدة، بل كل واحدة تذهب إلى غير جهة الأخرى، فدل على أنهم إذا بعثوا فزعوا.

---

(١) تذكر الفقرات متتابعة تمييزا وتقسيماً لا ترتيباً، فإن بعضها متداخل في بعض.

(٢) مفردات الراغب، مادة "شتت"، ص: ٢٢٥.

(٣) مهطعين: مسرعين مادي أعناقهم إلى الأمام، من شدة السرعة والخوف وذلك حين يطول إسرافيل النفخة الثانية وبعدها حتى يجمع هذا الشتات المتفرق.

وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة، يصبحون كغوغاء الجراد، يركب بعضهم بعضاً."

وهذه الصدمة الأولى مما يستوي فيه الجميع، من فرط البغتة والشدة، ولذلك جاءت الآيات بلفظ العموم: ﴿يَصْدُرُ النَّاسُ ... يَكُونُ النَّاسُ﴾ والله أعلم.

ثانياً: الحشر والتمييز بين المؤمن والكافر:

ثم يجمع هذا الشتات، على صوت المنادي ويحشرون جميعاً في أرض الموقف، ويدرك فضل الله المؤمنين، فتبشرهم الملائكة، ويزايلهم هول الصدمة الأولى، ويستمر البلاء على الكفار والمجرمين متصاعداً، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

والحشر إخراج الجماعة، وإزعاجهم إلى الحرب ونحوها من مواطن الفزع[(١)]

أما المؤمنون فيقول تعلى عنهم:

﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

أما الكافرون والمجرمون الظالمون فيتفاقم الأمر عليهم آناً بعد آن:

فهم يصرخون بالويل لأول البعث: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ • قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥١،٥٢].

ويوسمون بوسم الذل والصغار ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

(١) وقد يطلق على الجمع للخير: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا﴾.

والمراد كما يقول المفسرون - زرقة العيون- تقبيحاً لهم، وتمييزا لهم بما عن المؤمنين، الذي يلقون النضارة والسرور.

ثالثاً: طول الموقف وحكمته البالغة:

ويخبر القرآن العظيم أن الناس يطول الموقف بهم طولاً بالغاً، بما لا عهد للناس به، ولا طاقة لأحد عليه ، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

يقول بعض المفسرين:

"الكلام من قبيل التمثيل والتخييل فليس المراد حقيقة ذلك العدد، بل المراد الإشارة إلى أنه يطول على الكافر لما يلقى فيه من الشدائد" وقد نبهنا في الأصول السابقة إلى خطر هذا اللون من التفسير، وأنه يفتح الباب إلى هدم الثقة في حقائق الشرع وأخباره، خاصة في باب العقائد، ولذلك نجزم هنا بأن العدد على حقيقته، ولا سبيل إلى صرفه وتأويله بتكلفات لا معنى لها، لأن القرآن كلام رب العالمين، وقد وضع على أتم المقادير والموازين، ولو راد الله تعالى التقريب أو التمثيل لجاء بالعبارة المفيدة ذلك تماماً.

ولقد وقع الخطأ والخلط من قياس القرآن على أساليب العرب المجردة، وقطعه عن خصائصه المميزة، ثم من قياس الغائب على الشاهد، وعدم ملاحظة الفارق الشاسع بين مقاييس النشأتين، فضلاً عن أن هذا "خبر عن حقيقة" فلا يحتمل التأويل، وإلا أفضى إلى وصف الكتاب الحق بالكذب والعياذ بالله تعالى.

فالحق المتعين، والذي يقتضيه الشرع، والعلم، والأدب مع الله تعالى وكلامه هو الاعتقاد التام بأن هذا وأمثاله هو على حقيقته، والله تعالى أعلم بكيفيته، ولا بد من الإيمان به على وجهه القرآني الصريح، ولا علم لنا إلا ما علمنا الله تعالى من هذه الغيوب.

على أننا نقول: إن هذا العدد مقصود به الحقيقة إظهاراً للعدل الإلهي التام، لأنه يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين، وهم لا يحصون كثرة إلا في علم الله تعالى، ثم يحاسبهم فردا فرداً، وعلى كل صغيرة وكبيرة، ثم يتيح لكل منهم الفرصة الكاملة للدفاع عن نفسه، ولو بالجدل والكذب (كما سنبين بعد قليل إن شاء الله تعالى) لأنه على هذا الحساب سيتقرر مصير الأبد، -وحياة الخلد، فكيف يستطيل العقل هذا العدد؟

إنه لو خُلي إلى مقاييسه لحكم بأن هذا العدد قليل جداً بالنسبة إلى هذه الجموع التي لا يحصيها العدّ، وإلى هذه الأعمال التي لا يحصرها الإحصاء، ولولا أن الله تعالى هو ﴿أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ لاحتاج الحساب إلى مئات الألوف من السنين.

ولا يقال هنا إن الله تعالى قادر على هذا الحساب في أقرب من لمح البصر، لأنه حقاً على ذلك قدير، ولكن القضية تتعلق بسؤال الخلق، وردهم، وجدلهم، ومعاذيرهم، وقد جاء الطول من هذه الجهة، لا من جهة القدرة الإلهية الباهرة.

والمقصود بالذات هو التنبيه على خطر التأويل في حقائق الدين، خاصة ما جاء في القرآن الكريم ، باعتباره كلام الحكيم الخبير، المحفوظ المتواتر بألفاظه وحروفه، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

رابعاً: أحوال الموقف وأهواله ومشاهده:

ويعرض القرآن مشاهد كثيرة عن هذا اليوم الطويل تتعلق بأحوال الخلق، وما يلاقونه من أهوال في ذواتهم، وما يتتابع عليهم في المواطن المتعددة، حتى يساقوا للحساب، ومن ذلك:

(أ) تقطيع الأنساب والأسباب:

ففي هذا الموقف يموج بعضهم في بعض، وتتقطع كل علائق الدنيا، وتتمزق

روابط الزيف والخداع، وتهمل الأنساب والوصلات، ويصبح الفرار شعار الجميع، والنجاة بالنفس مطلب كل نفس، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]. ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

(ب) تباين الأحوال:

ففي هذا الموقف الطويل تتعدد المواطن فتتباين الأحوال، وتختلف الأقوال والأفعال: فتارة يؤذن لهم في الكلام، فيتساءلون، ويتلاومون، ويتسابُّون، ويتبرأ الأصدقاء من بعضهم البعض، وتلعن الأمم طواغيتها، وسادتها، ورؤساء الضلال فيها، قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۝ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٢٧-٢٩].

وهي محاورة يائسة بين الطواغيت والمستضعفين، لا تغني عنهم شيئاً. ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وتارة يختم الله على أفواههم فلا ينطقون حرفاً من شدة الفزع والروع: ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ ۝ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المراسلات: ٣٥،٣٦].

وهذا أصل جامع في فهم هذه القضايا المتعارضة: مثل: إثبات الكلام لهم ونفيه عنهم، وإثبات التساؤل ونفيه، وإثبات الاعتراف بالذنوب وإنكارها كما قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. فهذا كله وأمثاله يحمل على اختلاف الأحوال باختلاف المواطن، وقد روى هذا عن ابن عباس وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.[1]

---

(١) انظر تفسير فتح القدير للشوكاني في الآية رقم ١٠١ من سورة المؤمنون.

(جـ) المقام المحمود (أول شفاعة في هذه الأهوال):

يعرض القرآن الكريم مشاهد من الهول والرهبة يصل فيها الناس إلى غاية الكرب، وذلك حين يشتد المقام، ويطول الموقف، ويمتد الوجل والانتظار، حتى على المؤمنين والملائكة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾

[طه: ١٠٩].

وأول شفاعة أذن بها الرحمن جل شأنه هي التي سماها القرآن: "المقام المحمود" ووعد بها محمداً صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وقد ثبت تفصيل هذا في السنة[١] حتى بلغ درجة التواتر كما قال الشوكاني رحمه الله[٢] وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، لشفاعته في إراحة الخلق من طول الموقف.

(د) الحساب والفصل:

وهذا هو أشد المواقف هولاً على الهول، إذ تنصب فيه الموازين، وتنشر الدواوين، وتنكشف الأسرار والأستار، وتظهر السرائر، وتتقرر المصائر، ويكون الجميع على غاية الوجل، لأن كلا منهم لا يدري ما الله قاض فيه؟

وقد استفاض القرآن العظيم في عرض مشاهد هذا الجانب بما يخلع القلوب

(١) انظر هذا في البخاري (٥/ ٢٢٥) كتاب التفسير، تفسير سورة الإسراء.

(٢) فتح القدير (٣/ ٢٥٢) في تفسير آية الإسراء المذكورة، ويلاحظ هنا أن الأصل ثابت بالقرآن، وقد جئنا بالسنة شارحة لا منشئة لعنصر، لأننا في مجال "الموضوع القرآني" كما قلنا في الأصول السابقة، لا نثبت إلا عناصر القرآن فقط.

خلعاً ويبكي العيون دماً لا دمعاً، نسألِ الغفور الرحيم العفو والعافية، من هول هذا اليوم العصيب الرهيب.

ومن هذه المشاهد:

١- كل أمة جاثية:

وهذا هو الانتظام الأكبر في المحشر، لقد كانت الخلائق كالفراش المبثوث بلا وجهة، ثم صاروا كالجراد المنتشر متجهين إلى صوت الداعي، ثم حشروا في أرض الموقف، ثم جمعوا أمماً كما كانوا في الدنيا، كل أمة تتبع نبيها، ثم تبرك الأمم على ركبها، في انتظار الشهادة العامة لكل نبي بالبلاغ، قال تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ • هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

و"جاثية" من الجثوة: وهي الجماعة.

أو من الجثو: وهو البروك على الرُّكب ، وكلا المعنيين مراد هنا، فكل أمة تأتي مجموعة متميزة، ثم تبرك مستوفزة على رُكبها، قال سفيان "المستوفز الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله"، قال الضحاك" وذلك عند الحساب، وهذا عام للمؤمن والكافر انتظاراً للحساب.

فإن قيل المؤمنون لا خوف عليهم يوم القيامة ، فالجواب: إن المحقّ قد يشارك غيره في هذه الحالة، إلى أن يظهر كونه مُحقّاً".[1]

ومما يزيد الأمر هولاً كون هذا البروك حول جهنم: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨].

---

(١) انظر حاشية الجمل على الجلالين (٤/ ١٢٠) تفسير آية الجاثية المذكورة، مع تصرف يسير.

٢- الرسل شاهدة:

وقد قرر القرآن أن الله تعالى لم يدع أمة إلا وبعث فيها رسولاً: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾ [النحل: ٣٦].

وفي هذا الموطن يجاء بالرسل عليهم السلام ، فيسألهم الله تعالى في مواجهة الأمم السؤال العام، الذي يتقرر به الحساب العام، فيشهدون على أممهم بالبلاغ، وأداء أمانة الوحي إليهم، وهذا الموقف من أشد المواطن هولاً على الأمم جميعاً، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَــؤُلاء ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا من كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَــؤُلاء شَهِيدًا • يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١، ٤٢].

وهذا الموقف هو الذي أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم طلب من ابن مسعود رضى الله عنه أن يقرأ عليه القرآن، فقرأ حتى بلغ هذه الآية الجليلة، فقال له صلى الله عليه وسلم "حسبك الآن" فإذا عيناه تذرفان.[١]

وهذا الموقف من أشد المواقف على الرسل أنفسهم عليهم السلام، لأنهم يُسْألون سؤالين: هل بلغتم؟ وبماذا أجابتكم الأمم؟ وهذا الأخير أشدها، لأن في جوابه هلاك الأمم الضالة جميعاً، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وعن مجاهد رضى الله عنه قال: "يفزعون فيقولون لا علم لنا، فترد إليهم أفئدتهم فيعلمون"، وعن السُّدي في الآية قال: "ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول فلما سئلوا قالوا: لا علم لنا، ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم".[٢]

(١) البخاري (٥/ ١٨٠) تفسير سورة النساء، وتذرفان: أي يسيل دمعهما.

(٢) انظر أسانيد هذه الآثار في فتح القدير (٢/ ٩١) في تفسير الآية الكريمة.

٣- اعتراف الأمم:

ويقرر القرآن العظيم، أن الله تعالى إتماماً لحجته البالغة، وعدله الأعلى، يسأل الأمم هذا السؤال العام عن البلاغ، ويترك لهم الفرصة للمعاذير والإنكار إلى أن يقيم الرسل عليهم الحجة، قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ • فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦، ٧].

وفي الآية الكريمة التي تقدمت اضطرارهم للاعتراف تحت وطأة الحجج: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

٤- الحساب الفردي:

فإذا قامت الحجة العامة الشاملة بالبلاغ النبوي للأمم، قام الحساب الفردي الشخصي لكلٍ على حدة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا • وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٤، ٩٥]، ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١].

وهذا غاية العدل، والرحمة، وإنصاف العبد، أن تكون المسئولية شخصية، وبعد بلاغ الرسل عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥].

وفي هذا الحساب، يعطي الله تعالى لكل فرد الفرصة الكاملة الواسعة ليدافع عن نفسه، ويلقي معاذيره، ويجادل عن أعماله ولو بالكذب، والأيمان الباطلة مع علمه تعالى التام بحقيقة ذاته وأعماله، قال تعالى: ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ • كَلا لا وَزَرَ • إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ • يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ • بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ • وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[1] [القيامة: ١٠- ١٥].

(١) الوزر الملجأ الذي يلتجأ إليه من الجبل عند الفزع ونحوه.

والحساب الفردي نوعان:

- عرض فقط: وهو "الحساب اليسير" الذي يُذكر الله تعالى فيه العبد بأعماله، ويريه فضله عليه بالمغفرة والنجاة.
- مناقشة: وهو الذي يحاسب فيه العبد على أعماله جميعاً، ويناقش فيها، ويجري عليه الحكم كما سنبين بعد قليل إن شاء الله.

ومع علم الله تعالى الشامل، المحيط بالأشياء كلها، فإنه تعالى يجري هذا الحساب على أتم ضروب العدل والتحقيق، حتى لا يكون لدى أحد أدنى شك في الحكم، الذي يتعلق به مصير الفرد أبداً.

ومن ركائز هذا العدل البالغ:

أ- صحائف الأعمال:

وهي الصحف التي سجلتها الملائكة على كل فرد في الدنيا، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ • كِرَامًا كَاتِبِينَ • يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الانفطار: ١٠-١٢].

ثم توزع كل صحيفة على صاحبها بذاته:

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا • اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

ويحدد القرآن طريقة التوزيع إمعاناً في التأكيد، وبشيراً ونذيراً:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ • فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا • وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا • وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ • فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾[1]

[الانشقاق: ٧- ١١]

(١) في الحديث الصحيح شرح لهذا النص القرآني: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس أحد يحاسب إلا هلك، قالت عائشة: جعلني الله فداءك، أليس يقول الله عز وجل: "حساباً يسيرا" قال: ذاك العرض، يعرضون ومن نوقش الحساب هلك". انظر البخاري (٦/ ٨٠) تفسير سورة الانشقاق.

ويقرأ كلٌّ صحيفته، ويكثر الجدل، والمعاذير، والأكاذيب فتأتي حينئذ:

ب- شهادة الشهود:

هذا من غاية إتمام العدل، لأن علم الله تعالى، والصحف فيهما الكفاية، ولكن الله تعالى يأذن بالشهود، حتى يحقق للفرد غاية البيان، وتقوم عليه البينات الناطقات ومنها:

شهادة الحفظة: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

شهادة الأرض: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، "فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة، بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، ويوم كذا وكذا".(١)

شهادة الجوارح: وذلك عندما يماري الإنسان ويجادل ، ويتعلق بآخر خيوط الوهم ، ولا يرضى شاهداً عليه إلا من نفسه ، فيأمر الله تعالى جوارحه أن تنطق شاهدة بما عمل صاحبها، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ • وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾

[فصلت: ٢٠، ٢١].

جـ- الميزان:

فإذا قامت الحجة، وتقررت الحقائق، وتحددت الأقوال والأعمال، وصُفيت أحوال كل فرد على حدة، يأتي ميزان العدل الإلهي، الذي توضع عليه الحسنات والسيئات، ويعطي نتيجة الحساب والمصير.

---

(١) رواه أحمد والترمذي وصححه من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

وهو ميزان حقيقي، لكن الله أعلم بكيفيته، وهو أيضا ميزان بالغ غاية الدقة، والحسبان، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠].

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ • فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ • وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ • فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-٩].

أي مصيره إلى الهاوية، وهي النار الحامية، أعاذنا الله تعالى منها بفضله العظيم.

٥- الزُّمر المسوقة إلى الجزاء:

ثم يساق الناس زمراً متابعة إلى إحدى الدارين، بعد نتيجة هذا الحساب الفردي، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١- ٧٣].

والزُّمر جمع زُمْرة، وهي مشتقة من "الزَّمر" وهو "الصوت" لأن الجماعة لا تخلو عنه غالباً، والمراد بها هنا جماعات بعضهم على إثر بعض، كل أمة على حدة.[١]

أي أنه - والله أعلم - بعد الحساب الفردي يحبس الأفراد حتى تجتمع كل أمة، فتساق إلى النار أو الجنة مساقاً واحداً، كل بما يليق به من العنف، أو اللطف، كما دل على ذلك القرآن الكريم في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا • وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]. والوفد: الجماعة القادمة على ما فيه جائزة.

والورد: الجماعة القادمة إلى الماء، ولا تساق إلى الماء إلا البهائم عطاشا، فهذا

(١) حاشية الجمل (٣/ ٦١٢).

غاية التحقير للمجرمين فإذا وردوا كان جزاؤهم: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

خامساً: الصراط في القرآن (تحقيق علمي):

وقد ثبت في السنة أن الصراط جسر على ظهر جهنم،[1] يمر عليه الناس جميعاً بعد الحساب، وهو من أشد المواطن هولاً وخوفاً، ويمرون عليه كالبرق الخاطف، أو الريح العاصف، أو زحفاً.. الخ.

وقد ورد "الصراط" في القرآن الكريم (٤٥ مرة) بلفظه هذا، وكلها بمعنى "الطريق" مطلقاً، إلا ثلاث آيات تحتمل هذا، وتحتمل "الصراط" بمعناه الوارد في السنة (الجسر الممدود فوق جهنم) وهذه الآيات هي:

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٤].

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٧٧] ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

ويكاد المفسرون يجمعون على حملها على المعنى الأول فقط[2]، إلا الإمام القرطبي – رحمه الله – فقد فسرها بهذا أيضاً ثم قال:

"وقد روى عن عبد الله بن سلام تأويل هذه الآية غير ما تقدم، وتأولها على أنها في يوم القيامة، قال: إذا كان يوم القيامة ، ومُدّ الصراط نادى مناد فليقم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، فيقومون برّهم وفاجرهم، يتبعونه ليجُوزوا الصراط ،

---

(١) ثبت هذا في أحادث كثيرة جداً منها في البخاري حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (٧/ ٢٠٥) باب : "الصراط جسر جهنم".

(٢) راجع في هذا تفسير ابن كثير، وفتح القدير للشوكاني، وتفسير الخازن، والبغوي، وحاشية الجمل، والمفردات للراغب، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم، وكتاب التفسير من صحيح البخاري في السور الثلاث.

فإذا صاروا عليه طمس الله أعْين فجّارهم فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه؟ وكذا سائر الأنبياء، ذكره النحاس، وقد ذكرناه في التذكرة".[1]

وقد جاءت آيات أخرى في القرآن تشير إلى الصراط "بمعناه الأخروي" بغير لفظه مثل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا﴾ [مريم ٧١]. فقد فسر الورود هنا بوجوه منها: المرور على الصراط، فيكون ذلك وروداً لجهنم لأنه مضروب فوقها.

ويتقرر من هذا:

أن "**الصراط**" وإن كان ثابتاً بالتواتر في السنة الشريفة، إلا أنه لم يرد في القرآن الكريم صراحة، بمعناه الأخروي المحدد، ولذلك لم نضعه في أصول العناصر القرآنية، التي يتكون منها الموضوع، تأكيدا للأصول العلمية التي قررناها في قواعد التفسير الموضوعي سابقاً، والتي تمنع إضافة عنصر للموضوع القرآني من خارجه، وإنما يؤتى بالسنة النبوية وما بعدها شرحاً وتفسيراً فقط.

بيد أنني أرجح المعنى الذي ذكره الإمام القرطبي رحمه الله، لأنه متفق تماماً مع سياق الآيات في "**سورة يس**" ولو وجد سند صحيح لهذا الأثر، لكان نصاً في إثبات "الصراط" ضمن عناصر الموضوع القرآني.

ولعل السر في ذكر "الصراط" إشارة لا تصريحاً هو شيوع هذه العقيدة، واستفاضتها على السنة الرسل، واشتهارها بين الأمم، مما يجعلها كالحقيقة المقررة، والبدهية المُسلمة، تكفي فيها الإشارة القرآنية، ثم تفصلها السنة النبوية ، والله أعلم بأسرار كتابه.

سادساً: صفات الجنة والنار:

ولما كانت هذه هي غاية المنتهى، ونهاية المطاف، ودار الخلود، استفاض القرآن الكريم في بيان أحوالها، ومشاهدها، ومنازلها، وطعام أهلها، وشرابهم،

(١) انظر حاشية الجمل (٣/ ٥٢٢).

ولباسهم، وسائر ما يتعلق بهم.

أما النار - ونعوذ بالله منها - فقد فصل القرآن دركاتها، وطبقاتها وبلاء أهلها، وعدد أبوابها، واصطراخ أهلها، من طعام الزقوم، وشراب الصديد والحميم، وهول الغساق والغسلين، وثياب النار، وبشاعة المنظر، وغير ذلك كثير في القرآن الكريم.

أما الجنة - ونسأل الله تعالى منها الفردوس الأعلى بمنه وكرمه - فقد استفاض القرآن الكريم في بيان ظلالها، وثمارها، وأنهارها، وحورها، وآنية الذهب والفضة فيها وأرائكها ونمارقها، وحلل السندس والاستبرق على أهلها، وحلية اللؤلؤ والذهب لرجالها ونسائها، مع ما هم فيه من نضرة النعيم، وأنهار الخمر واللبن والعسل، والشراب الطهور، ومزاج الزنجبيل والكافور، ثم فوق هذا كله رضوان الله تعالى، وجلال النظر إليه جل شأنه،[1] في دار لا تقاس بمقاييس الدنيا، وإنما هي شيء وراء الحس والوهم،[2] على ما قرره القرآن في إيجاز معجز: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

والقرآن يذكر هذا كله بياناً للحقائق، وتأسيساً للعقائد، واستصلاحاً للناس في دنياهم، واستنقاذاً لهم في أخراهم، فضلاً من الله ونعمة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبأ: ٣٩].

﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩].

من أساليب القرآن:

ولذلك تعددت وتنوعت أساليب القرآن العظيم في عرض هذه الصفات، تنوعاً عجيباً، وتكاثرت وتناثرت في تضاعيف الآيات والسور على طرائق شتى، ومنها:

---

(١) كل ما ذكرناه في صفات النار والجنة موجود في القرآن نصاً، وهو غيض من فيض.

(٢) الوهم: خطرات النفس وهواجسها، والمعنى أن الخيال مهما امتد لا يبلغ حقيقة الجنة.

(أ) إفراد ذكر الجنة أو النار في موضع معين من السورة، أو إفراد أحدهما في سورة كاملة.

ولا يكاد يوجد هذا في جانب "الجنة" إلا في السور الطوال، أو في الإشارة العابرة مثل: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾[1] [الفرقان: ٢٤].

ويكاد جانب "النار" يتفرد بهذا الإفراد، إزعاجاً للإنسان عن شهواته وضلاله، وتذكيراً له بما يوقظه من غفلته، ولذلك يكثر توجيه هذا اللون إلى طواغيت الأمم، وأكابر مجرميها، وعتاة مترفيها، لأنه أدخل في زجرهم أما إغراؤهم بالنعيم فلا يبلغ منهم مبلغ صاحبه، لكثرة ما يهيمون فيه من ألوان الشهوات والملذات، وهذا لون عجيب من الحكمة البالغة التي بُنِيَ عليها القرآن العظيم .

وهناك جانب آخر لكثرة إفراد النار، وهو مناسبة فطرة الإنسان في إيثاره السلامة من الخطر على اللّذة، ولذلك كان أعظم الآمال يوم القيامة ليس طلب النعيم ابتداء، وإنما النجاة من هول القيامة، وبلاء النار، ولو بالموت والعدم المحض، وهذه أكبر أمنية لأهل النار: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[2]

[الزخرف: ٧٧]

ولعل هذا هو حكمة ورود "المؤمنين" على النار، ليروا مقدار فضل الله عليهم بالنجاة من هذا الهول، ثم مضاعفة فضله بالنعيم.

ومن أمثلة هذا في القرآن قوله تعالى:

﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ • نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٤- ٦]. والآية الكريمة نزلت في طاغية قريش "أمية بن خلف" وأمثاله، والحطمة النار التي تحطم كل ما يلقى فيها.

---

(١) ذكرت النار قبلها في أول السورة، ثم فصل بينها بكلام عن الكفار، وجدلهم، وعنادهم.

(٢) مالك هو خازن النار.

وقال تعالى عن أبي لهب ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣].

وقال سبحانه عن فرعون هذه الأمة أبي جهل ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَه • سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧، ١٨] ولم يرد في السور الثلاث ذكر للجنة وهذا كثير في القرآن الكريم.

(ب) عرض مشاهد النعيم والجحيم مقترنين متجاورين، حتى تكتمل دائماً لدى الإنسان صورة الجزاء بشقيه، فتوقع في نفسه وحسه موازنة حاضرة بين المصيرين، وبذلك يساق إلى النجاة من جميع جوانبه، ويؤخذ عليه التأثير من جميع أقطاره، فيختار على وعي وفهم أحد الأمرين، ويحيا أو يهلك على بينة.

وهذا الضرب هو غالب أساليب القرآن في الحديث عن الجنة أو النار، ولذلك نجده شائعاً مستفيضاً في معظم سور القرآن الكريم، في الآية الواحدة، وفي الآيتين، وفي الجملة من الآيات، وفي الموضع الواحد، والعديد من مواضع السورة أحياناً، ويكثر هذا في "المفصَّل" من السور الكريمة، لأنه نزل تأسيساً للعقائد، مثل: ق والواقعة، والحاقة، والنبأ، والنازعات، والغاشية، والقارعة.

بل هناك سور كريمة تشكل هذه المقارنة طابعها العام الغالب خاصة بعد ذكر شيء من مشاهد القيامة مثل:

- سورة "الرحمن" التي تقارن بين النار، والجنات المتعددة في نحو من نصفها.
- وسورة "الواقعة" كذلك، حين قارنت بين الأزواج الثلاثة: "السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال" في نحو ثلثيها.
- وتكاد سورة "الحاقة" تكون كلها في هذه المقارنة، والمشاهد الممهدة للجزاء.
- ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من تذكير المسلمين كل أسبوع بهذه المعاني مقترنة، وذلك بقراءة سورتي "السجدة والإنسان"، في صلاة فجر الجمعة، وبقراءة سورة ق على المنبر في خطبة الجمعة، وبقراءة سورتي "الأعلى

والغاشية" في صلاة الجمعة ذاتها.

ومن الإعجاز المدهش أن كل سورة من هذه السور جميعاً تضمنت معاني وحقائق، وأساليب جديدة وعديدة مع أن الموضوع واحد.

وعلى سبيل المثال – لا الحصر – نجد أن:

- سورة "ق" وردت فيها آية لم ترد في سواها هي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَل مِن مَّزِيدٍ﴾ [٣٠].
- وسورة "السجدة" تفردت بوصف للجنة لم يأت في أخواتها: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [١٧].
- وسورة الإنسان وردت فيها أوصاف للجنة لم ترد في غيرها مثل: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا﴾ [١٣].

﴿ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا • قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [١٥، ١٦].

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلا﴾ [١٧]

فنفي الشمس والزمهرير، وإثبات القوارير، ومزاج الزنجبيل لم يأت إلا في هذه السورة الكريمة.

وسورة "الرحمن" تفردت بأوصاف للنار والجنة لم ترد في غيرها: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ • يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [٤٣، ٤٤].

﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [٥٨]

سابعاً: أمثلة قرآنية جامعة:

قد تقرر إذن استفاضة هذا اللون في القرآن العظيم ، ولذلك نكتفي بذكر بعض الأمثلة القرآنية الجامعة، التي تقترن فيها الصورتان:

قال تعالى في آية واحدة جامعة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ

وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقال تعالى في آيتين جامعتين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ، وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلاًّ ظَلِيلاً﴾

[النساء: ٥٦، ٥٧].

وقال تعالى في آيات متتابعة: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ، وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ، إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ، وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ١٩- ٢٤].

تنبيهان مهمان:

ولا يفوتنا في ختام هذا الموضوع أن ننبه إلى أمرين غاية في الأهمية:

التنبيه الأول: الخلود الأبدي:

فقد أكد القرآن تأكيداً قاطعاً أن الجنة والنار خالدتين أبداً، لا فناء لهما، ولا انقطاع فيهما، ولا موت لأهلهما، وإنما هي حياة الأبد، والخلود السرمدي.

وقد ورد هذا في القرآن الكريم بأساليب كثيرة جداً أشهرها أسلوب "الخلود الأبدي".

ذلك لأن معنى الخلود هو المكث الطويل، "وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود، كقولهم للأثافي خوالد، وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها".[1]

ولذلك أكد الله تعالى خلود الجنة والنار "بالأبدية" ليخرجه من المكث الطويل إلى البقاء الدائم، لأن معنى الأبد "مدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان".[2]

وقد ورد تأكيد الجنة بالخلود الأبدي في "تسع آيات"، وورد تأكيد خلود النار بالأبدية "ثلاث مرات"،[3] (الآية ١٦٩ سورة النساء، والآية: ٦٥ سورة الأحزاب، والآية: ٢٣ سورة الجن).

هذا عدا الآيات الأخرى - بغير هذا الأسلوب - مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

ففي الآية الكريمة نفي للخروج منها، وإثبات للعذاب الدائم.

ويقول تعالى عن أهل الجنة: ﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]

ولا يحل لمسلم أن يتأول هذه الآيات بأدنى شيء يخالف ظاهرها وحقيقتها، ومن قال بغير ذلك فقد خالف صريح القرآن، وكذّب متواتر السنة، وكفر بدين الله كفراً مبيناً نعوذ بالله تعالى من فتنة القول والعمل.

التنبيه الثاني: البعث والجزاء حقائق مؤكدة:

فليس البعث تَرَقِّيا روحياً كما زعم الزنادقة الملحدون في آيات الله، وليس فيه أي تصوير مجازي ، وإنما هو حقائق أكيدة سواء في انقلاب الكون وتصدعه بأمر

(١) المفردات للراغب مادة "خلد" ص١٥٤، والأثافي: الحجارة التي يوضع عليها القِدْر على النار.

(٢) المفردات للراغب مادة "أبد" ص٨.

(٣) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص١. مع ملاحظة أن الآية التاسعة في شأن أبدية الجنة هي قوله تعالى ﴿ماكثين فيه أبدا﴾ الكهف: ٣. والمكث كالخلد وزنا ومعنى، وقد قُيد بالأبدية.

ربه، لا باستنفاد طاقته كما يزعم الملاحدة المعاصرون، أو قيام جميع الناس فيه بذواتهم، وأوصافهم وأجسامهم، ونطق جوارحهم نطقاً حقيقياً، ووزن الأعمال وزناً حقيقياً (وعلم الكيفية عند الله تعالى) وهكذا كل حقائق النشأة الآخرة.

ومن هنا يتقرر أن العذاب، والنعيم كلاهما أو حقيقي، وليس جزاء روحياً، أو فكرياً، أو ترقيا إلى ما يشبه الملائكة في الجنة كما زعمت النصارى وأمثالهم، فإن هذا وأمثاله، كلها ضروب من جدليات الفكر البشري، وأضاليله التي تخالف حقائق الوحي الإلهي، على ألسنة الرسل جميعاً، والتي يمثلها القرآن جميعاً أصدق تمثيل، لأنه كتاب محفوظ بلفظه وحروفه، ولم يتطرق إليه أدنى شائبة من التحريف أو التغيير، بفضل الوعد الإلهي الكريم.

ومن يتأمل القرآن الكريم يجده على غاية الصراحة في إثبات الحقيقة الكاملة لكل أحوال النشأة الآخرة.

وقد قرأنا في الآيات السابقة أن أهل النار يُسقون ماءً حارًا فيقطع أمعاءهم، وتقطع لهم ثياب من نار، وتنضج جلودهم من النار، وتبدّل دائماً.. الخ، وكل هذه معان حسية واضحة محددة.

فلا يحل لمسلم قط أن يتأول هذه الآيات والمعاني، بأن أن يصرفها عن ظاهر الكلام العربي والمدلول الشرعي الذي فهمه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأفهمه أصحابه، وتواتر تواتر اليقين والبدهيات.

على أننا ننبه هنا إلى أمر ضروري هو: أن قوانين الحياة الأخرى ستختلف عن الدنيا، حتى تناسب أهلها، فلا يصح قياس هذه على تلك.

فقوانين الله في الدنيا تحكم باحتراق الجسد من أدنى النار.

وقوانين الله تعالى في الآخرة تحكم ببقاء الجسد رغم هذا الهول، كما هو صريح القرآن : ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وكذلك في الجنة يكون النعيم للأجساد، فتلذ الأعين، وتسمع الأذن كل طيب، ولهم فيها أزواج مطهرة، ويأكلون ويشربون ، ويكونون على سرر متقابلين، وينزع الغل من قلوبهم، وغير ذلك من الأمور التي يراد بها حقائقها.

لكن الأجساد تعطي خصائص جديدة، ويكون لها من النعيم الحسي ما يناسب جلالها وعظمتها، ولذلك كان ابن عباس رضى الله عنهما يقول: "ليس في الدنيا مما في الجنة شيء إلا الأسماء"،[1] أي أن فيها فاكهة ليست كفاكهة الدنيا، فالاسم واحد، والحقيقة مختلفة، والكمال في جانب الجنة، وهكذا في كل شيء.

وقد جمع القرآن هذه المعاني في إيجاز وإعجاز فقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

ولعل أجمع ما يبين هذه الحقيقة هو الحديث القدسي الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم : "قال الله تعالى : أعْدَدْت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذُن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر" قال أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[2] .

اللهم يا حي يا قيوم.

يا ذا الجلال والإكرام.

اجعلنا من أهل الفردوس الأعلى بفضلك العظيم.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) انظر فتح القدير للشوكاني (١/ ٥٥) في تفسير الآية رقم ٢٥ من سورة البقرة، وقد عزاه إلى ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما، البخاري (٦/ ٢١) تفسير سورة "تنزيل السجدة" والآية المذكورة رقم ١٧ منها.

أسئلة التقويم الذاتي

س١: ما العلاقة بين قوله تعالى: ﴿إن الساعة لآتية لا ريب فيها﴾ واليوم الآخر؟

س٢: إن الله جعل اليوم الآخر هو غاية الوجود وحكمته، وضح ذلك مستدلاً بالآيات؟

س٣: يقول تعالى: ﴿أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ توضح الآية الكريمة أثر اليوم الآخر في حياة البشر، وضح ذلك؟

س٤: أوضحت الآيات الكريمة أن إنكار الكفار لليوم الآخر إنكار بلا دليل، اذكر آية توضح ذلك؟

س٥: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ ما دلالة هذه الآية بالنسبة لليوم الآخر؟

س٦: من مشاهد الآخرة نفخة الصعق والإحياء و..........

س٧: يقول الله تعالى ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم﴾ على أي حال للناس تدل هذه الآية الكريمة؟

س٨: يقول تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ على أي أحوال الموقف وأهواله تدل الآية السابقة؟

س٩: من الأشياء التي تحدث يوم الحساب والفصل أن ترى كل أمة جاثية والرسل شاهدة والحساب الفردي، اذكر الآيات التي تقرر هذه الأشياء؟

س١٠: اذكر نوعي الحساب الفردي للعبد؟

س١١: يقول الله تعالى: ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾

﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾

﴿وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يعلمون﴾.

توضح هذه الآيات أن هناك شهوداً على الإنسان يوم القيامة اذكر الشهود الذين أوضحتهم الآيات السابقة؟

الخلاصة

الوحدانية والتوحيد في القرآن

- الوحدانية: هي صفة لله تعالى وهي حقيقة قائمة بذاته جل شأنه
- التوحيد: هو اعتقاد المكلفين بهذه الصفة على وجهها الشرعي.

- الاهتمام
  - جوامع الألفاظ
  - أصل الأصول جميعا
- أساس دعوة جميع الرسل
  - الربوبية والألوهية وصلتهما بالتوحيد
- التوحيد عقيدة شاملة
  - أساليب القرآن في الحديث عن
- الاستدلال القرآني : الأدلة الكونية – العقلية – النفسية

المعية في القرآن الكريم

المعية: هو لفظ يقتضي الاجتماع إما في المكان أو في الزمان أو في الشرف والمرتبة.

أنواع المعية : معية الله لعباده – معية العباد لله – معية الناس لما حولهم من الأحياء والأشياء

- معية الله لعباده
  - ١– المعية العامة
  - ٢– المعية الخاصة
- معية العباد لله
- معية الناس لما حولهم من الأحياء والأشياء
  - ١– معية الناس لغيرهم من الخلائق
  - ٢– معية الناس بعضهم لبعض
  - ٣– المعية بين الرسل والناس

نماذج من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

التبعية في القرآن الكريم

- التبعية: يقال تبعه واتبعه وقفا أثره
  أنواع التبعية : التبعية المحمودة – التبعية المذمومة
- التبعية المحمودة : ١ – اتباع الوحي ٢ – اتباع الرسل
- التبعية المذمومة: ١ – اتباع الذات في الباطل
  ٢ – اتباع الإنسان غيره في الباطل
  ٣ – اتباع الشيطان – اتباع الآباء – اتباع الطواغيت
- جزاء التابع والمتبوع في القرآن : بالباطل – بالحق

العلم والعلماء في القرآن

- العلم: إدراك الشيء بحقيقته العلم اصطلاحا: معرفة الله تعالى وما يليق به من صفات وأفعال ومعرفة حلاله وحرامه
- شرف العلم : ١ – أنه صفة الله ٢ – قرين نعمة الله
  ٣ – امتياز لآدم على غيره ٤ – أول القرآن نزولا
  ٥ – وصف لأكرم الخلق ٦ – غاية التشريف لأهله
- العلم تكليف قرآني : ١ – العلم مطلوب شرعا
  ٢ – العلم المنهي عنه شرعا
- أقسام العلم : العلم المطلق المحيط لله تعالى- العلم المحدود الممدود
- آداب العلم : ١ – آداب المعلم ٢ – آداب المتعلم
  ٣ – مثال للرحلة العلمية وآدابها

الآخرة ومشاهدها في القرآن

- الآخرة: النشأة التي تقابل الدنيا والتي تبدأ مقوماتها من نفخة الصعق ثم نفخة القيامة وما في يومها من مشاهد وما يعقبها من دخول الجنة أو النار، – أوجه الخلود الأبدي
- حقيقة لا ريب فيها
- غاية الوجود وحكمته – ضرورة لضبط الحياة
- إنكار الكفار بلا دليل – أدلة القرآن على وقوعها
- من مشاهد الآخرة : نفخة الصعق – نفخة الأحياء – تصدع الكون وتبدله – أحوال الناس في البعث
- الصراط في القرآن – صفات الجنة والنار في القرآن
- تنبيهان مهمان : الخلود الأبدي – البعث والجزاء حقائق مؤكدة

الاختبار البعدي للوحدة

س١: تسلم عامة الأمم بوجود الله تعالى إلا صنفين هم الذين أنكروا وجود الله تعالى، اذكرهما من خلال الآيات القرآنية التي تشير إليهم؟

س٢: بماذا تعلل اهتمام القرآن الكريم البالغ بقضية التوحيد؟

س٣: التوحيد وتقرير الوحدانية لله تعالى هي أساس دعوة الرسل جميعاً عليهم السلام، وقد سلك القرآن في عرض ذلك طريقين الطريق الاجمالي والطريق التفصيلي، فإلى أي من الطريقين تنضم الآيات الآتية:

أ- ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾.

ب- ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾.

ج- ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾.

د- ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾.

هـ- ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى • إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني﴾.

و- ﴿قل هو الله أحد • الله الصمد • لم يلد ولم يولد • ولم يكن له كفوا أحد﴾.

س٤: ما المعنى المشترك الذي يجمع بين الربوبية والألوهية، وكيف أن الوحدانية والتوحيد هما مجموع الأمرين؟

س٥: التوحيد عقيدة شاملة تستوجب إفراد الله بالعبادة وبالطاعة في شئون الحياة. اذكر من الآيات ما يوضح هذا المعنى؟

س٦: للقرآن الكريم أساليب في الحديث عن الوحدانية والتوحيد يتنوع ما بين الخبر

المجرد والمؤكد وأسلوب الطلب وأسلوب الأمثال والمحاورة والقصة اذكر نوع الأسلوب في الآيات الآتية:

(١) ﴿الحمد لله رب العالمين﴾

(٢) ﴿قل إنما هو إله واحد • وإنني بريء مما تشركون﴾

(٣) ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾

(٤) ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

(٥) ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً • إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾.

(٦) ﴿ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون • قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم • أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾

س٧: اذكر أنواع الأدلة القرآنية على الله تعالى التي ساقها القرآن في الآيات المختلفة مع ذكر آية كمثال لكل نوع؟

س٨: تنقسم المعية في القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام اذكرها فقط؟

س٩: ما هو نوع المعية المذكورة بالآية الآتية: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾.

س١٠: اذكر بعضاً من صور معية الرسل للناس؟

س١١: المعية الدينية للرسل من جانب الناس تحدث عنها القرآن إجمالاً وتفصيلاً. اذكر لأي من الطريقتين تنضم الآيات الآتية؟

﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم﴾.

﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾.

﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾.

﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾.

﴿رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾.

﴿وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك﴾.

﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك﴾.

س١٢: تحت أي أنواع التبعية تنضم التبعيات الآتية:

اتباع الرسل عليهم السلام.

اتباع الذات في الباطل.

اتباع الشياطين.

اتباع الصالحين.

س١٣: اذكر اثنين من موقف الطواغيت من تبعية الرسل؟

س١٤: اذكر بعض ما ذكره القرآن الكريم في مجال تشريف العلم؟

س١٥: علم الله بالكليات لا ينفي علمه تعالى بالجزئيات، اذكر آيات توضح علم الله تعالى بالجزئيات؟

س١٦: تحت أي قسم من أقسام العلم تندرج هذه العلوم:

علم الغيب.

العلم بأخفى الخفيات.

علم الملائكة.

علم الرسل بالوحي والدين.

علم الخلائق (الشياطين - الحيوانات - الجمادات).

س١٧: أذكر أدباً واحداً من آداب المتعلم والمعلم؟

س١٨: اذكر من الآيات ما يوضح إنكار الكفار للآخرة بلا دليل ويوضح أدلة القرآن على وقوعها؟

س١٩: أحوال الناس في الموقف يوم القيامة تكون شديدة منها تقطع الأنساب والأسباب وتباين الأحوال اذكر من القرآن ما يؤكد ذلك؟

س٢٠: ذكر القرآن بعضاً من الشهود التي تشهد على الإنسان؟ اذكر اثنين من هذه الشهود مع ذكر الآيات المؤكدة لذلك؟

المراجع والمصادر[1].

أولاً: القرآن الكريم وتفسيره وعلومه:

١-القرآن الكريم[2]

٢-جامع البيان	للإمام محمد بن جرير الطبري
٣-تفسير القرآن العظيم	للإمام ابن كثير.
٤-معالم التنــزيل	للإمام البغوي
٥- فتح القدير	للإمام الشوكاني.
٦- لباب التأويل	للإمام الخازن.
٧-مفاتيح الغيب	للإمام الفخر الرازي.
٨-إرشاد العقل السليم	للإمام أبي السعود
٩- أنوار التنزيل	للإمام البيضاوي
١٠- تفسير الجلالين	للإمامين: جلال الدين السيوطي، وجلال الدين المحلى.
١١- الفتوحات الإلهية[3]	للإمام سليمان بن عمر الشهير (بالجمل)
١٢- حاشية الصاوي على الجلالين	للإمام أحمد الصاوي.
١٣- في ظلال القرآن	للشهيد سيد قطب.
١٤-نيل المرام من تفسير آيات الأحكام	للإمام محمد صديق خان

(١) راعينا في ترتيبها عدة اعتبارات، كالتقارب الموضوعي، والزمني ما أمكن.

(٢) أرقام الآيات الكريمة مأخوذة من المصحف الشريف المطبوع في مصر عام ١٣٤٢هـ وجاء في تعريف العلماء الذين أشرفوا على إخراجه أنه: "اتُبعت في عَدّ آياته طريقة الكوفيين، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السُّلمي، عن علي بن أبي طالب.. وآي القرآن على طريقتهم: ٦٢٣٦".

(٣) اشتهرت بحاشية الجمل على الجلالين.

١٥-أقسام القرآن	للإمام ابن القيم.
١٦-تأويل مشكل القرآن	للإمام ابن قتيبة.
١٧- المفردات	للإمام الراغب الأصفهاني.
١٨- نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن	للإمام أبي بكر السجستاني.
١٩-مقدمة في أصول التفسير	للإمام ابن تيمية (تحقيق د/ عدنان زرزور).
٢٠-التفسير البياني للقرآن الكريم	د/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)
٢١-المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم	للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي.
٢٢-معجم ألفاظ القرآن الكريم	مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
٢٣-المعجم المفهرس لموضوعات القرآن	للدكتور عبد الصبور مرزوق.(١)
٢٤-معجم غريب القرآن	للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي.
٢٥-دراسات لأسلوب القرآن الكريم(٢)	للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة.
٢٦- أسرار التكرار في القرآن (٣)	للإمام الكرماني (تحقيق الأستاذ عبد القادر عطا)
٢٧- تفصيل آيات القرآن الحكيم	للمستشرق جول لابوم(٤)
٢٨-المستدرك	للمستشرق إدوار مونتيه.(٤)
٢٩-الإتقان في علوم القرآن	للإمام جلال الدين السيوطي.

(١) مخطوط، وقد أشرت إليه سابقاً .

(٢) يقع في أحد عشر مجلداً ومطبوع في مطبعة السعادة، ومطبعة حسان بالقاهرة.

(٣) اسم الكتاب الأصلي: "البرهان في توجيه متشابه القرآن" طبعة دار الاعتصام بالقاهرة.

(٤) نقلهما إلى العربية الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله ، وجعلهما في مجلد واحد كبير. (انظر الطبعة الثانية : ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م).

٣٠-البرهان في علوم القرآن	للإمام بدر الدين الزركشي.
٣١-منهج الفرقان في علوم القرآن	للشيخ محمد علي سلامة.
٣٢-مناهل العرفان في علوم القرآن	للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني.
٣٣-المدخل لدراسة القرآن الكريم	للشيخ محمد أبي شهبة.
٣٤- التفسير والمفسرون	للدكتور: محمد حسين الذهبي.
٣٥- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم	للدكتور أحمد السيد الكومي.
٣٦- البداية في التفسير الموضوعي.	للدكتور: عبد الحي الفرماوي.
٣٧- محاضرات في التفسير الموضوعي[1]	للشيخ فوزي السيد عثمان.
٣٨- النبأ العظيم	للدكتور محمد عبد الله دراز.
٣٩- مدخل إلى القرآن الكريم	للدكتور محمد عبد الله دراز. (ترجمة الأستاذ محمد عبد العظيم)
٤٠- المنهاج القرآني في التشريع	للمؤلف (رسالة دكتوراه - مكتبة كلية أصول الدين، بالقاهرة).[2]
٤١- معركة الوجود بين القرآن والتلمود	للمؤلف.
٤٢-اليهود في القرآن	للشيخ محمد عزة دروزة.
٤٣- الصبر في القرآن	للدكتور يوسف القرضاوي.
٤٤-اليهود في القرآن	للأستاذ عفيف طبارة.
٤٥- الإنسان في القرآن	للأستاذ عباس العقاد.
٤٦- دلائل النظام	للإمام عبد الحميد الفراهي.[3]

(١) رسالة صغيرة (مطبعة الآداب بسوهاج، مكتبة الشعب، ١٩٦٠).

(٢) طبع بالقاهرة ١٤١٣هـ ــ الطبعة الأولى.

(٣) مطبعة الدائرة الحميدية - الهند - ١٣٨٨هـ.

٤٧-إمعان النظر في نظام الآي والسور	للشيخ محمد عناية الله محمد هداية الله.[1]
٤٨- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم	للدكتور محمد محمود حجازي.
٤٩- الوحي المحمدي	للشيخ محمد رشيد رضا.

ثانياً: الحديث النبوي وعلومه:

٥٠- الجامع الصحيح	للإمام محمد بن إسماعيل البخاري.
٥١- صحيح مسلم	للإمام مسلم بن الحجاج.
٥٢-فتح الباري بشرح صحيح البخاري[2]	للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني
٥٣- الصحيح المسند من أسباب النزول	للشيخ مقبل بن هادي الوادعي.
٥٤-الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير	ترتيب الشيخ يوسف النبهاني.[3]
٥٥- الوضع في الحديث	للدكتور عمر بن حسن عثمان فلاته.
٥٦-قواعد في علوم الحديث	للشيخ التهانوي (تحقيق الشيخ أبي غدة).

ثالثاً: كتب اللغة:

٥٧-الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)	للإمام إسماعيل بن حماد الجوهري (تحقيق أحمد عبد الغفور عطار)
٥٨-القاموس المحيط	للإمام الفيروزباي.
٥٩- المختار من صحاح اللغة	للشيخين محيي الدين عبد الحميد، والسبكي.

(١) رسالة مقدمة لكلية أصول الدين بالرياض (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

(٢) تحقيق وترقيم ومقابلة الشيخ عبد العزيز بن باز، والأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب.

(٣) الزيادة: والجامع الصغير كلاهما للسيوطي رحمه الله.

٦٠- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب للإمام ابن هشام الأنصاري المصري.

رابعاً: كتب متنوعة:

٦١-الأسماء والصفات للإمام البيهقي.

٦٢-تحرير القواعد المنطقية للإمام قطب الدين الرازي.

٦٣-تهافت الفلاسفة للإمام أبي حامد الغزالي.

٦٤- جامع العلوم والحكم للإمام ابن رجب الحنبلي.

٦٥- الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام للمؤلف.

فهرس الموضوعات

مقدمة	٥
الهدف العام للكتاب	١٣
الرسم التوضحي للكتاب	١٤
الوحدة الأولى	
حقائق التفسير وأصوله	١٥
الأهداف الخاصة للوحدة	١٥
الرسم التوضحي للوحدة	١٦
التعريف بالمصطلحات	١٧
الفصل الأول: التفسير بمعناه العام	١٩
تعريف التفسير	١٩
نشأته	٢٠
تدوينه ومراحله	٢١
أنواعه ومناهجه	٢٣
أسئلة التقويم الذاتي	٢٦
الفصل الثاني: حقائق التفسير الموضوعي وأصوله.	٢٧
المبحث الأول: معنى التفسير الموضوعي	٢٨
تعريف الجزأين	٢٨
تعريف التفسير الموضوعي	٢٩
التفسير الموضوعي (بمعنى الفن المدون)	٣٠
تحقيق علمي حول لفظ الموضوعي	٣٠

أسئلة التقويم الذاتي	٣٣
المبحث الثاني: نشأة التفسير الموضوعي وتطوره.	٣٤
النوع الأول العام	٣٤
النوع الثاني الخاص.	٣٦
مناهج الموضوعي (الوجيز - الوسيط - البسيط)	٣٦
أسئلة التقويم الذاتي	٣٩
المبحث الثالث: نشأة التفسير الموضوعي وتطوره:	٤٠
العصر النبوي	٤٠
عصر الصحابة والتابعين	٤٢
بداية التدوين	٤٣
الاختصاص	٤٦
أسئلة التقويم الذاتي	٤٧
المبحث الرابع: وتطور هذا التفسير الجديد	٤٨
أسباب بروز التفسير الموضوعي	٤٨
تطور التفسير الموضوعي	٥٢
أسئلة التقويم الذاتي	٥٤
المبحث الخامس: أهمية التفسير الموضوعي وضرورته وفوائده	٥٥
إبراز إعجاز القرآن	٥٥
الوفاء بحاجة العصر	٥٧
تأصيل الدراسات القرآنية والعربية	٥٨
أولاً: علم الأصول القرآنية	٥٩

ثانياً: علم الإعجاز التشريعي ٦٤
ثالثا: علم الحكمة القرآنية ٦٦
رابعاً: تصحيح مسار الدراسات القائمة: ٦٨
أسئلة التقويم الذاتي ٧٣
المبحث السادس: منهج البحث في التفسير الموضوعي ٧٤
أولاً: الخطوات إجمالاً ٧٤
ثانياً: الخطوات تفصيلا: (ثماني خطوات) ٧٥
أسئلة التقويم الذاتي ٨٦
المبحث السابع: قواعد وتنبيهات ضرورية ٨٧
أولاً: الالتزام التام بعناصر القرآن، وظيفة السنة النبوية في التفسير للموضوعي ٨٧
ثانياً: التقيد التام بصحيح المأثور ٩١
ثالثاً: تجنب الحشو والاستطراد في التعليق ٩٤
رابعاً: التدقيق التام قبل التقعيد والتأصيل ٩٥
خامساً: مراعاة خصائص القرآن الكريم ٩٨
أسئلة التقويم الذاتي ١٠٩
المبحث الثامن: تتمات ورد شبهات ١١٠
أولاً: حكم الجمع الموضوعي وتفسيره ١١٠
ثانياً: وجوه الترتيب القرآني وموقف الجمع الموضوعي منها ١١١
ثالثاً: شبهات وردها ١١٣
أسئلة التقويم الذاتي ١١٨
خلاصة الوحدة ١١٩

الاختبار البعدي للوحدة ١٢١

الوحدة الثانية

نماذج من التفسير الموضوعي ١٢٣

الموضوع الأول: الوحدانية والتوحيد في القرآن الكريم ١٢٤

تمهيد وتعريف ١٢٥

الوحدانية والتوحيد ١٢٦

صفات الله تعالى وأسماؤه ١٢٧

الوجود الإلهي حقيقة مسلمة ١٢٧

ضلال البشر في عقيدة التوحيد ١٣٠

موقف القرآن الكريم من الموضوع: ١٣٠

أساليب القرآن في الحديث عن الوحدانية و التوحيد ١٤٣

أسئلة التقويم الذاتي ١٥٤

الموضوع الثاني: المعية في القرآن الكريم ١٥٥

المعنى اللغوي ١٥٥

ورود الموضوع في القرآن الكريم ١٥٦

الأنواع الجامعة للمعية في القرآن الكريم ١٥٧

النوع الأول: معية الله تعالى لعباده ١٥٧

النوع الثاني: معية العباد لله تعالى ١٦٠

النوع الثالث: معية الناس لما حولهم وأقسامها ١٦٤

أسئلة التقويم الذاتي ١٨٨

الموضوع الثالث: التبعية في القرآن الكريم ١٨٩

المعنى اللغوي	١٨٩
وروده في القرآن الكريم	١٨٩
أنواع التبعية	١٩٠
تفصيل القرآن وبيانه الشامل للتبعية	١٩١
موقف القرآن من التبعية المحمودة وأقسامها	١٩١
القسم الأول: اتباع الوحي الإلهي	١٩١
القسم الثاني: اتباع الرسل عليهم السلام	١٩٢
طريقة القرآن في تسجيل التبعية للرسل عليهم السلام	١٩٣
(الطريق الإجمالي العام)	١٩٣
الطريق التفصيلي (من نوح إلى محمد عليهما السلام)	١٩٤
مثالان جامعان عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه	٢٠٣
المثال الأول: عن المعية	٢٠٣
المثال الثاني: عن التبعية والأصول الأربعة أيضا	٢٠٥
القسم الثالث للتبعية المحمودة: اتباع الصالحين	٢٠٦
موقف القرآن الكريم من التبعية المذمومة وأقسامها:	٢٠٧
القسم الأول: اتباع الذات في الباطل - الثاني اتباع الغير في الباطل	٢٠٨
اتباع الشيطان	٢٠٩
اتباع الأسلاف والآباء	٢٠٩
اتباع الطواغيت	٢١٠
موقف الطواغيت من تبعية الرسل عليهم السلام	٢١١
جزاء التابع والمتبوع	٢١٤

أسئلة التقويم الذاتي	٢١٦
الموضوع الرابع: العلم والعلماء في ضوء القرآن الكريم	٢١٧
معنى العلم	٢١٧
ورود الموضوع في القرآن	٢١٨
سعة الموضوع سعة بالغة	٢١٩
أولاً: شرف العلم في القرآن الكريم	٢٢٠
ثانياً: العلم تكليف قرآني	٢٢٣
ثالثاً: أقسام العلم في القرآن الكريم	٢٢٦
القسم الأول: العلم المطلق المحيط وفيه تفصيلات	٢٢٦
القسم الثاني: العلم المحدود	٢٣٨
العلوم الوهبية	٢٤٣
والعلوم الكسبية	٢٤٤
الأصل الرباني لعلوم الاكتساب	٢٤٥
المحمود والمذموم منها	٢٤٧
رابعاً: آداب العلم والرحلة في طلبه	٢٥٤
آداب المعلم	٢٥٤
وآداب المتعلم	٢٥٦
مثال جامع للرحلة العلمية وآدابها (موسى والخضر عليهما السلام)	٢٦٠
أسئلة التقويم الذاتي	٢٦٤
الموضوع الخامس: الآخرة ومشاهدها في ضوء القرآن	٢٦٥
معنى الآخرة ومشاهدها	٢٦٥

ورود ألفاظ الموضوع في القرآن الكريم	٢٦٦
من أسرار الإعجاز القرآني في تصريف الألفاظ.	٢٦٧
غاية السعة في تناول الموضوع:	٢٧١
أولاً: حقيقة لا ريب فيها	٢٧٢
ثانياً: غاية الوجود وحكمته	٢٧٣
ثالثاً: ضرورة لضبط الدنيا	٢٧٤
رابعاً: إنكار الكفار لها	٢٧٥
خامسا: أدلة القرآن على وقوعها	٢٧٦
سادساً: من مشاهد الآخرة	٢٧٨
١- نفخة الصعق ٢- نفخة الإحياء	٢٧٩
٣- تصدع الكون وتبديله	٢٧٩
٤- أحوال الناس من البعث إلى الفصل	٢٨٢
أولاً: الشتات الشامل	٢٨٣
ثانياً: الحشر والتمييز بين المؤمن والكافر	٢٨٤
ثالثاً: طول الموقف وحكمته	٢٨٥
رابعاً: أحوال الموقف وأهواله ومشاهده:	٢٨٦
أ - تقطع الأنساب	٢٨٧
ب- تباين الأحوال	٢٨٧
ج- المقام المحمود	٢٨٨
د- الحساب والفصل	٢٨٨
الصراط في القرآن (تحقيق علمي)	٢٩٥

صفات الجنة والنار	٢٩٦
تنبيهان مهمان	٣٠١
التنبيه الأول: الخلود الأبدي	٣٠١
التنبيه الثاني: البعث والجزاء حقائق مؤكدة	٣٠٢
أسئلة التقويم الذاتي	٣٠٥
الخلاصة	٣٠٧
الاختبار البعدي للوحدة	٣٠٩
المراجع والمصادر	٣١٣
فهرس الموضوعات	٣١٨